

الطبعة الرابعة

د. عبد الرحيم العطري

الرحامنة

القبيلة بين المخزن و الزاوية

منشورات دفاتر العلوم الإنسانية

د. عبد الرحيم العطري

الرحامنة

القبيلة بين المخزن والزاوية

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب: **الرحامنة: القبيلة بتن المخزن و الزاوية**

المؤلف: الدكتور عبد الرحيم العطري

الناشر: دفاتر العلوم الإنسانية

سلسلة: أبحاث و دراسات، رقم 1

المطبعة: طوب بريس، الرباط

الطبعة: الرابعة

السنة: فبراير 2013

الإيداع القانوني: 2012MO0937

ردمك: 978-9954-300-901-8

إهــداء

إلى حماتي و أمي الثانية

المرحومة للا فاطمة الشافي

إليك أهدي هذا البحث المتواضع

ذكرى لقاءات و أسفار بهية

كنا، معا، نهجر الجميع، و ننتصر معا لنوستالجيا الفقد والانتماء

أتعلم منك تاريخ الإنسان و المجال

وأختبر معك مدارات الزمن

واحتمالات الهوية و الانشراخ

بعيدا . . بعيدا . . برفقة الألق و الشموخ

إليك هذه الحروف حبا و التياعا

سائلا العلي القدير أن يتغمدك بواسع الرحمة و المغفرة

ابنك البار: عبد الرحيم

المحتويات

تمهيد

سجلت الرحامنة، منذ القرن التاسع عشر على الأقل، حضوزا قويا في عدد من الاتجاهات والوقائع، وهو حضور لاح في كتابات الإخباريين والمؤرخين، كما تأكد أيضا في مستوى الالتباس الذي يرافق التعاطي مع هذه القبيلة، فحينا يتم "الحكم" عليها بأنها من قبائل السيبة، وحينا آخر يتم توصيفها بأنها من قبائل الكيش، فيما يلح آخرون على أنها لم تكن إلا من قبائل النايبة.

يتوجب النظر إذا إلى علاقة الرحامنة بالمخزن و الزاوية، في سياق عام من التحولات التي عرفها مغرب القرن التاسع عشر، حيث الأطماع الخارجية تتواتر والأزمات التدبيرية في مستوى السلطة المخزنية لا تكاد تنخمد إلا لتنطلق شراراتها من جديد، اتصالا بموت سلطان وعُسْر استخلاف، فضلا عن القحوط والجوائح المتوالية. لهذا يتوجب الرجوع إلى القبيلة في علاقاتها الممكنة مع المخزن لتجاوز هذا الالتباس، ثم مع الزاوية لاكتشاف حدود وامتداد المقدس في صناعة النخبة المحلية وتجسير العلاقات مع المخزن أيضا، فالزاوية، أية زاوية، لا تمنع نفسها من التحالف أو التعارض مع السلطة المخزنية، تبعا للغة المصالح والتوازنات.

إن حضور الرحامنة اليوم في مغرب متحول، يظل محكوما بتاريخ من الأداء السياسي والاجتماعي، كما أنه مرتبط بتاريخ القبيلة وعلاقاتها مع المخزن والزوايا وباقي القبائل الأخرى، وأساسا بعلاقتها بالمجال/ الأرض الذي يعد شرطا مؤسسا للانتماء والمشترك، فالمجال الرحماني هو مجال مكتسب حديثا، مقارنة مع وضعية القبائل المجاورة على الأقل. ذلك أن المجال في حركيته وتاريخيته يعد مدخلا لقراءة الفعل الاجتماعي، فليس هناك من مجال محايد أو جامد، ثمة تفاعلات وتأثيرات متواصلة تكاد تنسحب على مجموع النسق، خصوصا عندما يكون هذا المجال من الناحية الجغرافية مفتوحا على التعدد والتركيب، أو موضع رهانات وصراعات وتنافسات مستمرة بين السلطة المخزنية والقبائل المجاورة.

وعليه، وإذا كانت القراءة تتحدد بمسعاها المعرفي، وتتوسل في اشتغالها بمقاربات محددة، فإن القراءة التاريخية و السوسيولوجية التي نروم إنجازها في مستوى قبيلة الرحامنة، تسعى إلى قراءة العلاقات والتراتبات الاجتماعية التي تفسر ثلاثية "القبيلة، المخزن، الزاوية"، والتي يعد تدبير المجال وامتلاكه ركنا أساسيا في إنتاجها. وبما أن "كل تخصص علمي يتوزعه باستمرار قلق إعادة موضوع البحث إلى مجاله الطبيعي

والتاريخي"[1]، فإن هذه المساهمة المتواضعة تندرج بالضبط في إطار محاولة لإعادة "قراءة" القبيلة في علاقاتها و"جواراتها"، أملا في تجاوز منطق "التضخم السياسي" الذي تجابه به في كل حين.

يتعين في البدء أن نبحث في تاريخ الرحامنة، في محاولة لاكتشاف الإنسان والمجال، وتحديد الأسس الرمزية والمادية لبناء القبيلة وإعادة إنتاجها، فقراءة تاريخ المجال ليست مجرد ضرورة منهجية تستوجبها المقاربة المونوغرافية، وإنما هي فعل مؤسس لقراءات أخرى لشكل وجوهر العلاقات الاجتماعية والبنيات السوسيوسياسية التي أنتجها الانتماء المشترك لهذا المجال. فالمسعى المعرفي، في مستوى أول، يتوزع على أربعة فصول تسائل البدء والامتداد، والمجال والإنسان في علاقاته الداخلية والخارجية، وبالطبع فهذا المسعى لن يكتمل بدون الرجوع إلى أخبار النسابين والمؤرخين والجغرافيين، "فعلى كل سوسيولوجيا أن تكون تاريخية، وعلى كل تاريخ أن يكون سوسيولوجيا"[2]. ففي التاريخ الاجتماعي للمجال يمكن تلمس بعض أو كل من ديناميات النسق.

لهذا نعتبر أن التفكير في المجال كفضاء لكتابة العلاقات والتراتبات، لن يكون ممكنا إلا بالاشتغال عليه في صيغة ترابط وتقاطع مع باقي مكوناته المجتمعية، وهو ما سيجعل منه تيمة مرافقة لنا، وفق جدل حضور وغياب على طول اشتغالنا على الرحامنة بين القبيلة والمخزن والزاوية.

إن الحركية المجالية للرحامنة ستؤثر حتما في تشكيلات القبيلة بالانتقال من مستوى الانغلاق إلى معطى الانفتاح والاستقبال المستمر لمكونات قبلية أخرى، تنتمي إلى سجلات ومجالات ثقافية أخرى بعيدة وقريبة، وفي هذا الإطار يمكن الحديث عن حضور المكون الأمازيغي والهلالي في عشائر الرحامنة، خصوصا وأن هذه الحركية تتم في مجال "عبوري" يعرف حركيات وتفاعلات مستمرة بين القبائل والزوايا والمخزن.

كما أن الانتقال من واقع الترحال إلى معطى الاستقرار، لا بد وأن يفرز وقائع اجتماعية وسياسية جديدة، فثمة بنيات وعلاقات تتأسس على ضوء هذا الانتقال، وهي ذات البنيات والعلاقات التي تتجاوز أنماط العيش إلى مستوى بناء وتصريف السلط، عبر تجذير الزعامات المحلية وتحديد التراتبات الضرورية لذلك.

إن تملك المجال، أو السعي إلى تملكه، ضمن شروط تاريخية متفاعلة مع سياقاتها، هو تجذير لواقع من التراتبات الاجتماعية، كما أنه إعادة بناء لأنظمة مادية ورمزية تؤسس للعلاقات

---

[1] Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, CURS, INAV, Rabat et CNRS, Paris, 1977..p.16.

[2] Pierre Bourdieu, Réponses: Pour une anthropologie réflexive, Editions Seuil.Paris.1992.p.67.

والتصورات والممارسات الممكنة بصدد العينية والترقي الاجتماعي، فكل تملك ممكن للمجال إلا وينتج انبناءً لمنظومات رمزية تتجذر تاريخيا، وأخرى مادية تنكشف في النبالة العقارية التي تقود نهاية إلى إحداث تمايزات قوية بين من يملك ومن لا يملك.

لكن كيف تم استنزال هذه الحركية القبلية والمجالية في علاقة دالة ومؤثرة مع "ثلاثية" القبيلة والمخزن والزاوية؟ وكيف جرى تقعيد القائدية المحلية الممثلة في القائد العيادي؟ ولماذا انطبعت العلاقة بين القبيلة والمخزن بنوع من التوتر في أحايين معينة؟ ذلكم ما سنحاول الإجابة عنه بمقدار لا يدعي الكمال أو الاكتمال، في مظان هذا العمل، الذي نريده نافذة نطل من خلالها على قبيلة الرحامنة.

إن استدعاء هذه الثلاثية "القبيلة، المخزن، الزاوية" له ما يبرره عمليا وموضوعيا، ففهم وتفهم الكثير من الديناميات والأساسيات التي تحدد ملامح المجتمع المغربي، يظل محدودا بدون تتبع هذه المكونات، كما أن التمكن، أو على الأقل، الاقتراب من تطورات المغرب الراهن يكون متعذرا أحيانا بدون الرجوع إلى مغرب القرن التاسع عشر، الذي كانت ثلاثية "القبيلة والمخزن والزاوية" مساهمة إلى حد كبير في تدبيره وإنتاجه وإعادة إنتاجه.

فالعودة إلى التاريخ، لتتبع وقراءة اشتغال النسق القبلي الرحماني، لن يكون مسكونا بهاجس تأريخي يبحث عن شواهد معينة لتبرير وقائع أخرى، بل إنه عمل يراد منه استدعاء المسار القبلي في تفاعل مع مؤسسات أخرى كان لها الدور البارز في صياغة العلاقات الداخلية والخارجية لذات النسق.

و الله ولي التوفيق والسداد.

سلا، 21 مارس 2012

الفصل الأول:

"فرضية" الجد المشترك
بحثا عن البدء والامتداد

كان المغرب مثار نقاش العديد من الطروحات النظرية، التي توزعت ما بين الخلدونية والماركسية والانقسامية، فضلا عن اجتهادات المعرفة الكولونيالية التي توجهت إلى المجتمع المغربي بالدرس والتحليل، منتجة بذلك لكثير من الأعمال التي همت البنيات والظواهر والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية والسياسية.

و بغض النظر عن الخلفية السياسية والعسكرية للأطروحة الكولونيالية[3]، فإن ما أنتج في الفترة الاستعمارية، يظل على قدر كبير من الأهمية، اعتبارا لسعة المنجز وقوته التداولية[4] وتغطيته

---

[3] فقد تعددت المواقف من السوسيولوجيا الكولونيالية إلى الدرجة التي بات متعذرا الحسم في عددها. ولعل هذا ما يدفع إلى التأكيد غير ما مرة، على أن القول بكون السوسيولوجيا الكولونيالية هي سوسيولوجيا استعمارية غير بريئة، هو مجرد تحصيل حاصل، ما دامت هذه المعرفة قد أنتجت في سياق استعماري وبدعم من مؤسسات الاستعمار. و بالطبع لم يفت بول باسكون أن ينبه إلى أن الدراسات الإثنوغرافية التي انطلقت في المغرب في بداية القرن، كانت تؤسس للغزو العسكري وتمهد له، فقد كشف النقاب عن تقرير سري كتبه إدموند دوتي سنة 1901، يقدم فيه "نصائح" للإدارة الاستعمارية عن أنجع السبل لتحقيق اختراق عسكري بأقل الخسائر الممكنة. وعليه فلن نجتهد، في هذا المستوى، في البحث عن براءة أو براءة العلم الاستعماري، اقتناعا منا بأن هذه الإشكالية أشبعت درسا من قبل مختلف الباحثين، وصارت "موضة منهجية" لا تقود إلى شيء مهم، فسؤال البراءة أو اللا براءة لا يلغي بالمرة أهمية هذا المتن وضرورته لإنجاز أي تفكير سوسيولوجي حول المغرب.

[4] ما نقصده بالقوة التداولية هو القدرة على النشر، وهو ما يبدو نصا غائبا في السوسيولوجيا الوطنية، حيث الكثير من الأعمال تظل سجينة الرفوف، وحيث يعز إلى حد الآن وجود مجلة متخصصة في علم الاجتماع، تستجمع بين دفتيها اجتهادات المنتمين إلى هذا العلم مغربيا، فخلافا لذلك كله، فإن المعرفة الكولونيالية كانت تتوفر على العديد من آليات التداول المهمة، فلم يكن النشر عائقا بالمرة، يكفي أن نذكر هنا العديد من المنشورات المتخصصة التي كانت تصدر بانتظام، وبرعاية تامة من الميتروبول الاستعماري، فقد صدرت في هذه الفترة: الأرشيفات المغربية، الأرشيفات البربرية، مجلة العالم الإسلامي، مدن وقبائل المغرب، هسبريس...و للاطلاع على جانب مهم من هذه المتون يرجى الرجوع إلى:

M'hamed Jadda, Bibliographie analytique des publications de l'institut des hautes etudes Marocaines, Editions FLSH Rabat, serie These et meroires.N.26.1994.

المجالية أيضا. لقد اهتمت المعرفة الكولونيالية بالقبيلة والمخزن والزاوية كمؤسسات مركزية في تدبير النسق المغربي، إلا أن هذا الاهتمام المركزي لم يعفها من الانتباه إلى المجتمع في سائر أحواله وتفاعلاته وبنياته، وبذلك سوف نجدها تشتغل على فئات الفلاحين والنساء والشباب والهجرة والمؤسسات الدينية والسحريات...

فلا بد من الرجوع إلى هذا المتن لاكتشاف "رؤية" الآخر لتفاصيل "النحن"، للاستفادة والبناء والتجاوز. و لعل أول حضور "علمي" للرحامنة في السجل الكولونيالي، يمتد إلى العمل المرجعي الموسوم بـ "مراكش" لإدموند دوتي[5]، ذلك أن كتابي "المغرب المجهول" لموليراس[6] و"استكشاف المغرب" لشارل دو فوكو[7]، لم يرد فيهما ذكر القبيلة بنوع من التفصيل أو الاختزال، تماما كما هو الأمر بالنسبة للبيبليوغرافية النقدية التي أنجزها أندريه أدم[8]، و التي لم نصادف أي دراسة انشغلت بالرحامنة، اللّهُمَّ إلا ذلك الحضور الدال و"الغرائبي" في كتاب دوتي.

ففي عمل دوتي الصادر سنة 1905، لاحت قبيلة الرحامنة كموضوع أساس امتد على صفحات عدة من هذا العمل، خصصت لتسجيل معطيات الرحلة إلى مراكش مرورا بالمجال الرحماني. وإن كانت قراءة دوتي للمجال الرحماني تنطوي على كثير من "ثقل الغرائبي" و"العلمي واللا علمي" و "المنطق الاستعماري" أحيانا، فإن ذلك كله لا يلغي الحاجة إليها كمتن إثنوغرافي مفصلي.

أولا: البدء والامتداد:

فمن هم الرحامنة؟ ومن أين أتوا؟ وما مسارات حياتهم القبلية؟ وهل من مبرر أصلا للتساؤل عن البدء الجينيالوجي للقبيلة؟ وماذا عن "فرضية" الجد المشترك؟

تشير أخبار النسابين في كثير من المصادر إلى أن تسمية الرحامنة تفيد "أولاد عبد الرحمان"[9] أو "أولاد رحمون" بن رزق بن اودي بن حسان[10]، وهي تسمية كانت تدل عليهم قبل وفودهم إلى المغرب

---

[5] Edmode Doutte, Marrakech, Pub du comité du Maroc, paris.1905.

[6] أوجيست موليراس، المغرب المجهول، الجزء الأول: اكتشاف الريف، ترجمة: عز الدين الخطابي، منشورات تيفراز.2007.

[7] شارل دو فوكو، التعرف على المغرب(1883-1884)، ترجمة: المختار بلعربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999.

[8] André Adam, Bibliographie critique de sociologie, d'ethnologie et de géographies humaines au Maroc, CNRS/SNED.1972.

[9] Paul Pascon, le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit.p.186.

[10] الهادي المبروك الدالي، قبائل البرابيش، سلسلة من تاريخ القبائل الإفريقية، رقم 1 ، مكتبة طرابلس العلمية والعالمية، طرابلس، الطبعة الأولى، 2004.ص. 13.

من اليمن، مرورا عبر الصحراء، التي ما زالت آثارهم دالة على مرورهم منها واستقرارهم بها أيضا، فإسم الرحامنة ليس حكرا على المغرب فقط، ذلك أن هناك قبائل أخرى تحمل نفس التسمية بكل من الجنوب المصري والجنوب الليبي والشرق الموريتاني[11].

وبالرغم من دلالة التسمية على الانحدار المباشر من جد مشترك، فإن تركيبية وتاريخية القبيلة لا تعضد كثيرا "فرضية الجد الم لمترك"، فهذه الفرضية تظل الأقل حضورا في تفسير وتحديد أصول القبيلة، وذلك بالنظر إلى الامتزاجات والحركيات التي عرفتها الرحامنة في الزمان والمكان.

وهذا ما يؤكد عليه ابن خلدون في تعريفه للقبيلة، فهو يرى بأنها" لا تتحدد بكونها جماعة متحدرة أو متفرعة عن جد أول، ولا تتحدد فقط بما قد يجمع بين أعضائها من روابط الدم"[12]، وإنما تتحدد أيضا بعناصر أخرى من قبيل التحالف والولاء والانتماء.. والتي تحدد الإطار الحقيقي للقبيلة"[13]، كما أنها تتحدد بمعطيات تاريخية ومجالية تبرر تفاعلاتها وتلاقحاتها. فالقبيلة، أية قبيلة، لم تكن بنية جامدة منغلقة، إنها في حركية تفاعل مستمر مع باقي القبائل الأخرى، خصوصا عندما تؤسس امتدادها على جدل الاستقرار والترحال، وتسم علاقاتها بالسلطة أو القبائل علاقات من التوتر والاختلال.

إن القبيلة عند روبير مونطاني "لا تتحدد بانتمائها لجد مشترك، بقدر ما تتحدد بوحدة الإسم والتراب والعيش وفق نفس التقاليد والأعراف، أو بما قد يجمع بين فرقاتها من عداء للقبيلة المجاورة"[14]، فالأمر يتعلق بكيان بشري توحده مجموعة من المشتركات التي لا تتوقف بالضرورة عند مسألة النسب.

إن قبيلة الرحامنة وفقا لهذا الفهم والتوصيف "تشكل مزيجا من العناصر يصعب فهم وتفسير مكوناتها ببعض أجزائها، وتبرهن على أن تكوينها نتج عن حركية اجتماعية بسبب التطورات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية كالهجرات والحروب والترحال"[15]، الشيء الذي يجعل من فرضية الجد المشترك، على الأقل

---

[11] مجموعة من الباحثين، قبائل الصحراء الكبرى، منشورات الرابطة العربية الشعبية لقبائل الصحراء الكبرى، بنغازي، الطبعة الأولى، 2010.

[12] المختار الهراس، القبيلة والسلطة: تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي، الرباط الطبعة الأولى، 1988.ص.13.

[13] يقول بن خلدون في هذا الصدد" اعلم أنه من البين أن بعضا من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة إليهم أو حلف أو ولاء"

أنظر: بن خلدون، المقدمة، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ،دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1993.مرجع سابق.ص.103.

[14] Robert Montagne, Les berbères et le Makhzen dans le sud Marocain: Essai sur la transformation politique des berbères sédentaires (groupe chleuh) .Edition Felix Alcan. Paris.1930.p.159.

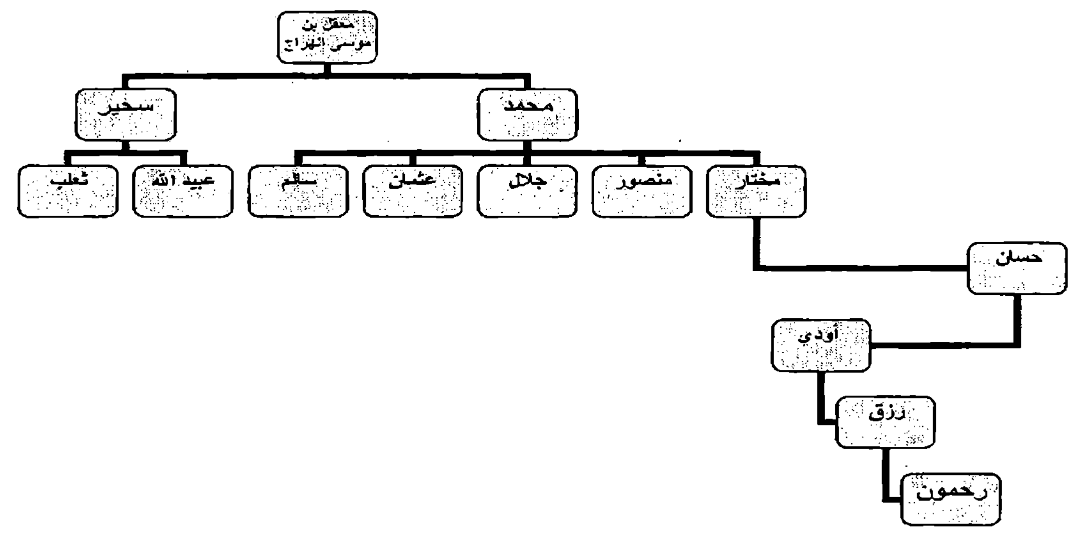
[15] عمر الإبوركي، الظاهرة القائدية: القائد العيادي الرحماني نموذجا، دار بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، الطبعة الأولى، 2000.ص.111.

في مستوى متقدم من تاريخ القبيلة، مجرد آصرة نسبية، فروبير مونطاني يؤكد بأن "وحدة التراب وضرورة الدفاع عنه أو توسعه هما اللذان يمكنان من تمتين أواصر الروابط الاجتماعية"[16].

تستمد القبيلة كيانها وهويتها من وحدة المجال الذي تسكنه وتدافع عنه، كما تؤسس حضورها وامتدادها على "اعتقاد" الانتساب لجد مشترك، ولو كان "وهميا"، فهي بذلك تؤشر على وحدة كبرى تحمل إسما مشتركا وتملك أرضا محددة لها تقاليدها وعاداتها وأعرافها، "لذلك فإن القبيلة تكبر وتتشعب وتتحول إلى كونفدرالية قبلية واسعة، كما تتعرض للتفكك والتشرذم بفعل الدينامية الداخلية أو بفعل ضغوط خارجية قد تتعرض لها من طرف الجيران أو من طرف المخزن"[17].

فالنسب حسب ابن خلدون هو "أمر وهمي لا حقيقة له ونفعه إنما هو في الوصلة والالتحام"[18]. ولهذا نحاول تتبع مساراته في هذا المستوى لاكتشاف البدء لا الامتداد، مؤكدين على أنه لا يمكن القول بالمرة بأن كل الرحامنة هم من أحفاد رحمون بن رزق بن اودي بن حسان.

ذرية معقل ربيعة بن كعب



المصدر: المعلومات الواردة في الرسم مستقاة من كتب ابن خلدون والحسن الوزان

إن قبيلة الرحامنة من القبائل المعقلية العربية التي وفدت إلى المغرب من شبه الجزيرة العربية عن طريق مصر وليبيا ثم إلى الصحراء الموريتانية والمغربية، والتي استقرت بها لزمن طويل، قبل أن ترتحل إلى موطنها الحالي

---

[16] Robert Montagne, Les berbères et le Makhzen, op.cit.p.152.

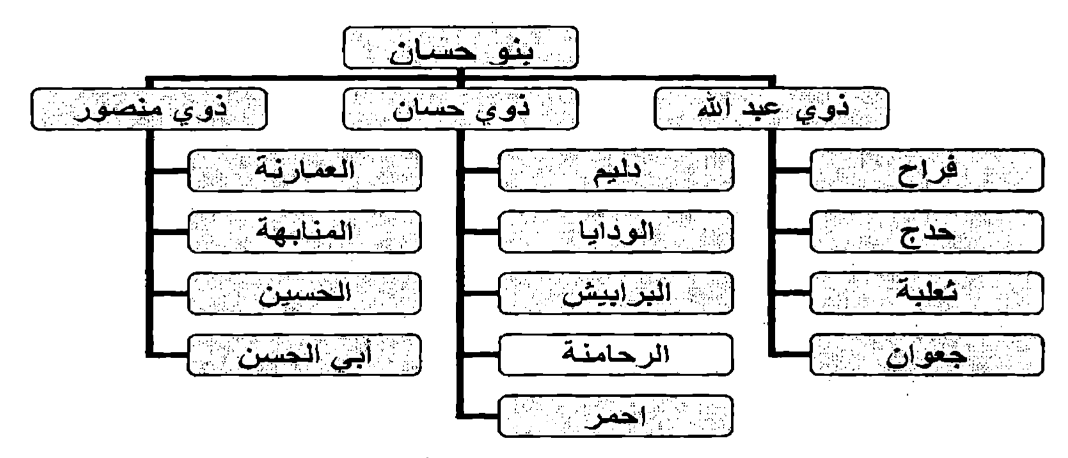
[17] محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والدين1792-1822، ترجمة: أحمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،2006.ص.24.

[18] بن خلدون، المقدمة، مرجع سابق.ص.108.

بحوز مراكش، وبالطبع فهذا الانتقال من موطن لآخر، مع ما رافقه من هجرات وحروب وتضامنات وتنافسات، سيجعل من القبيلة مزيجا من الأصول والانتماءات القبلية، وهي واقعة لا تعضد فرضية الجد المشترك، وإنما تدعو إلى اعتماد تحديدات مفاهيمية أخرى للقبيلة في علاقتها بالمجال والإنسان.

تعد القبائل المعقلية إلى جانب بني هلال وبني سليم من أشهر القبائل العربية[19] التي وفدت إلى المغرب في القرنين الخامس والسابع للهجرة (الحادي عشر والثالث عشر للميلاد)[20]، وتفيد كثير من المعطيات أن قبيلة بني معقل تنحدر من عرب اليمن، وأن جدهم هو ربيعة بن كعب بن الحارث[21].

رسم بياني رقم 3: بطون بني حسان



المصدر: المعلومات الواردة في الرسم مستقاة من كتب ابن خلدون والحسن الوزان

---

[19] خلال القرن الحادي عشر الميلادي بدأت تصل إلى المغرب قبائل بني هلال وبني سليم والذين جعل يعقوب المنصور الموحدي من بعضهم "جيشا" وأسكنهم في الغرب والشاوية ودكالة التي كانت قد أفرغت من سكانها الأصليين نتيجة الحروب البورغواطية، أما قبائل بني معقل فقد بدأت تصل إلى المغرب بدءا من القرن الثالث عشر وإلى حدود القرن الخامس عشر الميلادي.

أنظر: عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، الجزء الأول، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى، 1968.ص.415.

[20] عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2009.ص.257.

[21] من بني الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج بن أدد بن زيد بن كهلان من قحطان من اليمن. ويؤكد ابن خلدون أنهم من آل البيت من "بني جعفر الطيار وجدهم معقل بن موسى الهراج بن محمّد بن جعفر الأمير بن إبراهيم الأعرابي بن محمد الجواد بن علي الزينبي بن عبد الله بن جعفر الطيار بن أبي طالب. ويتوزع بنو معقل على ثلاثة بطون رئيسية وهي: ذوي عبيد الله (عبد الله بن صغير بن معقل) وذوي منصور (منصور بن محمد بن معقل وذوي حسان(فضلا عن بني حسان) حسان بن مختار بن محمد بن معقل)".

أنظر: عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد الأول، مرجع سابق.ص.167.

يشير الحسن الوزان إلى أن لمعقل فروع ثلاثة وهي "مختار وعثمان وحسان، وتشتمل مختار على روحة وسليم، وعثمان على حاسن وكنانة، وحسان على ذوي حسان وذوي عبد الله وذوي منـصور"[22]، ويضيف قائلا بأن ذوي حسان الذين يتحدر منهم الرحامنة، ويتوزعون على دليم والودايا والبرابـيش واحمر والرحامنة، فيما يتوزع ذوو عبد الله على خراج وحدج وثعلبة وجعوان، فيما يتحدر مـن ذوي منصور كل من العمارنة والمنابهة وأولاد حسين وأولاد أبي الحسن[23].

ثانيا: التركيب والامتزاج:

إن قبيلة الرحامنة وبسبب واقعة الترحال والاستقرار، الذي لم يحـدث وبـشكل نهـائي، بحـوز مراكش، إلا في بداية القرن السادس عشر، سوف تغدو مكونة من عدد من العشائر ذات الانتماءات والأصول المتعددة، التي يتجاور فيها المكون العربي والأمازيغي والإفريقي، وعليه تشير المصادر إلى أن الرحامنة كانوا في بداية القرن التاسع عشر "موزعين إلى خمسة أخماس[24]، كان البرابيش يشكلون خمسا وأولاد سلامة خمسين ثم أولاد بوبكر خمسين"[25]. لكن وبالنظر إلى ما عرفته القبيلة من أحـداث، وما عرفته علاقاتها الداخلية والخارجية من مد وجزر في اتجاه المخزن والقبائل المجـاورة، فـإن هـذا التقسيم، لم يكن ولم يعد معبرا عن مختلف التشكيلات التي تتكون منها، "فالقبيلة لـم تكـن في وقت من الأوقات بنية جامدة أو مغلقة، بل كانت تستقبل باستمرار كل قادم جديـد قَبـل أن يـربط مصيره بمصيرها"[26].

ومن أهم العشائر التي تتشكل منها قبيلة الرحامنة نجد كلا من: أولاد سلامة، أولاد بوبكر، سلام، البرابيش، اللواتة والحشاشدة، وهي تتوزع بدورها على: الحشاشدة، الحشاشدة البورية، اللواتة البورية، اللواتة الحوزية، سلام العرب، سلام الغرابة، يكوت الغرابة، عزيب المرابطين، العطاية،

---

[22] الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، الجزء الأول، ترجمة: محمـد حـجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1983.ص.49.

[23] الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، الجزء الأول، ترجمة: محمـد حـجي ومحمد الأخضر، مرجع سابق.ص.49.

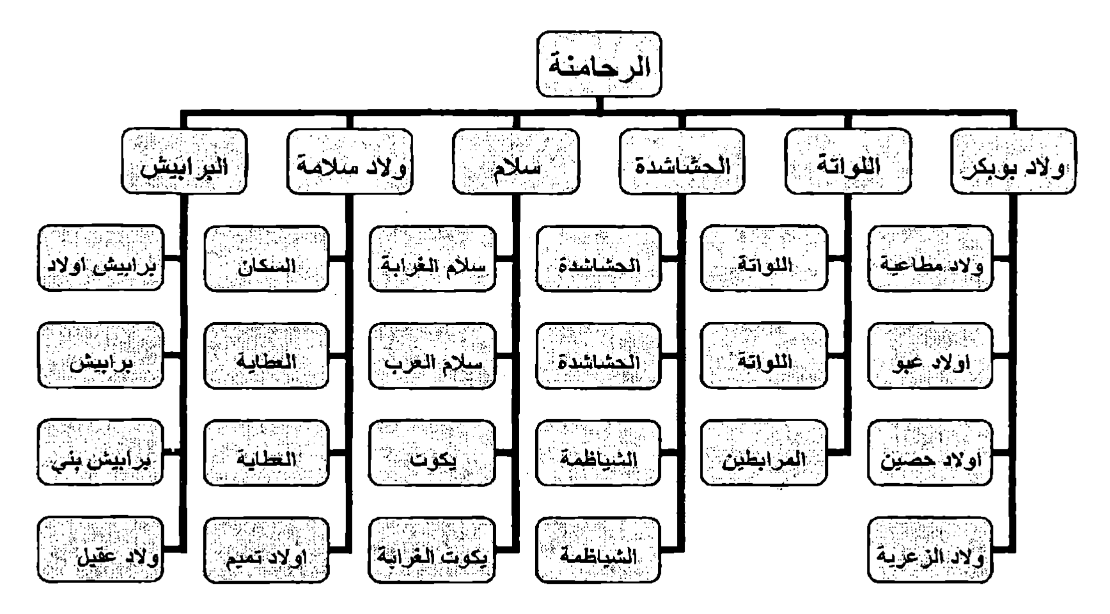
[24] علما أن هذا التقسيم ليس إلا تقسيما ضريبيا فرضه المخزن من أجل تيسير جمـع الـضرائب، حيـث يـتم تقسيم القبائل إلى أثلاث وأرباع وأخماس من أجل ضبط عملية جمع الضرائب وباقي الكلف المخزنية التي تقع على القبائل، لكن وبالرغم من صبغته الجبائية، فإنه يعبر عن واقع التقسيم العشائري للقبيلة.

[25] عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن: 1850-1900، بابل للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 1997..ص.108.

[26] محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والدين1792-1822، مرجع سابق.ص.23.

العطاية الحوزية، برابيش[27] بني حسن، برابيش الجعافرة[28]، برابيش أولاد عبد الله، الشياظمة، الشياظمة الحوزية، أولاد عقيل، أولاد الزعرية، زاوية بن ساسي، أولاد عبو، أولاد حصين، أولاد مطاعية، أولاد تميم، السكان.

رسم بياني رقم 4: عشائر قبيلة الرحامنة



المصدر: المعلومات الواردة في الرسم البياني مستقاة من كتب بول باسكون والصديقي والإبوركي

فالملاحظ أن القبيلة وفقا لهذا التوزيع تبدو متعددة الانتماءات والانحدارات، بسبب ما عرفته من ترحال واستقرار، أفضيا إلى جعلها قبيلة مزيجة مكونة من عشائر مختلفة الجذور التاريخية، ففضلا عن المكون العربي المميز لقبيلة الرحامنة يوجد المكون الأمازيغي والمغاربي[29] والإفريقي، وكذا الانتماءات القبلية المجاورة لمجال الرحامنة،

---

[27] "البرابيش قبيلة عربية تسيطر على شمال غرب مالي وتتكون من كونفدرالية كبيرة تنضوي تحت لوائها مجموعة كبيرة من البطون ويعدد بول مارتي قبائل البرابيش بسبعة وخمسين قبيلة كلها تسمى البرابيش"
أنظر: محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية: بحوث ميدانية وتاريخية، المجلد الأول(الجزء الثاني)، دار الفكر العربي، مدينة نصر، الطبعة الثانية، 1998.ص.94و96.

[28] تشير المصادر إلى الجعافرة قبيلة عربية تنتسب إلى جعفر بن أبي طالب الملقب بجعفر الطيار، وتوجد فروع لها بموريتانيا وشمال النيجر وبمنطقة الجبل الغربي بليبيا. أنظر:
محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية: بحوث ميدانية وتاريخية، المجلد الأول(الجزء الثاني)، نفس المرجع السابق.ص.119.

[29] يقول جاك بيرك بأن "اللواتة مثلا الذين كانوا بليبيا خلال العصر الوسيط، لا زالت مجموعتان منهم تحملان هذا الإسم بجوار بن جرير بالمغرب، ومن أهم قبائل اللواتة هناك سدراتة ومزيتة ووجدانة ومغاغة وعزوزة"
أنظر: Jacques Berque, Maghreb:Histoire et société, SNED,Alger.1974. p.23.

"فالقبيلة ليست نسقا مغلقا، بل مجالا مفتوحا من خلال التوسع والانتقال والاندماج والتجميع"[30]. من هنا يلوح الفرق بين المكونات القبلية للرحامنة في مستوى العشائر حيث لا تحضر فرضية الجد المشترك، فثمة امتزاجات وتلاقحات حدثت بموازاة حركية القبيلة في الأرض والزمان.

خريطة رقم 2: خريطة عشائر قبيلة الرحامنة



المصدر: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مصلحة الخرائط، 1968

تتوزع التشكيلات البشرية بالمجال الرحماني على ثلاثة عناصر كبرى وهي: "العرب" و"اعريب" و"الغرابة"، فالأولى يشار بها إلى العشائر المتحدرة أصلا من الصحراء والتي ما زالت لها امتدادات لحد الآن في النسق القبلي الصحراوي كالرقيبات وأولاد دليم والعروسيين ويكوت، وهي

[30] عمر الإبوركي، الظاهرة القائدية: القائد العيادي الرحماني نموذجا، مرجع سابق.ص.111.

القبائل التي أشار إدموند دوتي[31] في كتابه "مراكش"[32] إلى أن نساءها ما زلن يلبسن ملابس زرقاء تسمى "الخنث"[33]، وهي عشائر حديثة الالتحاق بالمجال الرحماني، علما بأن المراسلات المخزنية كانت تخاطبهم في كثير من الأحايين بـ"أعراب الرحامنة"[34]. في حين تدل التشكيلة الثانية المعروفة بـ "اعريب" على المجموعات المعقلية المتحدرة أساسا من الجنوب الشرقي من ضفاف وادي درعة[35].

أما المكون الأخير الموسوم بـ"الغرابة" فيحيل توصيفه على معنيين تبعا لما يذكره الإخباريون والنسابون، فهو من جهة يدل على "العشائر التي تغربت إلى شمال مراكش"[36]، وهي أقدم العشائر التي تركت مجال الصحراء والتحقت بحوز مراكش، فيما يشير المعنى الثاني إلى العشائر الغريبة عن الأصل الرحماني والتي اندمجت في إطار القبيلة بسبب عوامل التحالف والجوار، وفي هذا الإطار يمكن الحديث عن نزوح الشياظمة وبني حسن وزعير، فضلا عن القبائل المجاورة كاحمر وعبدة ودكالة والسراغنة وزمران.

---

[31] Edmode Doutte, Marrakech, op.cit.p.284.

[32] تجدر الإشارة إلى أنه خلال المراحل الأخيرة من إنجاز هذا العمل صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب: إدموند دوتي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة (سنتي 1901-1902)، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، مطبعة أنفو، فاس، الطبعة الأولى، 2011.

[33] يقول إدموند دوتي بأن "نساء الرحامنة يلبسن المنصورية والخنث وخصوصا المتحدرات منهن من الركيبات وسيدي ناجي وأولاد مولاي عمر وسلام (ولاد سلامة) وعريب(ولاد بوبكر)"، والخنث هو اللباس الذي ترتديه المرأة الصحراوية في الأقاليم الجنوبية، والملاحظ أن مناطق يكوت والبرابيش بالرحامنة ما زال بعض نسائها يحافظن على عادة ارتداء الخنث ولو بشكل موسمي ومناسباتي.

[34] أنظر الرسالة العزيزية التالية التي تخاطبهم بأعراب الرحامنة:"خدامنا الأعيان من **أعراب الرحامنة**، وعرفاؤهم وأهل الرأي والصلاح منهم، وأعيان شوارهم وقصورهم جميعا، سلام الله عليكم، ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد، فقد وصلنا خديمنا الأرضى القائد عبد الحميد بن الفاطمي الرحماني واشتكى أن الفتان مبارك بن الطاهر بن سليمان الرحماني، قاتله الله، ينشر الفتنة بين العباد. وحيث كنتم من جملة الخدام النصحاء الصلحاء الذين يعتد بهم في المهمات، فنأمركم أن تجمعوا شملكم وكلمتكم كافة، وتواجهوا الفتان الملعون، بقصد رتق ما وقع من الخرق هناك، وبارك الله فيكم وأرشدكم وأصلحكم والسلام. في 16 صفر الخير 1314 وفوقه الطابع العزيزي الكبير" .من وثائق المدرسة العيادية بابن جرير (مجموعة مراسلات).

[35] يقول جورج سبيلمان بأن اعريب هم من عرب بني احسن المعقليين، وهم رحل بالأساس يملكون قطعانا كثيرة من الإبل وجمالون مشهورون، كانوا يجوبون قديما الصحراء الغربية من تمبوكتو إلى درعة"

أنظر: جورج سبيلمان، آيت عطا الصحراء وتهدئة آفلا-ن-درا، ترجمة وتعليق: محمد بوكبوط، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغة، الرباط، الطبعة الأولى، 2007.ص.81.

[36] عمر الإبوركي، القائد وتغير البنيات الاجتماعية في العالم القروي: القائد العيادي ومجال الرحامنة نموذجا، أطروحة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية: 2007/2006، غير منشورة،ص.150.

وبالطبع فهذا التركيب العشائري الذي يبصم قبيلة الرحامنة يجد تفسيره في علاقة الإنسان بالمجال، فالاستقرار بحوز مراكش هو فعل حديث نسبيا، وهو ما يجعل من الانفتاح بدل الانغلاق آلية متجددة في تاريخ القبيلة، لكن كيف حدث هذا الاستقرار؟ وكيف وصل الرحامنة إلى الحوز وصاروا "**قلبه وقبته**" حسب ما وصفهم به المولى سليمان[37] في إحدى مراسلاته؟

---

[37] فقد خاطبهم المولى سليمان في رسالة بتاريخ شوال 1235 بقوله:"... لما ولاني الله نوهت بكم، وعملتكم بسوس ودرعة، ووليتكم مراكش، وخيرتكم على جميع القبائل، وجعلت الزوين على جميع أهل الحوز، وجعلته وزيرا ومشيرا...أنتم **قبة الحوز وقلبه**... فما عندي أعز منكم.."

أنظر: عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن: 1850-1900، مرجع سابق. ص.108..

الفصل الثاني:

من الصحراء إلي الحوز
الرحلة الكبرى

نقرأ في الرحلة الكبرى للرحامنة من شبه الجزيرة العربية إلى المغرب العديد من اللحظات التاريخية التي حسمت الحال والمآل، فالقبيلة عرفت ثلاث محطات أساسية في تاريخ ترحالها واستقرارها، الأولى بالصحراء حيث مارست حياة الانتجاع والتجارة، واستدمجت في بنياتها وثقافتها حياة الصحراء، وهو ما يظهر في امتدادات الثقافة الحسانية على مستوى اللغة واللباس والمسكن، أما المحطة الثانية فقد كانت بسوس حيث تعاطى الرحامنة للتجارة وشاركوا في الجهاد ضد الغزو الإيبيري، ودونما تفريط في نشاطهم الرعوي الأصلي، في حين كانت المحطة الثالثة مع الانتقال إلى حوز مراكش، حيث بدأت معالم الاستقرار تظهر، من خلال استبدال خيمة الرحل بأشكال جديدة كالنوالة والزريبة والدوار.

أولا: الرحلة الكبرى:

لما تركت قبيلة الرحامنة شبه الجزيرة العربية في القرن الخامس للهجرة(الحادي عشر للميلاد) استمرت في التقدم نحو الغرب مرورا بمصر والسودان وليبيا، إلى أن بلغت أقصى الجنوب المغربي، لتتوزع بعدئذ في اتجاه شرق موريتانيا الذي ما زال إلى اليوم يؤم بطونا من البرابيش والرحامنة بنفس التسمية، إلا أن دخول قبائل المعقل بصفة عامة إلى تراب المغرب الأقصى لم يتم إلا في بداية القرن السابع للهجرة(الثالث عشر للميلاد)، وهو ما يعني أن هذه القبائل أمضت وقتا طويلا في رحلتها الكبرى التي خلفت "آثار مرور" واستقرار بعدد من مناطق العبور.

خلال مقامهم بالصحراء[38] كان الرحامنة يشكلون أقوى وأكبر المجموعات المعقلية، حيث "كانوا يحاربون بأكثر من عشرة آلاف مقاتل من بينهم سبعمائة فارس"[39]، ففالنتين فرنانديس يؤكد بأنهم كانوا بالإضافة إلى "البرابيش والودايا وأولاد احمر يحتلون موريتانيا وسهب الذهب..فقد كانت هذه القبائل الأربعة تشكل الجماعات الأقوى"[40]، كما أنهم كانوا يتعاطون الزراعة والرعي والتجارة، فالرحل عموما كانوا يمارسون التجارة عبر ثلاثة أساليب: كناقلين، كمكترين لجمالهم، وكحماة للمسافرين والبضائع، ثم كممارسين للمقايضة مقابل البضائع الواردة من خارج المجتمع"[41]، فضرورات البقاء تستوجب الدخول في مثل هذه الممارسات والعلاقات من أجل تأمين وتحصين الاستمرارية في ظل نسق من التنافسات والمصالح المتناقضة.

لم تختر قبائل الرحل مجالها ولم تحدده بالمرة، إنه مجال ينكتب باستمرار، ويتوجب في كل حين العمل على تحصينه وتطويره، بل وتغييره أملا في بلوغ الأفضل، لهذا كانت الرحامنة، كما باقي قبائل الرحل تنشغل بالوصول إلى هذا "الأفضل" المفترض، والذي لا يمكن تمثله إلا في حدود "ضمانات الاستقرار" التي تعني الماء والكلأ، وهو ما يتوفر في الشمال.

إن الارتحال نحو الشمال، حيث الماء والكلأ، كان دوما هدفا أثيرا بالنسبة لقبائل الجنوب، لكنه هدف يتعرض للحصر باستمرار، بسبب قوة آل الشمال ومجهولية مجالهم أيضا، فلا يصير بمقدور هذه القبائل إلا انتظار الشرط التاريخي والسياسي الذي يسمح بتحقيق الارتحال، وفي هذا الصدد يقول محمد القبلي بأن "التحركات البشرية الكبرى، بل وحتى تجارب الدولة المغربية المتعاقبة تربط كلها بحافز التوسع في اتجاه السهول الأطلسية باعتبار خصبها وتوسطها بين الجبل والبحر"[42]. وعموما "فالشمال أو التل بالنسبة لأهل الجنوب يخضع للترتيب التالي من حيث الأهمية: الغرب، الحوز ثم السوس"[43]، وبالطبع فـ"أعز ما **يطلب**" هو الوصول إلى الغرب، لكن الرحامنة بلغوا المنتصف فقط واستقروا بالحوز.

---

[38] وفي هذا الصدد يقول عبد الوهاب بنمصور بأنه" لما طلع الزناتيون إلى التل وأسسوا مملكتهم بفاس وتلمسان وبإمارات أخرى صغيرة بالمغرب الأوسط تفرد عرب المعقل بالصحراء ونموا نموا كبيرا بما انضاف إليهم من القبائل من غير نسبهم مثل العمور وأشجع والشطة والمهايا والشعراء والصباح وبني سليم، وصارت يدهم الطولى بجميع الأقطار الصحراوية الواقعة بين المحيط الأطلسي وتيديلكت".

أنظر: عبد الوهاب بنمنصور، قبائل المغرب، الجزء الأول، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى، 1968.ص.415،

[39] Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit.p.187.

[40] Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit.p.187.

[41] محمد دحمان، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مطبعة كوثر برانت، الرباط، الطبعة الأولى، 2006.ص.35.

[42] محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط: علائق وتفاعلات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987.ص.44.

[43] Paul Pascon, le Haouz de Marrakech, Tome 1.op.cit.p.189.

لقد تزامن وفود القبائل المعقلية إلى المغرب مع وصول بني مرين إلى الحكم بالمغرب، لكن الكثير منهم لم يتمكن من التوغل إلى السهول الغربية، وإنما تم حصره بفعل حواجز بشرية مكونة من قبائل مرينية وزناتية وصنهاجية وهلالية، "فبعد أن نجح بنو مرين في إقصاء قبائل المعقل، انتشرت هذه القبائل بالمغرب الشرقي وعلى امتداد الحزام الصحراوي، حتى الساحل الأطلسي"[44].

لهذا لم يتأت للرحامنة في ظل هذا الشرط التاريخي والسياسي الالتحاق بهذه السهول، مواصلين بذلك حياة الترحال والانتجاع بالصحراء. فإلى حدود القرن الخامس عشر الميلادي كان الرحامنة يسيطرون على جزء مهم من هذا المجال، وفي هذا الصدد يقول الحسن الوزان بأنهم كانوا "يسيطرون على الصحراء المجاورة لأقا وكذلك على تشيت[45] التي اعتادوا الذهاب إليها كل شتاء"[46].

كما أنهم كانوا من بين المجموعات المعقلية التي عملت على تقوية حضورها بسواحل الصحراء، وهو ما يؤكده عبد الأحد السبتي بالقول:"ففي الساحل، زاوجت بعض القبائل بين الرعي والزراعة، ومن بينها الرحامنة واحمر، وفي الداخل، تعاطت قبائل أخرى لحياة الترحال، ومن بينها البرابيش وأولاد دليم"[47]. وبحكم استقبال هذا المجال لحركة القوافل التجارية، فإن الرحامنة سيدخلون على خط المبادلات ممارسين لنشاط اقتصادي جديد سيزيد من حجم إشعاعهم.

---

[44] عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، مرجع سابق،ص.263.

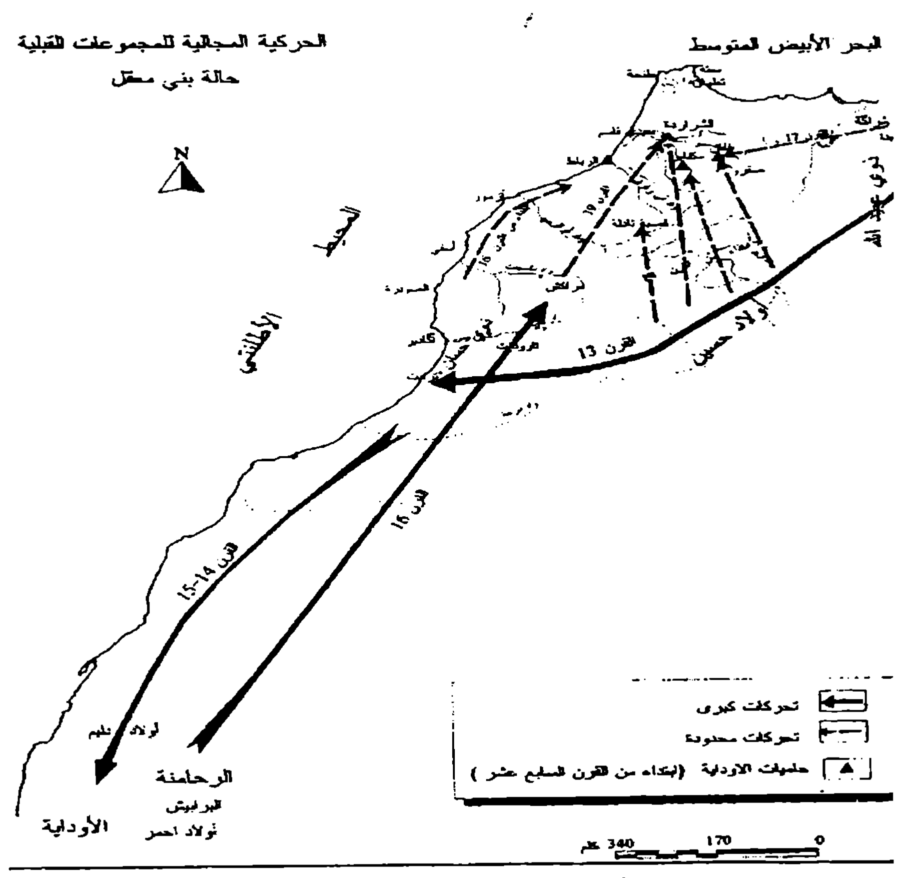
[45] " تشيت مدينة صغيرة بناها النوميديون في تخوم صحراء ليبيا".

أنظر:الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا،الجزء الثاني، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية1983.ص.115.

[46] الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، الجزء الأول، نفس المرجع السابق.ص.54.

[47] عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، مرجع سابق،ص.264.

خريطة رقم 3: الحركية المجالية للمجموعات القبلية: حالة بني معقل



المرجع: عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق، مرجع سابق، ص.265.

ثانيا: من سوس إلى الحوز:

بحلول القرن السادس عشر الميلادي ستتحرك الرحامنة باتجاه الشمال في هجرات كبرى كانت لها علاقة مباشرة بالأوبئة والمجاعات التي شهدها المغرب آنئذ وتضررت منها منطقة الصحراء أكثر، فمحمد الأمين البزاز يقول بأن "قبيلة الرحامنة التي كانت تعيش في الصحراء في بداية القرن السادس عشر، دخلت إلى سوس بعد مجاعة 1521-1522، ثم واصلت زحفها قبل أن ينتهي بها المطاف في منطقة مراكش"[48]. لقد كان الرحامنة إلى جانب بعض القبائل المعقلية الأخرى يستحوذون على جزء مهم من أراضي منطقة سوس[49]

[48] محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم18، الرباط، الطبعة الأولى، 1992. ص.126.

[49] Robert Montagne, Les berbères et le Makhzen, op.cit.p.32.

التي مارسوا فيها الترحال والتجارة. ولذلك كانت الرحامنة وباقي القبائل المعقلية التي استوطنت هذه الأراضي "تشكل ما عرف بأهل السوس"[50].

سيتزامن استقرار الرحامنة بسوس مع الغزو الإيبيري للسواحل المغربية (سنة 1448 م) ومواجهة السعديين "الذين تزعموا حركة الجهاد ضده متطلعين إلى الحكم"[51]، فقد ساهم الرحامنة سنة 1525 م في صد الغزو المسيحي للسواحل الجنوبية الغربية إلى جانب السعديين الذين ما أن استتب حكمهم حتى نزحوا إلى شمال مراكش، معلنين هيمنتهم على كل المنطقة الممتدة من أسفي إلى مراكش بدءا من سنة 1565م ، حسب ما أشار إليه مارمول[52].

وبخلاف قبائل المعقل من أولاد جرار وأولاد مطاع وزرارة والشبانات التي انضمت إلى الجيش السعدي المعروف بأهل السوس، فإن الرحامنة اكتفوا بمساندة السعديين دون التحول إلى قبيلة مخزنية، علما بأن هذه المساندة كانت محكومة برهانات تأمين المصالح، فقد "أخل الوجود البرتغالي على الساحل الأطلسي بالتوازن وما لحق سكان المنطقة من أضرار تحويل النصارى للتيار التجاري التقليدي"[53]، ذلك أن مرور القوافل عبر الصحراء كان يؤمن للقبيلة إقامة مبادلات تجارية مهمة.

ففي سنة 1525 شارك الرحامنة في مهاجمة سانتا كروز(أكادير)[54] إلى جانب السعديين وباقي أهل السوس، إلا أنه بالرغم من ذلك فعلاقة الرحامنة بالسعديين لم تقتصر على الجهاد ضد الغزو الإيبيري، وإنما تطورت إلى مستوى مصاهرة السلطان محمد المهدي السعدي الذي تزوج من للا سحابة الرحمانية التي أنجبت منه عدة أمراء كان للبعض منهم شأن عظيم في تاريخ المغرب السياسي، وهم: عثمان وعبد المؤمن وعمر وعبد الملك[55]. ومع ذلك فالرحامنة لم تكن من قبائل الكيش المخزنية، سواء خلال حكم السعديين أو العلويين، بل كانت من قبائل النايبة[56]، التي عرفت علاقتها بالمخزن المركزي علاقات مد وجزر باستمرار.

---

[50] Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit.p.187.

[51] عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق، مرجع سابق،ص.266.

[52] مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب، الجزء الثالث عشر، مرجع سابق.ص.4284.

[53] عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن، مرجع سابق.ص.79.

[54] Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit. p.191.

[55] Henri Terrasse, Histoire du Maroc, Tome 2, Casablanca, 1950.p.84.

[56] ومعناها مأخوذ من ناب ينوب نيابة، فهي القبائل التي تنوب أحيانا عن قبائل الكيش، من أجل تقديم خدمات عسكرية لفائدة المخزن، فهي غير معنية بالارتباطات الكيشية مع المخزن، وإنما يتوجب عليها المساهمة من حين لآخر في مد المخزن بالرجال أو بالمال.

إنه لا يعرف بالضبط متى كان الاستقرار بحوز مراكش، "و إن كانت المصادر تذكرهم خلال القرن الثامن عشر بكثرة"[57]، فنزوح الرحامنة إلى الحوز لم يكن مرتبطا، وبشكل حصري، بمساندتهم للسعديين في مواجهة الغزو البرتغالي، وإنما هو نزوح مشروط باستغلال الشرط التاريخي والسياسي، ومحكوم بالانشغال المركزي لآل الجنوب، وهو الانتقال إلى الشمال حيث الماء والكلأ وما يضمن الاستقرار ويُيَسِره.

في مفتتح القرن السادس عشر بدأت المجموعات الأولى من قبيلة الرحامنة تلوح بأحواز مراكش، فلقد أشار مارمول إلى أنه "في ناحية أسفي مراكش، وبالضبط سنة 1519 قام الرحامنة بثورة ضد مولاي زيدان السعدي"[58]، كما أن المصادر تذكرهم بأنهم هاجموا سنة 1568 مولاي عبد المالك على الطريق الرابطة بين أسفي ومراكش[59].

تقع قبيلة الرحامنة اليوم "بالحوز ما بين نهر أم الربيع الذي يحدها شمالا ووادي تانسيفت الذي يحدها جنوبا مع سلسلة الجبيلات وبلاد مسفيوة، بينما توجد من الناحية الشرقية قبائل السراغنة وزمران، ومن الجهة الغربية دكالة واحمر وأراضي الكيش"[60]. لكن هذا المجال الجغرافي للقبيلة لم يكن ثابتا دوما، فقد كان يتعرض باستمرار للاتساع والانكماش تبعا لعلاقة القبيلة بالمخزن وكذا بما يجاورها من قبائل أخرى.

بل إن هذا المجال لم يكن قبل القرن السادس عشر مقرونا بهذه القبيلة، فبول باسكون يؤكد بأن قبائل الرحامنة وإداو بلال وولاد دليم وحربيل استقروا بالحوز في نهاية القرن السادس عشر[61]، كما أن الحسن الوزان في "وصف إفريقيا" وتحديدا في حديثه عن مملكة مراكش[62] لم يذكر الرحامنة في إطار تقسيمه لهذه المملكة إلى عدة نواح، تضم كلا من دكالة وتادلا وهسكورة وحاحا وسوس وجزولة ومراكش، كما أن بن خلدون يجعل من الحوز موطنا لقبائل دكالة باعتبارها تقع في

---

[57] إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الجزء الثالث، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية.1994.ص.253.

[58] Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1.op.cit.p.192.

[59] Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1op.cit.p.192.

[60] عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن: 1850-1900، مرجع سابق.ص.79.

[61] Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1op.cit.p.151.

[62] أنظر خريطة مملكة مراكش في كتاب وصف إفريقيا، مرجع سابق،ص. 94.

"وسط المغرب من عدوة أم الربيع إلى مراكش"[63]، وهو بتعريف الناصري يضم "بلاد تامسنا وما اتصل بها إلى مراكش، فكان لرياح بلاد الغرب وكان لجشم بلاد الحوز"[64].

وهو ما يعني أن المجال الحوزي الشمالي الذي استوطنت به القبيلة هو مجال مكتسب حديثا مقارنة مع باقي القبائل المجاورة. كما أنه مجال عرف حركيات قبلية عديدة جعلته يؤم تشكيلات قبيلة متعددة الانتماءات والانحدارات، ساهمت بدورها في إمداد الرحامنة بعناصر أخرى تبدو بعيدة جدا عنها من حيث البدء والامتداد.

جدول رقم 4: توزيع القبائل[65] حسب أهم مناطق ونواحي الحوز[66]

المنطقة	القبائل
مراكش	الكيش، أوريكة، غيغاية، سكتانة، الرحامنة
القلعة	السراغنة، زمران، تاملالت
أمزميز	كدميوة، أولاد مطاع، وزكيتة، كندافة
إيمنتانوت	متوكة، مزوضة، هنتيفة، دويران، دمسيرة، سكساوة
شيشاوة	أولاد بوسبع، شيشاوة، مجاط، فروكة، العرب
أيت ورير	مسفيوة، تكانة، غجدامة، كلاوة
دمنات	ولتانة، فطواكة

المصدر: كتاب الاستقصا

فلمن كان الحوز قبلا؟ بالرجوع إلى الناصري، نجده يقول: "اعلم أن أرض إفريقية والمغرب لم تكن للعرب بوطن في الأيام السابقة، لا في الجاهلية ولا في صدر الإسلام، وإنما كان المغرب وطنا لأمة البربر خاصة لا يشاركهم فيه غيرهم"[67]، لكن محقق الاستقصا[68] يقول بأن الناصري تبنى نظرية ابن

---

[63] عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد الحادي عشر، مرجع سابق.ص.421.

[64] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: أحمد الناصري، أشرف على النشر: محمد حجي، إبراهيم بوطالب، أحمد التوفيق،الجزء الثاني، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، الرباط، الطبعة الأولى.2001.ص.169.

[65] أنظر خريطة قبائل الحوز في الملحق.

[66] محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية: بحوث ميدانية وتاريخية، المجلد الأول(الجزء الثاني)، دار الفكر العربي، مدينة نصر، الطبعة الثانية، 1998.ص.54و 55.

[67] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص.123.

[68] أحمد الناصري

خلدون القائلة بأن المغرب كان وطنا خاصا بالبربر، و"أن العرب لم يستوطنوه إلا في أواسط المائة الخامسة(الحادية عشرة ميلادية)، وقد أسفر البحث في اتصال العرب والبربر في الجاهلية وصدر الإسلام قبل الفتح، وعن استيطان جماعات بالبادية قبل المائة الخامسة، وكانت هذه الجماعات من بقايا العرب الفاتحين ومن المهاجرين الذين نزحوا إلى المغرب اختيارا لسكناه أو فرارا من الفتن التي وقعت بالمشرق كحرب صفين ومقتل الحسين..و حروب المروانية والزبيرية وغيرها من حروب العصبيات"[69]، وهذا كله يعني أن الحوز لم يكن خاليا من السكان في وقت من الأوقات، ولا حكرا على البربر دون غيرهم، خصوصا وأنه يتموقع على الطريق الرابطة بين مدن ضاربة في عمق التاريخ كمراكش والرباط وسلا وفاس.

تشير المصادر أيضا إلى احتلال البورغواطيين لجزء من أراضي الحوز وترددهم عليه، فالحوز كان يغري أكثر بالاستقرار، ولهذا لم يكن مستبعدا أن يكتشف استقرار الإنسان القديم بهذه المنطقة، ففي مستهل الستينيات تم اكتشاف إنسان جبل إيغود قريبا من الشماعية ببلاد احمر، والذي أكدت الأبحاث الأركيولوجية أنه يعود لنحو 85 إلى 125 ألف سنة[70]. وما يؤكد الاستقرار العربي قبل النزوح الهلالي أو المعقلي، فهو رباط شاكر ببلاد احمر، والذي أسسه شاكر بن عبد الله الأزدي، الذي يعد من أتباع عقبة بن نافع الذي دخل المغرب سنة 62 63 هجرية.

ويمضي صاحب الاستقصا موضحا بأن وفود العرب الآخرين إلى المغرب سيدفع بأحمد المنصور الذهبي إلى توزيعهم على الغرب والحوز، وفي هذا الصدد يقول: "نقل المنصور، رحمه الله، بني هلال وبني جشم[71] إلى المغرب الأقصى حين أتوه طائعين، وكان ذلك سنة أربع وثمانين وخمسمائة(584 ه/1188 م)، فأنزل قبيلة رياح من بني هلال ببلاد الهبط، فيما بين قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير وبين أزغار، البسيط الأفيح هناك، إلى ساحل البحر الأخضر، فاستقروا بها وطاب لهم المقام، وأنزل قبائل جشم بلاد تامسنا البسيط الأفيح ما بين سلا ومراكش، وهو أوسط بلاد المغرب الأقصى وأبعدها عن الثنايا المفضية إلى القفار.. "[72].

[69] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثالث، مرجع سابق، هامش الصفحة. 123.

[70] يوسف راجي الإله، تحريات أثرية بمنطقة الرحامنة: الماء وتنظيم المجال، في كتاب جماعي: الرحامنة: التاريخ، الثقافة، البيئة، مرجع سابق.ص.93.

[71] جشم من بني هلال وهم خليط من القبائل يضم العاصم ومقدم وبني جابر وسفيان والخلط

[72] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثالث، مرجع سابق.ص.128.

هذا النص يطرح من جديد سؤال تنزيل عبارة الحوز إلى حدود المكان، ففي وقت سابق كان الحوز ممتدا من بلاد تامسنا إلى مراكش، لكنه اليوم يحيل على ما بين النهرين(أم الربيع وتانسيفت)، فالحوز عرف في تاريخية دينامية بشرية ومجالية في الآن ذاته، فلم تكن حدوده ثابتة ولا قبائله متحكمة كلية في شروط الامتلاك والاستئراض، فقط هي الشروط التاريخية ما يحدد حال ومآل الانتماء والاشتغال في المجال.

ثالثا: دينامية المجال:

في بداية القرن السابع عشر كان مجال الرحامنة يمتد من وادي أم الربيع[73] شمالا إلى غاية أعراف الأطلس جنوبا، ومن أسفي إلى مراكش، لكن، وبسبب اختلال منطق العلاقات مع المخزن، فإن المجال الرحماني سيتعرض للانكماش في عهد السلطان مولاي عبد الرحمان الذي "استقدم أيت يمور سنة 1845 من الغرب إلى الحوز وأنزلهم وراء وادي نفيس وقبلته"[74]، فضلا عن قيامه بنقل "رحى المغافر والودايا من فاس الجديد سنة 1852 وإنزالهم بأحواز دائرة مراكش بزاوية الشرادي وما والاها خلف ضفة وادي نفيس وقبلته"[75].

فالحوز لم يعرف استقرارا طويلا لقبيلة دون غيرها، فالسلطة المركزية كانت تعمل من حين لآخر على توطين وإجلاء القبائل، تبعا لمحددات القوة والضعف، لقد كان الحوز في تاريخه محكوما برهانات الضبط والاحتواء.

لهذا سيعرف المجال القبلي تحولات أخرى في أعقاب التمردات الكبرى التي قامت بها القبيلة خلال القرن التاسع عشر حيث ستنتزع أراضٍ جديدة من الرحامنة وبالضبط تلك الأراضي السقوية الخصبة جنوب وادي تانسيفت كتبهنيت وأغاطيم وسعادة وعين دادة والسويهلة، ليصير المجال الجغرافي واقعا بين "النهر والنهر"، أي من وادي أم الربيع إلى غاية وادي تانسيفت.

مثلما سيتم ترحيل فرق أخرى من الرحامنة وأبناء عمومتهم من المعقل إلى مناطق أخرى، تماما كما هو الأمر بالنسبة للشراردة والشبانات... "فلم تخل علاقات المعقل بالحكام من توترات تشهد عليها عمليات الترحيل المتعددة"[76]، فالشراردة مثلا تم نقلهم من حوز مراكش إلى سهل الغرب على

---

[73] نهر أم الربيع من أهم الأنهار المغربية ينبع من الأطلس المتوسط بين خنيفرة وعين اللوح ويصب في المحيط الأطلسي قريبا من أزمور، ويبلغ طوله 600 كلم، ويعبر سهول تادلة والشاوية وشمال الرحامنة ودكالة، ومن أهم روافده وادي العبيد.

[74] مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب، الجزء الثالث عشر، مرجع سابق.ص.4284.

[75] نفس المرجع.ص.4284.

[76] عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق، مرجع سابق،ص.267.

عهد المولى عبد الرحمان بسبب تمردهم[77]، كما تم نقل الشبانات و زرارة في عهد مولاي اسماعيل من الحوز إلى وجدة[78]. ويوضح الجدول التالي جانبا من عمليات الترحيل التي عرفتها منطقة الحوز أو مناطق أخرى على يد بعض السلاطين العلويين:

جدول رقم 5: عمليات ترحيل بعض القبائل من موطنها إلى مناطق أخرى

السلطان	القبيلة المعنية	الموطن	المنطقة المرحل إليها
المولى إسماعيل	الشبانات	حوز مراكش	فاس ووجدة
	زرارة	حوز مراكش	فاس ووجدة
	الودايا	حوز مراكش	فاس ووجدة ومكناس
	أهل السوس	سوس	المهدية
	أهل الريف	الريف	تارودانت والعرائش
سيدي محمد بن عبد الله	بربر جروان	الأطلس	الغرب
	أولاد بوسبع	حوز مراكش	سوس والساقية الحمراء
عبد الرحمان بن هشام	الشراردة	حوز مراكش	الغرب

المصدر: المعلومات الواردة في الجدول مستقاة من كتب الناصري والضعيف وبول باسكون

إن استراتيجية التنقيل والتوطين التي اعتمدها المخزن لتدبير علاقاته بعدد من القبائل، خصوصا في أعقاب التمردات واختلال موازين القوى، كان من الضروري أن تكون الرحامنة متأثرة بها سلبا أو إيجابا تبعا لتموقعها من الصراع الدائر بين المخزن والقبائل، أو بالنظر إلى انخراطها أو حياديتها بشأن هذا الصراع، فبالرجوع إلى ما تتيحه قراءات التاريخ الاجتماعي للقبيلة، فإنه يبدو من الصعب تحديد المجال الترابي للرحامنة بدقة متناهية، فالأمر يتعلق بمجال متغير، يضيق ويتسع، ينتقل وينقل أيضا.

ففي الخريطة السياسية لسنة 1884(أنظر الخريطة) يتضح أن مناطق مهمة من الرحامنة تبدو في غير ملكية القبيلة آنا، فهي تبعا لخريطة القرن التاسع عشر، تبدو في ملكية المنابهة وولاد دليم وإداو بلال ومسفيوة وحربيل. فالمجال لم يتحدد بصفة ناجزة إلا بعد دخول المستعمر الفرنسي، الذي

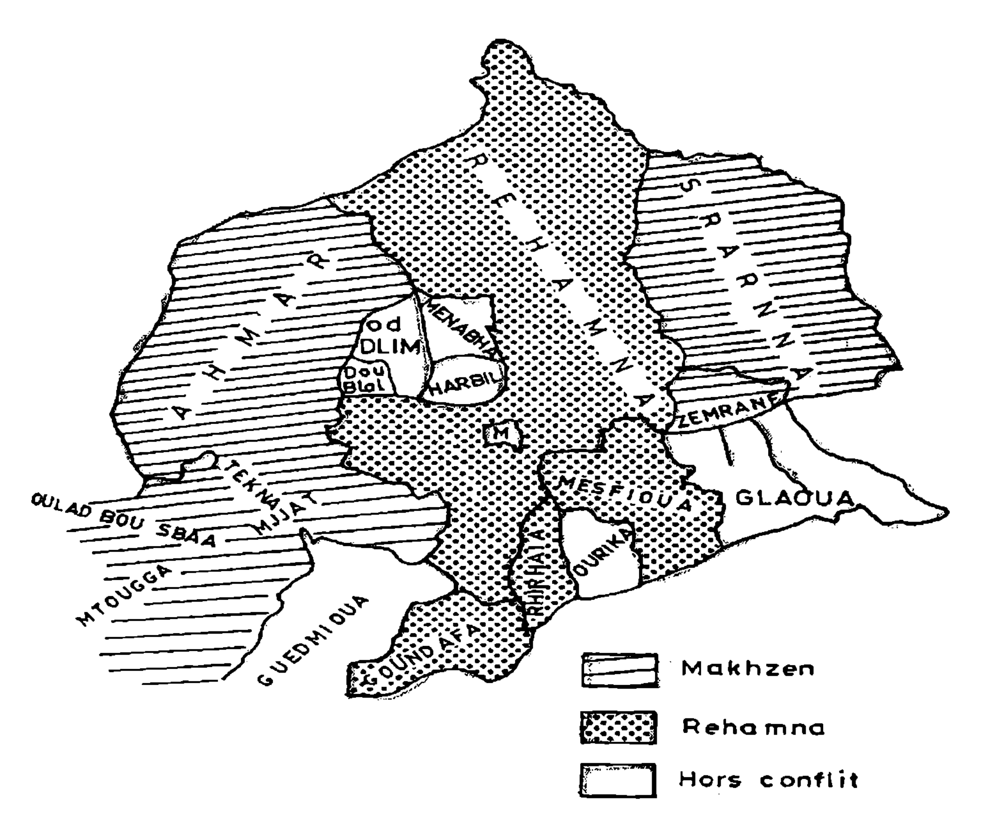
---

[77] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق.ص26.
[78] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،الجزء السادس، نفس المرجع. ص.85.

عمل على الحد من التحركات القبلية، مستبدلا الأساس القبلي بآخر ترابي متحكم في حدوده الجغرافية.

سؤال حيوية المجال الرحماني له علائق أخرى بعوامل الترحال والاستقرار، وما يرتبط بهما من حياة الرعي والانتجاع التي ميزت الرحامنة خلال وفودهم إلى حوز مراكش، فالاستقرار النهائي لم يحدث إلا في القرن التاسع عشر، وهو ما يعني أن تأمين حدود المجال ظل مفتوحا دوما على الشروط السوسيوسياسية التي كانت تطبع علاقة القبيلة بالمخزن أو القبائل والحواضر المجاورة في شكل أحلاف ومصالح وتبادلات.

الخريطة السياسية لجزء من الحوز، سنة 1884



المصدر: حوز مراكش لبول باسكون

يقول عبد الله العروي في هذا الصدد بأن "المغربي مختلف ويشعر بالاختلاف بلباسه، وبلغته، وبالحدود التي يعترف بها لتراب يعطيه إسما ويجعله ترابه"[79]، فمجال القبيلة هو ما يمنح أفرادها الوجود والانتماء، وهو ما يؤسس للبدء والاستمرار، الشيء الذي يجعل من تنميته وتحصينه استراتيجية فعالة وضرورية لإعلان الحضور وتجذيره، خصوصا عندما تبصم الهشاشة علاقات الجوار القبلية.

إن وجود بلاد الرحامنة على الطريق[80] المؤدية إلى مراكش، وفي "قبة الحوز"، جعل منها معبرا للقوافل التجارية و"المحلات" السلطانية القادمة من فاس، كما كانت أيضا هدفا ومعبرا لعدد من "الحركات" المخزنية، وعندما ينضاف هذا المعطى المروري إلى معطى الجوار الذي يحيل على قبائل متعددة كالسراغنة وزمران وعبدة واحمر ودكالة والشاوية، تصير حدود المجال نسبية ومرتبطة أساسا بعنصري القوة والضعف اللذين يطرآن على القبيلة.

من المؤكد "أن الموقع له فعالية في العلاقة بين الرحامنة والمخزن، لأن القبيلة في مجالها النهائي شكلت ممرا للحركات المخزنية والمحلة السلطانية[81] بين بلاد الشاوية ومدينة مراكش، مما حتم

---

[79] Abdellah Laroui, Les origines sociales et culturelles du nationalisme Marocain (1830-1912), Editions Centre culturel arabe. Casablanca. 3eme Edition. 2009. p.65.

[80] إن الطريق التي تربط رباط الفتح بمراكش والتي كانت تخترق المجال الرحماني كانت تسمى في أدبيات الإخباريين بطريق الجهاد، لأنها كانت تسخر أكثر، رمزيا وماديا، في مرور "القوة المخزنية"، أما الطريق الرابطة بين فاس وسجلماسة فقد كانت تسمى بطريق التمر، والطريق الرابطة بين فاس ومراكش عبر تادلة كان يطلق عليها إسم طريق النحاس، فيما كانت كانت طريق فاس تلمسان موسومة بطريق الحجاج ومراكش سجلماسة بطريق القبلة.

أنظر: عبد الأحد السبتي، المدينة والمجال في الكتابة التاريخية التقليدية: محاولة توطين إشكالية أمن الطرق، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الموسم الجامعي: 2005/2004.ص.276.

[81] يصف الطبيب فردريك وايسجربر المحلة السلطانية قائلا:"تتكون المحلة السلطانية من قسمين متمايزين: مخيم المخزن ومخيم العسكر، فأما المخيم الأول، فيقوم في الناحية الغربية على هيئة دائرة من حوالي 4 كيلومترات مربعة، وتقوم في الوسط منه قبة السلطان الكبيرة فوق ربوة صغيرة... وتحف بها من كل جانب خيام الحريم الصغيرة التي تؤوي إليها عشرون من الإماء اللواتي اصطحبهن السلطان معه في حملته. وتتصل هذه الخيام في ما بينها وتتصل بخيمة السلطان بمجازات. ويحيط بالخيام كلها أفراك، وهو حزام دائري من القماش في علو مترين إلى ثلاثة أمتار.

و في الجهة الشرقية من أفراك يمتد ما يشبه الفناء، ذلك هو المشور تحف به خيام تقوم مقام البنايق أو مكاتب يأتيها الوزراء وكتابهم لتصريف الشؤون الخاصة بوزاراتهم، وتحد المشور رحبة المدفعية قد نصب فيها ثلاثون مدفعا ..و تقود إليها سبيل عريضة تقوم على جانبيها خيام الرماة.

و إلى المشور، قرب المدافع، تأتي القبائل لتقديم البيعة والولاء، وعلى الجانب الآخر، الغربي، من أفراك يوجد "الروا" وهو فضاء فسيح تعقل فيه جياد السلطان وبغاله، وتمتد خلف الروا أرض مكشوفة مخصصة هي

حركيتها وتفاعلها مع التاريخ، وأزم علاقتها مع ممثلي المخزن أحيانا"[82]، كما أن هذا الموقع سينعكس على تشكيلاتها الاجتماعية ومكوناتها القبلية وتحالفاتها وتنافساتها المفترضة مع باقي القبائل الأخرى.

في القرن التاسع عشر ستصير أجزاء مهمة من المجال الحوزي مرتبطة بقبيلة الرحامنة، استقرارا وانتجاعا، "لقد كانت هذه القبيلة تتعاطى الانتجاع وفق محورين إثنين:

- محور أول(شمال/ جنوب) بين الأطلس خلال فصل الصيف و"البحيرة" خلال فصل الشتاء و"الكعدة" في فصل الربيع.
- محور ثاني(شرق/ غرب) بين "الكعدة" خلال فصل الربيع، و"ساحل" دكالة خلال فصل الصيف"[83].

إن هذه الحركية المجالية ستساهم في توسيع الشبكة العلائقية للقبيلة، وستؤسس لمجموعة من الأحلاف والتوافقات التي ستربطها مستقبلا بجيرانها من باقي القبائل، "فالترحال الرعوي ليس بنسق مغلق"[84]، إنه ممارسة مفتوحة على التبادلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، كما أنه ممارسة مسنودة بتاريخ من العلاقات والتجارب، فالرحامنة القادمون من الصحراء إلى الحوز لم يفرطوا في أسلوب عيشهم المفتوح على الترحال والانتجاع، بل عملوا على تجديده ومواصلته في المجال الحوزي، وفق قيم وعلاقات جديدة.

لم يكن المجال الرحماني مجالا مغلقا في تاريخيته وتفاعلاته، إنه مجال عبور وجوار، فمنه كانت تمر المحلات السلطانية والحركات المخزنية، ولهذا يلاحظ أن توصيف "النزالة"[85] كان حاضرا على طول الطريق

الأخرى لسجناء الحرب. وما تبقى من الحيز الداخلي من المخيم يخص لخيام موظفي المخزن وللكثرة الكثيرة من خدام بيت السلطان، من خدم الخيام وخدم الكسوة والجزارين والطباخين وخدم الحمام وخدم الشاي وخدم المظلة وخدم البندقية وخدم القوس وخدم الأعلام والعازفين والسائسين والحمارين والعبيد.

تقام خيام العسكر على مسافة صغيرة ناحية الشرق من خيام المخزن، وفيه تعسكر مختلف قوات المشاة النظامية..وتقوم بين المعسكرين سوق قد توفرت لها جميع عناصر السوق من تجار وكتاب ومجبرين وحكائين ومروضي أفاع.."

أنظر: فردريك وايسجربر، على عتبة المغرب الحديث، ترجمة: عبد الرحيم حزل، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2011.ص.49.

[82] عمر الإبوركي، الظاهرة القائدية: القائد العيادي الرحماني نموذجا، مرجع سابق.ص.115.

[83] Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1.op.cit.p207.

[84] محمد دحمان، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مرجع سابق.ص.35.

[85] "تتخذ النزالات أو النزايل في الغالب شكل قطع أرضية مربعة، محاطة بزريبة من الأشواك أو بسور من الحجر، وقد تكون محاطة بخندق، ويتولى تدبير هذه المحطات أهل النزايل وهم حراس يقطنون داخل النزالة في بيت من الطين أو الحجر، أو في نوالي من القصب والتبن، وتوفر النزالة للمسافرين والقوافل المبيت والأمن مقابل رسم متواضع يحصل على الدواب لا على الأفراد، كما أنها توفر إمكانية التموين بمواد مثل البيض والدجاج والعلف".

التي كانت تعبرها هذه "المحلات"(نزالة الصخور، نزالة بن جرير، نزالة لعظم)، فهذه النزالات[86] تـؤشر على "طريق المخزن وتطلق على عدد من المحاور التي يشرف السلطان على تنظيم حراستها، فهو يكلف بعض القبائل بـ"درك الطريق" ويأمر بوضع النزايل كمحطات لاستراحة وتموين المسافرين والقوافل"[87].

فالنزالة برأي إدموند دوتي هي "عبارة عن دوار صغير، أو بكل بساطة مأوى متواضع وآمن تسمح السلطة بإقامته، لكي يقدم خدمات للمسافرين مقابل واجبات رمزية"[88]، واتصالا بهذا السياق يقول عبد الأحد السبتي بأن "قبيلة الرحامنة تحتل موقعا استراتيجيا، في "قبة الحوز"، وهي تراقب طرقا مهمة مثل الطريق السلطانية التي تربط بين مراكش والشمال، والطريق التي تربط بين مراكش وموانئ منطقة الحوز(أسفي والجديدة)، والطريق التي تربط بين مراكش والدير"[89]، فالموقع يخرج من طابع الاعتيادية بسبب هذه الديناميات السياسية والاجتماعية التي يعرفها، ويؤثر في حال ومآل القبيلة سلبا أو إيجابا تبعا لمستويات تفاعلها مع هذه الديناميات، علما بأن السلب أو الإيجاب هنا يفسر أكثر بالانكماش أو التوسع الترابي. "فالتغيير الاجتماعي ليس مجرد قوى تاريخية واجتماعية، وإنما هو في مستوى آخر تفاعل بين استراتيجيات فاعلين متعددين"[90].

بالرجوع إلى ما تتيحه قراءة التاريخ الاجتماعي للقبيلة، فإنه يبدو صعبا تحديد المجال الترابي للقبيلة بدقة متناهية، إنه مجال متغير، يضيق[91] ويتسع، ترتحل أو تُرحل مكوناته، خصوصا في ظل الأحداث التي عرفتها الرحامنة خلال القرن التاسع عشر. فكيف حدث الاستقرار النهائي بالحوز؟ وكيف تم استبدال الخيمة التي تدل على الترحال بالنوالة التي تؤشر على الاستقرار؟ وما نتائج هذا الانتقال على الإنسان والمجال؟

أنظر: علال الخديمي، النزايل والمواصلات والتدخل الأجنبي في المغرب خلال القرن التاسع عشر، مجلة هسبريس تمودا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، العدد، السنة 1993.ص.8.

[86] ومن النزالات الأخرى التي اشتهرت بها الرحامنة نذكر: نزالة الرواكب بحافة الكنتور، نزالة غدير لخشب، نزالة الغابة، نزالة بن محمد، نزالة لبيار القصار، نزالة موكا ونزالة أولاد بلة.

[87] علال الخديمي، النزايل والمواصلات والتدخل الأجنبي في المغرب خلال القرن التاسع عشر، مرجع سابق.ص.8.

[88] Edmode Doutte, Marrakech.op.cit.p.22.

[89] عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق، مرجع سابق.ص.267.

[90] Henris Menderas, Le changement social: Tendances et paradigmes, Armand Colin, Paris.1983.p.11.

[91] في هذا الصدد يقول الطبيب فردريك وايسجربر بأنه لما تعرف على القايد عيسى العبدي في سنة 1898، كان نفوذه حينئذ يصل إلى قسم من دكالة والرحامنة وشيشاوة والشياظمة وحاحا، كما أن الرواية الشفوية تؤكد أن بعض أراضي البحيرة كانت دائما محور صراع بين الرحامنة والسراغنة.

أنظر: فردريك وايسجربر، على عتبة المغرب الحديث، مرجع سابق.ص.286.

الفصل الثالث:

من الخيمة إلي النوالة
جدل الترحال والاستقرار

سنحاول في هذا الفصل تتبع لحظات الانتقال من الخيمة إلى النوالة، مع التركيز على شكل ومضمون هذا الانتقال، في مستوى الفعاليات والممارسات والعلاقات، التي ساهمت في بناء "فرضية" امتلاك المجال من قبل الرحامنة بدءا من القرن التاسع عشر.

يورد محمد الأمين البزاز شهادة دالة للرحالة لمبريير يقول فيها: "يصعب على المرء أن يتصور كيف أنني لم أصادف ولو مسكنا واحدا في طريق عودتي من مراكش إلى الرباط، على الرغم من أن المسافة تستغرق سبعة أيام من السير، لم أشاهد سوى بعض خيام الأعراب منتشرة هنا وهناك. وكل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن داخل البلاد لا يقل إقفارا هو الآخر"[92]، طبعا يتعلق الأمر بنص مكتوب في مفتتح القرن التاسع عشر نقرأ فيه محدودية الاستقرار في مقابل واقعة الترحال التي تدل عليها الخيام.

فالرحالة لمبريير مر حتما من بلاد الحوز في طريق عودته إلى الرباط، لكنه لم يصادف إلا قلة من الخيام، التي يؤكد أنها للأعراب، وهذا يضعنا أمام احتمالين على الأقل، فإما أن زمن الرحلة كان متصادفا مع ارتحال إلى مناطق أخرى في إطار البحث عن الكلأ والماء، خصوصا وأن زمن الرحلة هو زمن قحوط ومجاعات كما يؤكد ذلك محمد الأمين البزاز، وإما أن الفترة المعنية بمرور هذا الرحالة كانت تشهد توافدا محدودا لعشائر الرحامنة إلى منطقة الحوز.

لكن إدموند دوتي نفسه سيقر بنفس النتيجة التي انتهى إليها لمبريير، مبرزا أنه لم يشاهد في طريقه إلى مراكش سوى نوالات متفرقة وخيام لقبيلة أولاد بوسباع النازحين من الصحراء، تحيط بها زرائب من الأشواك للماشية[93]. ويقيمون حديثا بجنوب مراكش، حيث كانت تقيم قبلا أطراف من قبيلة هنتيفة.

---

[92] W. Lempriere, Voyage dans l'empire du Maroc, Paris, 1801.p.85

مذكور في: محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن والتاسع عشر، مرجع سابق.ص.28.

[93] Edmode Doutte, Marrakech, op.cit.p.290.

أولا: ثقافة الترحال:

مهما يكن من أمر فإن الانتقال من الخيمة إلى النوالة[94]، في دلالة على استبدال الترحال بالاستقرار لم يكن ليحدث بيسر شديد لدى قبيلة خبرت الترحال منذ انطلاقها من شبه الجزيرة العربية باتجاه المغرب الأقصى. فبالرغم من اشتغال القبيلة خلال مقامها بالصحراء وسوس بالتجارة، فإنها لم تفرط في نشاطها الأصلي القائم على الإرعاء، فقد "كانوا يمارسون الرعي الواسع مع ما يتطلبه هذا النشاط من ضرورة النجعة"[95].

و بما أن حياة الانتجاع والترحال تستوجب الاصطفاف في إطار تحالفات مستمرة، فلقد ارتبط الرحامنة بالتحالف "**أمقون**" مع القبائل الحوزية المجاورة، وهو نوع من التعاقد الذي ضمن حق الرعي والحماية بالنسبة للمتعاقدين من غيغاية ومسفيوة وكندافة.

لكن يبدو أن هذا التعاقد لم يكن ليصمد طويلا مع "استقرار الكيش الإسماعيلي حول وادي نفيس"[96]. فالتعاقدات لا تحكمها بالضرورة اعتبارات داخلية محلية، بقدر ما ترتهن أيضا إلى عوامل خارجية، تكتسب مزيدا من التأثير في حال تقاطعها مع مصالح السلطة المخزنية.

إن تموقع المجال الرحماني على خط رابط بين مراكش والرباط وفاس سيعزز لا محالة آليات ومظاهر الاستقرار، بدءا بالنزالات وانتهاء بالمراكز القروية وشبه الحضرية، فإذا كان الترحال في المجال الصحراوي تحدده عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية، فضلا عن حساسية العامل الطبيعي، وهو ما خبرته القبيلة تاريخيا في حركيتها الجغرافية من الصحراء إلى الحوز، فإن هذه العوامل مجتمعة ستدفع باتجاه معطى الاستقرار والانتقال بالتالي "من الخيمة إلى النوالة".

---

[94] يقول إدموند دوتي: "لا تخلو النوالة المغربية من إتقان كما هو الحال بالنسبة للنوالة السودانية، فهي مبنية بقصبات قوية وغليظة تغرس في الأرض على شكل دائرة، ويجمع فيما بينها من الجهة الأمامية القابلة للطي ثم تخاط بعد ذلك. ونجد في هذا الهيكل عند الرحامنة أغصان فروع الطرفة والمسماة عند عبدة بالرطم، فهي فروع رقيقة وقابلة للكي أو الطي حول الهيكل أو الإطار المعد أولا بطريقة منضدة".

أنظر: إدموند دوتي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة(1901-1902)، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، مرجع سابق.ص.217.

[95] عبد الرزاق الصديقي، مادة "الرحامنة"، في مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب،الجزء الثالث عشر، مرجع سابق.ص.4284.

[96] عبد الرزاق الصديقي، مادة "الرحامنة"، في مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب،الجزء الثالث عشر، مرجع سابق.ص.4284.

و بالطبع فهذا الانتقال لن تكون نتائجه مقتصرة على مورفولوجيا السكن، بل سيمتد في تأثيره إلى البناء الاجتماعي للقبيلة، والانتماء المجالي لأفرادها ومجموعاتها، بما يعنيه ذلك كله، من إنتاج لمكانات ووضعيات سوسيوسياسية جديدة. فالانتقال من واقعة الخيمة إلى النوالة لا يختزل تغييرا اجتماعيا من نمط رعوي إلى آخر زراعي، ولكنه يستدمج تغييرا دالا إلى نمط سياسي وثقافي مختلف، يستثمر الطقوس والرموز الدينية ويصنع التراتبات ويولد الزعامات.

إن الأمر يتعلق بقبيلة تختزن في تاريخها مسارات من الانتماءات إلى ممارسات رعوية وتجارية وزراعية، فقد مارس الرحامنة الترحال الرعوي خلال مقامهم بالصحراء، كما مارسوا التجارة فضلا عن الزراعة على طول رحلتهم الكبرى من تخوم الصحراء إلى سهل سوس، فسهل الحوز أخيرا، وبديهي أن تكون لهذه الممارسات والانتماءات امتدادات حتى في الوقت الراهن.

فتعدد الانتماءات إلى سجلات إيكولوجية متنوعة، والذي حصر مسار القبيلة في الاتجاه المؤطر لأغلب الحركيات السكانية وهو اتجاه "جنوب/ شمال"، سيوضح في منتهاه بمنطقة الحوز، أن الأمر متعلق بحركية استراتيجية وسياسية أكثر منها اقتصادية وإيكولوجية، فالعامل الطبيعي حاسم ومؤثر في صناعة الحركية القبلية، لكنه عامل ضمن عوامل أخرى تنفتح على قدر عال من التركيب.

سيدفع الوصول إلى الحوز بقبائل الرحامنة إلى تغيير استراتيجية اشتغالها على المجال، فالأرض الحوزية تغري بالاستقرار، اعتبارا لغناها الطبيعي، وتموقعها على خطوط الحركات والمحلات المخزنية، وكذا على الطريق المؤدية إلى أشهر المدن السلطانية(فاس، مكناس، الرباط، مراكش)، كما أن هذه الأرض كانت منذ البدء الهدف الأثير للحركية القبلية، فهي منتهى الزوج "جنوب/ شمال" المحدد لهذه الحركية.

وهنا بالضبط سيستبدل الرحامنة حياة الترحال الرعوي بأنشطة الزراعة التي توطد العلاقة بالأرض، وهو ما لم يتحقق بقوة الأشياء إلا في القرن التاسع عشر، حيث ستتمكن القبيلة من بسط نفوذها على أجزاء مهمة من منطقة الحوز.

يشير إدموند دوتي في هذا الصدد إلى أنه لاحظ اختفاء الدور المبنية بالحجارة خلال مروره بمنطقة الرحامنة قادما إليها من دكالة، ولم يُشِر خلال مقامه بها إلى أي بناء صلب باستثناء قبب الأولياء[97]، وهو ما جعله يعتبر المجال الرحماني مجال الخيمة والنوالة بدون منازع[98]. وهو ما يؤكد أن الرحامنة حديثو عهد بالاستقرار، كواقع جديد لم يقض نهائيا على نمط الترحال المميز لهم تاريخيا، فالنوالة تدل من حيث بنائها وتركيبها على نمط عيش يمكن توصيفه بـ "**نصف استقرار**".

---

[97] Edmode Doutte, Marrakech, op.cit.p.290.

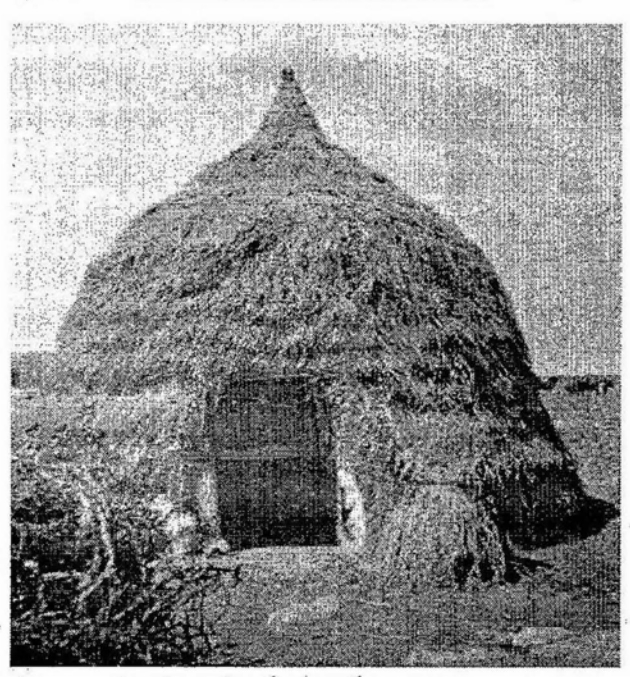
[98] Edmode Doutte, Marrakech, op.cit.p.290

إن ما انتهى إليه إدموند دوتي بصدد المجال الرحماني لا يحتمل فقط قراءة أحادية تحيل على غياب الاستقرارو سيادة منطق "الفراغ السكاني"، فملاحظاته تهم الفترة التي مر بها من الرحامنة، والتي كانت خلال فصل الصيف، الشيء الذي يصادف تنقل القبيلة إلى مناطق أخرى حيث الماء والكلأ، ولهذا غالبا ما يكون التخريج المفضي إلى "أرض الخلاء" الأكثر استعمالا في كتابات الرحالة الأجانب.

لكن مع ذلك فإدموند دوتي يبدو محقا في غياب البناء الصلب، فالرحامنة ظلت إلى حدود منتصف القرن التاسع عشر مجال الخيمة والنوالة، في حين ظل البناء الصلب، حكرا على المقدس (أضرحة، مساجد، زوايا..) والوجاهة والقيادة الاجتماعية والتدبير المخزني (عزيب، دار القايد، نزالة..).

فالنوالة تستعمل كسكن، لكنها تتميز بالهشاشة والهزال، نظرا لنوعية المواد المستعملة في بنائها، كالقصب وأغصان الدفلى والخروع، وهي نباتات لينة ورخوة يمكن تشكيلها بسهولة، لتتخذ شكلا أسطوانيا في الغالب[99]. وهو ما يعني أن السكن سهل البناء وسهل الهدم في آن، الشيء الذي يتيح إمكانية الانتقال إلى نمطي الاستقرار أو الانتجاع تبعا للظروف والمتغيرات.

نوالة رحمانية خلال سنة 1901.



المصدر: كتاب مراكش لإدموند دوتي

[99] أحمد زروال، مادة نوالة، في مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب،الجزء الثاني والعشرون، مرجع سابق.ص.7471.

إن النوالة كفضاء سكني لا تعني الاستقرار النهائي، بل تدل على نمط معيشي يزاوج بين الترحال والاستقرار، ولعل هذا ما دفع إدموند دوتي إلى القول بأن "كل الأسر القبلية كانت تمتلك مسكنا للاستقرار بالسفح وتكون الخيمة وسيلة للسكن أثناء النجعة"[100]، وهو الواقع الذي سيستمد استبداله بعدا بامتلاك سكن الاستقرار وفضاء العزيب أيضا.

والواقع أن ممارسة نشاط الانتجاع بهذا المجال، لم يكن مرتبطا فقط بوصول الرحامنة، بل كان منتهجا من طرف القبائل العربية الوافدة قبلا إلى نواحي مراكش كالأوداية والشبانات والمغافرة، ففي "القرن السابع عشر الميلادي كانت بعض أفخاد الأوداية تنتجع في أحواز مراكش، وتعيش في وئام مع عرب الشبانات، وعندما دخل المولى إسماعيل مدينة مراكش سنة 1088 هجرية، كانت الأوداية ومن ضمنها المغافرة تنتشر في وسط "البحيرة""[101]، كما يتأكد أنه في نفس القرن كانت الشبانات ومن ضمنها الشراردة تنتجع في أحواز مراكش[102]، هذا يدل على حيوية المجال الحوزي من جهة، كما يؤكد فرضية حداثة امتلاكه من قبل الرحامنة.

ثانيا: ظهور "العزيب":

بالرغم من واقعة الاستقرار أو نصف الاستقرار، ظل الرعي نشاط الرحامنة الأول، فقد كان ممتهنا بنسب أعلى من طرف المستقرين بالشمال الشرقي حيث منطقة "الحدرة" التي تنتمي إلى منطقة الجذب والعطوبية التضاريسية، وهذا ما سيجعل المقيمين بهذه المناطق مضطرين للانتجاع صيفا باتجاه غرب الرحامنة أو نحو قبائل الشاوية شمالا[103].

في حين ستنتقل العشائر الرحمانية المقيمة على طول الطريق الرابطة بين مراكش والرباط (طريق النزايل والحركات والمحلات)، ثم الأخرى المقيمة بسهل البحيرة، حيث التربة الخصبة ووفرة المياه، ستنتقل من أزمنة "النوالة" إلى الدور المبنية بالأحجار والطين، ومنها إلى علاقات جديدة مع الأرض، ستفرز أنماطا للملكية العقارية، ستكون لها نتائج مباشرة على التراتب الاجتماعي للقبيلة.

---

[100] Edmode Doutte, Les Marocaines et la société Marocaine, In: Revue général des sciences pures et appliquées. T. 14. Paris. 1903. p.372.

[101] العربي اكنينج، مادة المغافرة، في مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب،الجزء الواحد والعشرون، مرجع سابق.ص.7220.

[102] العربي اكنينج، مادة الشراردة، في مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب،الجزء السادس عشر، مرجع سابق.ص.5312.

[103] عمر الإبوركي، القائد وتغير البنيات الاجتماعية في العالم القروي: القائد العيادي ومجال الرحامنة نموذجا، أطروحة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، مرجع سابق.ص.153.

لم يساهم الاستقرار كلية في تفكيك الاقتصاد الرعوي المميز للقبيلة، بل امتزج معه في ثقافة العزيب[104] تحديدا، والتي تستدعي التمييز بين العزيب كفضاء سلطاني والعزيب كممارسة رعوية تحيل على حياة النجعة، وبين العزيب كنمط سكني يعكس التراتب الاجتماعي، ويعكس أيضا بعضا من ملامح "الإقطاع" في المجتمع المغربي.

يدل العزيب على ضيعة تكون في الغالب في ملكية علية القوم، وقد كانت في البدء امتدادا لملكية السلطان، قبل أن يقطعها لقياد أو أعيان أو شرفاء ومرابطين جزاء لهم على حسن الصنيع، أو إدماجا لهم في نسق الولاء والخدمة المخزنية. فالسلطان، حسب لوكوز، كان يتوفر على "عزائب على طول "طريق السلطان"، وبالشراردة، وبحجاوة (عزيب حجر الوقف بسبو)، وببني مالك، وعزيب الفورات بجنوب عرباوة، وهناك عزائب أخرى بضواحي مراكش ومكناس تتكون من ألف زوجة حرث أي ما يعادل 15000 هكتار"[105].

فالعزيب يشكل ضيعة كبرى تضم أراض تستغل في الغالب في الرعي وبعض الزراعات، يكون في ملكية السلطان الذي يقطعه إلى زاوية أو شريف[106] محدد، وفق ظهير يحدد تفاصيل هذا الإقطاع، التي تتطرق حتى إلى عدد العزابة أو "لمسلمين" الذين يكونون في خدمة مالك العزيب، والذين لا تحق لهم المغادرة إلا بإذنه، فهم بيد صاحب العزيب الذي يجوز له بيعهم أو كراؤهم أو منحهم لعزيب آخر، فبين "العزابة وأسيادهم علاقات قنانة"[107] تنضبط لمضمون تراتبي.

---

[104] حسب ابن منظور فإن العزيب من "عزبت الإبل بمعنى أبعدت في المرعى، وأعزبها صاحبها وعزب إبله وأعزبها، أي بيتها في المرعى ولم يرخها" العزيب في الأصل هو المخيم الرعوي البعيد عن الدوار أو القرية، ويعني المدشر الذي يحرسه رجل أعزب "عزاب"، واستعمل من بعد للدلالة على الأرض الزراعية البعيدة، والتي يملكها مالك غائب، بهذا المعنى تقصد الأراضي الرعوية التي كانت من ملكية الأسر الحضرية بفاس، وكان لهذا المفهوم كذلك معنى مؤسسي أي بكونه هبة أو إنعام، يمنح للشرفاء والزوايا.

أنظر:

ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، مرجع سابق.ص.597.

مجموعة من الباحثين، معلمة المغرب، الجزء 18، مرجع سابق.ص.6069.

[105] Jean le Coz, le Gharb: Fellahs et colons, Tome.1. 1964. p.293.

[106] في هذا الصدد يؤكد ميشو بلير بأن السلطان مولاي اسماعيل أقطع الشيخ مولاي عبد الله الشريف شيخ الزاوية الوزانية عزيب المعاضدة القريب من القصر الكبير مكافأة له على حسن خدمته للمخزن، وذلك بمقتضى ظهير شريف مؤرخ في فاتح ربيع الأول عام 1083 ه موافق 27 يونيو 1672 م. أنظر:

Michaux Bellaire, Les tribus arabes de la vallée de Lekkous, In: Archives berbères, Vol: V. 1905.p.87.

[107] عبد الهادي الهروي، القبيلة، الإقطاع والمخزن: مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث(1844-1934)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2005.ص.178.

إن العزيب كفضاء سكني رعوي سينضاف إلى معطى النوالة والدور المبنية بالأحجار والطين في ظل واقعة الاستقرار، وسيدل على تلك السكنى الثانوية المخصصة للرعاة "السراح"، من أجل إيوائهم وماشيتهم خلال مواسم الانتجاع. وتكون في الغالب الأعم مسورة بسور عال تتوسطه سكنى "مول البلاد" فضلا عن نوالات للرعاة والخدم، وتحيط بها أراضٍ تجسد الرأسمال المادي للملاك وتحدد مستويات من التراتب في علاقته برعاته وخدمه.

لكن العزيب لم يكن حكرا على المجال الرحماني، بل كان حاضرا في كثير من مناطق المغرب، وبصيغ متعددة، ولعل هذا ما جعل ميشو بلير يؤكد بأن العزيب ليس فقط ضيعة، بل قد يكون دوارا أو جزءا منه أو قرية كاملة بحيث يعتبر سكانها، من الآباء إلى الأبناء، في خدمة الشريف أو خلفه من طرف السلطان[108]. فهل يتعلق الأمر بأراضٍ مخزنية تحت مسمى العزيب؟

لا يعني ظهور العزيب في المجال الرحماني فقط الامتزاج بين نشاطي الترحال والاستقرار، بل يشير إلى ملامح جديدة من الملكية العقارية، بدأت تتجذر مع امتلاك المجال، وتأكيد السيطرة على الحوز. وهي الملكية العقارية التي تتوزع على صنوف شتى من الأراضي، كالأحباس والأملاك المخزنية وأراضي الكيش والجموع والملك الخاص، هذا الأخير الذي تبلور بكثرة في بدايات القرن العشرين، وتحديدا مع سياسة القياد الكبار التي انتهجها المستعمر الفرنسي في مخطط التهدئة **Pacification** وبسط النفوذ.

ثالثا: السيادة العقارية:

كانت الأرض ولا زالت مفتاحا لفهم دينامية العلاقة بين الإنسان والمجال، كما أنها تاريخيا تؤسس لعلاقات وتراتبات، وتختزن صراعات وتوافقات، فالأرض تعتبر "المحرك الأساسي للوحدات الاجتماعية في كل المجتمعات الزراعية، فقد كانت في المغرب، ولا تزال البؤرة المحورية التي يحتدم حولها صراع تلك الوحدات الاجتماعية، سواء كانت حضرية أو ريفية"[109].

إن أولى الأنماط العقارية بالنسبة لقبيلة الرحامنة ستكون في البدء مرتبطة بأراضي الجيش وأراضي الجموع، فالأولى أقطعت للقبيلة لقاء خدماتها التي أسدتها لفائدة السلطة المخزنية، والثانية ظهرت بسبب جدل الانتجاع ثم الاستقرار في مجالات ضعيفة الجاذبية بسبب جفافها واستعصاء العيش بها. فالرحامنة إلى جانب قبائل "أولاد دليم والمنابهة ودخيسة والمغافرة وأولاد جامع وتكنة

---

[108] Michaux Bellaire, Les tribus arabes de la vallée de Lekkous. op.cit.p.72.

[109] عبد الهادي الهروي، القبيلة، الإقطاع والمخزن: مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث(1844-1934)، مرجع سابق.ص.65.

والشبانات وذوي منيع وذوي بلال والشجع وزرارة..."[110] اعتبرت كقبائل "جياشة" أو "نايبة"، مستفيدة بذلك من عدد من الأراضي، التي كانت تمنح حسب ما تتوفر عليه القبيلة من "زوجة حرث"[111]، تعكس القوة والحضور القبلي.

وهذا ما سيمهد بعدا للتراتب الاجتماعي الناجم عن الملكية العقارية للأرض، فمن يتوفر على عدد كبير من "الزوجات" سيكون بالضرورة متحكما في مساحات كبرى من الأراضي، فالعينية والقائدية لم تكونا نتاجا خالصا لمتغيرات تاريخية وسياسية، بل كانتا، وبالضرورة، ترجمة واقعية للعلاقة بالأرض أو ما يسميه غريغوري لازاريف بالنبالة أو **السيادة العقارية**، كمفهوم يقرب أكثر من فهم طبيعة علاقات إنتاج القائدية والعينية، ذلك أن هناك علاقة وثيقة بين الملكية العقارية للأرض والسلطة السياسية التي بفضلها تكونت هذه الملكية[112].

تغدو الأرض، وفقا لهذا الاشتغال، شكلا و محتوى بارزا للانتماء والتجذر في المجتمع القروي، باعتبارها "أداة سيطرة تتولد وتتشابك حولها وعلى رأسها علاقات سلطوية"[113]. إنها بطاقة هوية تُشهر في وجه الجميع، لتقاس بها ومن خلالها موازين القوى والنفوذ، فكلما كبرت الأرض، كلما تعالت رهانات القوة والفعالية، وكلما تقلصت كلما ضاعت أسهم التأثير والمشروعية، "فالأرض هي أهم ثروة في المجتمعات الزراعية"[114].

كانت السلطة المخزنية تمنح قوادها وأعيانها ممن يفترض فيهم أنهم يقدمون لها خدمات ملموسة، كانت تمنحهم أراضي تسمى بالـ "تنفيذة" أو "ملك إضافي" في حوز مراكش، بلغة القصر

---

[110] مصطفى بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب، الجزء الأول، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى، 1984.ص.331.

[111] يشير أحمد التوفيق إلى أن زوج الحرث هو "مفهوم يطلق على المساحة التي يحرثها الفلاح بمحراث يجره زوج من الدواب، وقد قدر بيرك هذه المساحة ب 11 هكتارا، وقدرها دوزي ما بين 7 و8 هكتارات، فيما أوضح لوكوز أن زوج الحرث يقدر ب 10 إلى 12 هكتارا"، ويضيف التوفيق قائلا بأن " الزوجة ثلاثة أصناف: زوجة كبيرة وزوجة متوسطة وزوجة صغيرة، حسبما إذا كان زوج البهائم الجارة هو الجمال أو البغال أو البقر أو الحمير، وقد كانت قوة القبائل تقاس، إلى جانب عدد سواعدها، بعدد امتلاكها لزوجة الحرث، وفي هذا الصدد ذكر ابن الخطيب، بأن وطن دكالة كان يبلغ عدد أزواجه 3000 زوج من أزواج الثيران، أما ابن قنفذ فقد ذكر أن عدد أزواج حرث دالة كانت تقدر بعشرة آلاف".

أنظر: أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إينولتان، مرجع سابق.ص.202.

[112] Gregory Lazarev, Remarque sur la seigneurie terrienne au Maroc, In: Colloque "Structures et cultures pré-capitaliste, Anthropos, Paris, 1981.p.410.

[113] Raymond Jamous, Honneur et baraka: Les structures sociales traditionnelles dans le Rif, Edition de la maison des sciences de l'homme, Paris.1981.p.56.

[114] Henris Manderas, Eléments de sociologie, Editions Armand Collin, Paris, 1975.p.177.

و"أرض كيش" في تعبير الإدارة الاستعمارية"[115]. فالتنفيذة تعني حق الانتفاع بملك من أملاك بيت المال أو بأملاك الأحباس، ويعتبر هذا الحق امتيازا خاصا يمنحه السلطان ويضعه تحت تصرف المُنْعَم عليه، قصد استغلال تلك الأرض والانتفاع بها، وتنشأ التنفيذة بظهير سلطاني يحرر غالبا على الشكل التالي:"**تنقل بالتنفيذة إلى محب جنابنا الكريم ميلود بلهاشمي العيادي حق الانتفاع بأرض تاركة بحاضرة مراكش، والتي كانت سابقة بيد عبد السلام البربوشي...**"، لكن أغلب أراضي التنفيذة ستصبح، بصفة عامة ملكيات خاصة للمستفيدين منها، الذين سيوسعون من موروثهم العقاري[116]، الذي يعني رفعا من قيمة رأسمالهم المادي والرمزي في النسق القبلي العام، خصوصا مع ظهور نظام التحفيظ العقاري، بما يدل على انتقال هذه الأراضي من سجل العطايا إلى سجل التملك.

كما كانت تتخذ صيغ العطاء المخزني تفويت "العزيب"، علما بأن مدارات الاستفادة من هذه الأراضي والعزائب، لم تتوقف في مغرب القرن التاسع عشر عند القياد والأعيان، بل كان يفيد منها الذين تربطهم علاقات قرابة مع القصر، والذين يعملون فيه من كبار الموظفين وأنجال العائلات المخزنية الكبرى، بالإضافة إلى كبار العسكر وأعيان الزوايا[117] الذين كانوا يفيدون أكثر[118] من العزائب.

هذا الوضع الاجتماعي ستترجمه واقعيا الوضعية العقارية للأرض بالمجال الرحماني، حيث نجد الملك الخاص يحتل المرتبة الأولى بنسبة 54 بالمائة من مجموع الأراضي، فيما أراضي الجموع[119] تأتي في

---

[115] Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, op.cit.p.276.

[116] Paul Pascon, le Haouz de Marrakech, op.cit.p.27

[117] كانت الزاوية المصلوحية تتوفر إلى حدود سنة 1876، وهي السنة التي توفي فيها شيخها الحاج سعيد بلحاج المصلوحي، على نحو 1500 هكتار من الأراضي، يمتلك فيها الشيخ عزيب غتيتيس بالحوز، وعزيب آكافاي وعزيب تيورار بوادي نفيس وعزيب بالقواسم بمولاي ابراهيم بن أحمد، وعزيب مولاي أحمد الوافي وعزيب دار العين، وهي كلها عزائب وهبت للزاوية من طرف السلاطين العلويين.
أنظر: Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, op.cit.p.286.

[118] "في بداية القرن العشرين كان مولاي علي ومولاي أحمد ابنا السي عبد السلام الوزاني يملكان 18 عزيبا تحتوي على 150 خيمة وتشمل هذه العزائب 2255 فردا من السكان، و204 من البنادق، و22 فارسا، و194 زوجة حرث، و5650 رأسا من الغنم، و599 رأسا من الأبقار، و200 من أنثى الخيل. واستمر الوزانيون يملكون حوالي 5000 هكتار حوالي سنة 1930".
أنظر:

Abdejalil Halim, L'iqtaà et l'appropriation de la terre au Maroc: Le statut de la terre et des hommes dans le Gharb du 19 siècle, Thèse DES, faculté des lettres et des sciences humaines, rabat, 1978.p.69.

[119] تعد أراضي الجموع من أهم مكونات "الاحتياطي العقاري" بالمغرب، فهي تمتد على نحو 12 مليون هكتار، أي ما يناهز ثلث المساحة الفلاحية والرعوية، كما أنها تشكل 4631 جماعة سلالية، وتشمل 2.5 مليون من ذوي الحقوق من بين 10 مليون نسمة في المجموع، وتتوزع على 48 إقليم وعمالة.

المرتبة الثانية بنسبة 45 بالمائة، ثم الأملاك المخزنية بنسبة 0,3 بالمائة وأراضي الأحباس بنسبة 0,01 بالمائة، فضلا عن أنماط أخرى للملكية تنحصر في نسبة 0,69 بالمائة[120].

سيفرز الانتقال من الخيمة إلى النوالة، نهايةً واقعا مجتمعيا جديدا، ينكشف في شكل علاقات وبنيات وملكيات، تختزل في قائدية مؤثرة وعينية فاعلة، ستحسم حال ومآل الرحامنة في مستويات أخرى من الحضور القبلي.

فالعلاقة بين الإنسان والمجال، لا تقتصر فقط في تأثيراتها، على تدبير الاستقرار، وتغيير أنماطه وملامحه، بل تؤثر أيضا في الحركية الاجتماعية وإنتاج الزعامات وبناء العينية، فالمجال ليس مجرد معطى جغرافي، بل هو مجال سياسي لصوغ العلاقات وإنتاج الوضعيات الاجتماعية، وعليه فكل تحول في تدبير المجال لا بد وأن ينسحب على مجموع العلاقات والبنيات الاجتماعية للقبيلة. ومنه نقول بأن الانتقال من الخيمة إلى النوالة، لم يكن ليعبر فقط عن تطور عادٍ من واقعة الترحال إلى الاستقرار، بل يدل على تحولات عميقة في مبنى ومعنى الحياة المجتمعية لقبيلة الرحامنة.

و في الأصل فإن أراضي الجموع تمتلكها جماعات سلالية تقوم بتسييرها حسب الأعراف السائدة لديها، فهي لا تملك ولا تباع ولا تحجز، بل هي أراضي تنتفع منها الجماعات السلالية، ويقصد بالانتفاع استغلال الأراضي مدى الحياة من طرف ذوي الحقوق، زراعيا أو رعويا أو عن طريق الكراء وهو شكل حديث من الانتفاع.

أنظر: عبد الكريم بالزاع، أراضي الجموع: محاولة لدراسة بنيتها السياسية والاجتماعية ودورها في التنمية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1998.ص.22.

[120] معلومات مأخوذة من المديرية الإقليمية للفلاحة بإقليم قلعة السراغنة.

الفصل الرابع:

المجال والإنسان
التملك وإعادة البناء

ما المبرر الداعي إلى قراءة جغرافيا الرحامنة؟ وما الذي يمكن استخلاصه من خلال القراءة الوصفية الأولية لهذا المجال الجغرافي؟ وهل من تأثير للانتماء الإيكولوجي في تحديد البنيات الاجتماعية للقبيلة؟

إن التساؤل عن المجال ينطوي على هدف قياس جملة من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي بصمت مسار القبيلة، خصوصا وأن الارتباط بالمجال يتجلى في التفاعل معه عبر أنشطة متعددة، تتجاوز ما هو اقتصادي فلاحي إلى ما هو سياسي وثقافي يحدد اشتغال القبيلة وعلاقاتها الداخلية والخارجية. فهذا المجال لم يكن بالمرة معزولا عن الإنسان الذي "يمتلكه" أو يعيش فيه ويتفاعل فيه اجتماعيا وسياسيا، بل وينتج فيه وعليه علاقات ومؤسسات دالة عليه، ومحددة لهويته وامتداده التاريخي.

يعبر المجال بقوة عن آليات الضبط الاجتماعي، بل إنه يؤسس لرهاناته واستراتيجياته المركزية من خلال دينامية الفعل التي تؤطره، بحيث يصير كل مجال معبرا بالضرورة عن طبيعة العلاقات الاجتماعية وخصوصية الصراع وباقي ملامح الفاعلية الاجتماعية التي تعتمل في رحابه، ومن هنا تتبدد مقولة "**حياد المجال**"، وتتأسس تبعا لذلك إمكانات التأثر بالضبط الذي تمارسه القوى المالكة لوسائل الإنتاج والإكراه في المجتمع. "فليس هناك مجال لا يتم إنتاجه اجتماعيا، كما أنه ليست هناك علاقة اجتماعية لا تعبر عن نفسها في المجال"[121]، وبذلك يغدو المجال مفسرا للتراتب الاجتماعي والتفاعل السياسي والثقافي.

---

[121] بيير بورديو، الخياطة الرفيعة والثقافة الرفيعة، في: مجموعة من الباحثين، تساؤلات الفكر المعاصر، ترجمة: محمد سبيلا، منشورات الزمن، سلسلة ضفاف، الرباط، الطبعة الأولى، 2009.ص.25.

أولا: الظروف الطبيعية:

تتكون تضاريس[122] منطقة الرحامنة من كتلة قديمة مشرفة على الهضاب في الشمال، وهضبة الكنتور في الجنوب، هذا بالإضافة إلى سهل البحيرة وسلسلة الجبيلات الوسطى التي يتراوح عرضها بين 10 و20 كلم. فالكتلة القديمة بشمال المجال الرحماني تتكون من تراصفات ممتدة على عدة كيلومترات من العوارض الكوارتزية البالغة علو 700 متر والتي تفصل بين مساحات شيستية عريضة سطحتها التعرية.

أما هضبة الكنتور التي تمتد جنوبا، والتي تشتهر بتوفرها على احتياطي مهم من الفوسفاط، فهي عبارة عن شريط مستعرض شبه مستو، يتراوح عرضه بين 10 و20 كيلومتر، ويتكون من كلس الكريتاسي والأيوسين، في حين يعد سهل البحيرة في الأصل أخدودا بنيويا مطمورا بالطمي وباقي الإرسابات الحديثة. في الجنوب نجد سلسلة الجبيلات التي عرفت تعرية انتقائية خلقت ممرات واسعة تخترق هذا الحاجز من الشمال إلى الجنوب، لكن طياتها العميقة مرفوعة بحركات بنائية حديثة نسبيا كانت وراء الطابع الجبلي الحقيقي حيث تتعدى بعض القمم ارتفاع الألف متر.

يتميز مجال الرحامنة بمناخ قاري جاف متأثر برياح الشركي صيفا، حيث ترتفع درجات الحرارة خلال الصيف وتنخفض في فصل الشتاء، حيث تصل درجة الحرارة الدنيا 4 درجة س، أما درجة الحرارة العليا 40 درجة س، فيما التساقطات المطرية الدنيا تصل إلى حدود92.80 ملم والتساقطات المطرية العليا 469 ملم، وعلى العموم فمناخ الرحامنة "يتسم بقلة التساقطات وعدم انتظامها خلال الفصل المطير، كما يتسم فصل الصيف بالطول والحرارة المرتفعة"[123]، فعدد الأيام المطرة لا يتجاوز أربعين يوما في السنة.

إن ما يمكن استخلاصه من القراءة الأولية لهذا المجال الجغرافي ذي الإمكانيات الطبيعية المتواضعة أو المحدودة في مطلق الأحيان، هو احتمال تأثير هذه الوضعية على السلوك الاقتصادي للساكنة، وذلك في مستوى تراجع النشاط الزراعي في مقابل ارتفاع النشاط الرعوي، وانتقال ذلك تأثيرا إلى مستوى الاستقرار ونسبة الكثافة السكانية. فكيف تفاعل الإنسان الرحماني مع هذا المجال؟

---

[122] لإنجاز هذا الفصل تم الاعتماد على مجموعة من الوثائق نذكر منها: وثائق المديرية الإقليمية للتجهيز والمديرية الإقليمية للفلاحة بقلعة السراغنة، مونوغرافية إقليم قلعة السراغنة، مونوغرافية بلدية بن جرير، مونوغرافية سيدي بوعثمان، فضلا عن مادة الرحامنة ضمن معلمة المغرب.

[123] عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن ، مرجع سابق.ص.87.

وكيف دبر علاقته به؟ وما الذي انعكس واقعيا في تدبير وإنتاج هذه العلاقة؟ هذه أسئلة تطرحها القراءة الأولية للمجال، وعلى البحث في مراحل متقدمة أن يجيب عنها.

ستنعكس الوضعية التضاريسية والمناخية للمنطقة على التربة والغطاء النباتي[124] والموارد المائية، وهو ما يمتد بدوره إلى مختلف الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية للإنسان الرحماني، فالرعي كنشاط أساسي في هذا المجال هو نتيجة محتملة لتفاعل معطيات هذه الوضعية، لهذا لم تكن الزراعة إلا نشاطا محدودا وتكميليا بالنسبة للرحامنة، ولعله سبب آخر من أسباب تأخر الاستقرار والاستمرار في الترحال إلى حدود القرن التاسع عشر.

بالرغم من تموقع الرحامنة ما بين "النهر والنهر"(تانسيفت وأم الربيع)، فإن الاستفادة من مياههما تظل متواضعة جدا ومقتصرة فقط على الأراضي المجاورة لهما، علما بأنه يلاحظ غياب أي تصريف مائي سطحي منتظم داخل الرحامنة. أما المياه الجوفية فتظل بدورها غير كافية أو منعدمة أو يعسر الوصول إليها بحكم عمق الفرشة المائية، تماما كما هو الأمر بالنسبة لسهل البحيرة الذي مكنته تكويناته الرسوبية من اختزان أهم الموارد المائية، التي يصل عمقها في بعض الأحيان إلى حوالي 100 متر.

ولعل هذا ما يجعل من الرعي وتربية الماشية النمط الفلاحي الأكثر انتشارا في المنطقة، فالمساحة القابلة للزراعة "لا تتعدى في أحسن الأحوال نسبة 40٪ وتنحصر بالأساس في شريطين بأقصى الجنوب وأقصى الشمال الغربي"[125]، فالزراعات التي تنتشر أكثر بالمنطقة هي الحبوب، والشعير منها بدرجة أعلى، لأنه يستطيع "مكابرة البرودة ومصابرة العطش" فضلا عن القمح، وذلك في المناطق البورية، أما في المناطق السقوية، الضيقة المساحة، فهناك زراعات للفول والذرة والشيبة التي تشتهر بها الرحامنة الشمالية.

---

[124] تنتشر بالرحامنة بعض النباتات والأشجار التي تتعايش مع الظروف المناخية القاسية، كالكلخ(البرواك) والسدر والعناب والدفلى والطرفاء والقصب قرب النهرين(تانسيفت وأم الربيع)، فضلا عن الصبار الذي ينتشر بكثافة في المجال الرحماني. ويفسر التراجع المستمر للغطاء النباتي، ولو في مستوى السدر والعناب، ليس بسبب الظروف المناخية فقط، ولكن أيضا بسبب ظاهرة "التجذار" التي تعني الحفر في الأرض بحثا عن جذور السدر، من أجل توفير الحطب الذي كانت تطالب به القبيلة من طرف المخزن. فالبرغم من عدم توفر الرحامنة على غطاء غابوي، فإنه كان مطلوبا منهم توفير ما يناهز 10600 حملا من الحطب سنويا لفائدة "الكشينة السعيدة".

أنظر: عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، مرجع سابق،ص.78.

[125] عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن(الكتاب)، مرجع سابق، ص.88.

وبسبب تعذر ممارسة الزراعة السقوية في مجموع الرحامنة، فإن تربية الماشية كانت بديلا وامتدادا أيضا لتاريخ القبيلة، ولهذا فقد عرفت القبيلة، منذ استقرارها بالحوز، بالرعي والانتجاع، لقد اشتهرت بنشاط تربية الماشية الذي كان "يعتمد إلى حدود العشريات الأخيرة، من القرن التاسع عشر، على الإرعاء الحر ونمط نصف الترحال أو الانتجاع، سواء داخل المراعي الإقليمية التي كانت كلها تقريبا جماعية، أو في مراعي الإقليم المجاورة وحتى البعيدة"[126].

ثانيا: إعادة بناء المجال:

لكن قراءة هذا المجال في هذا "الهنا والآن" فهي مختلفة كليا أو جزئيا عن قراءته خلال مغرب القرن التاسع عشر، أو أثناء الفترة الاستعمارية، فالقراءة التي نقترحها معنية بشرط تاريخي آخر، تم فيه الانتقال "رمزيا" من المخزن إلى الدولة، ومن معطى "القبيلة" إلى الإقليم كوحدة ترابية وليس قبلية. فالدولة باتت في مستوى هذه القراءة منتجة لهذا المجال ومتحكمة فيه عبر آلية التقسيم الإداري.

فإذا كانت القبيلة والسلطة المخزنية مضافا إليها علاقات المد والجزر مع القبائل المجاورة، كلها عناصر مساهمة في إنتاج المجال وتدبيره قبلا، فإنه يمكن القول بأن عملية التحديد والترسيم والإنتاج وإعادة الإنتاج صارت اليوم تحمل توقيع الدولة وليس القبيلة.

وهنا لا بد من التساؤل عن غائية التقسيم الإداري الذي جاء به المستعمر أولا وطبقه المغرب المستقل بعدا، هل كان الغرض هو استحداث آليات جديدة لتدبير المجال؟ أم كان الهدف "تدمير" البنيات التقليدية، أملا في الانتقال من زمن القبيلة إلى زمن الجماعة والدائرة والإقليم؟

تجيبنا رحمة بورقية بالقول بأن "الغاية من التقسيم الترابي هي القضاء إداريا وعاطفيا على الإطار القبلي كنموذج تقليدي للتنظيم الاجتماعي، وتعويضه بتنظيم جديد يستجيب لمقتضيات الحداثة"[127]، لكن هل بإمكان هذا التنظيم الجديد القضاء نهائيا على رسوخ الخطاطات التقليدية المميزة للمجتمع المغربي؟

بالطبع لقد تم استبدال الإطار القبلي بالإطار الترابي، لكن وبالرغم من ذلك، فإن الانتماء إلى القبيلة أسبق على الانتماء إلى الوطن، وما زال المواطن المغربي يشهر هويته القبلية قبل موطنه

---

[126] عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن، نفس المرجع. ص.88.

[127] رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع: دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1991.ص.120.

المجالي المديني أو القروي. "فللقبيلة آثار بارزة في بعض أنماط السلوك، وفي بعض رموز الانتماء ومركز الولاء"[128]. فإذا كانت القبيلة تختفي على مستوى الخطابات، فإنها تحضر بقوة على مستوى العلاقات والممارسات، وهو ما يؤدي إلى إنتاج و تجذير خطاطة "**مؤسسات عصرية بعلاقات وممارسات تقليدية**".

لاحت المراهنة على التقسيم الترابي المقرونة بإهمال المعطى القبلي في إلحاق الرحامنة بإقليمي مراكش وقلعة السراغنة، بالرغم من غياب تجانس عرقي أو ثقافي يحدد ويبرر هذا الإلحاق، ففي مغرب الاستقلال، وفي إطار عملية التقسيم الترابي للأقاليم والعمالات ألحقت منطقة الرحامنة أولا بإقليم مراكش، ثم ألحقت بعدا سنة 1973 بإقليم قلعة السراغنة، وكانت حينها تتوزع على دائرتين وهما دائرة الرحامنة ودائرة سيدي بوعثمان. ليستمر هذا الوضع إلى غاية الثاني والعشرين من يناير 2009 التي تم فيه الإعلان عن إحداث أقاليم وعمالات جديدة يوجد ضمنها إقليم الرحامنة.

ينقسم هذا المجال ترابيا إلى 21 جماعة قروية (سيدي غانم، سيدي عبد الله، سيدي منصور، سكورة الحدرة، أيت طالب، بوشان، تزمرين، أيت حمو، البريكيين، الجعافرة، أولاد حسون الحمري، سيدي علي البراحلة، نزالة لعظم، أولاد ملول، المحرة، عكرمة، سيدي بوبكر، الطلوح، جعيدات، رأس العين، بوروس) ومركزين حضريين(صخور الرحامنة وسيدي بوعثمان) وبلدية واحدة(بن جرير)، تتوزع كلها على سبع قيادات وهي: سيدي بوعثمان، لوطا، رأس العين، لبريكيين، بوشان، صخور الرحامنة وأولاد تميم.

عموما فالرحامنة يتم تقسيمها جغرافيا، إلى الرحامنة الشمالية والتي تتوزع على صخور الرحامنة وأولاد تميم، والرحامنة الوسطى التي تمتد على بن جرير والبريكيين، فيما الرحامنة الغربية تضم منطقة بوشان والرحامنة الجنوبية تمتد على سيدي بوعثمان وراس العين ولوطا.

ويلاحظ من خلال التسميات التي أطلقت على هذه الجماعات والقيادات أنها سارت في اتجاه استبدال المعطى القبلي بوافد ترابي يتأسس على "علامات"[129] مجالية اقتصادية أو دينية، كربط تسمية المجال بسوق أسبوعي (سبت البريكيين) أو ولي صالح (سيدي علي البرحلة) أو موقع عبوري (نزالة لعظم)، وذلك على درب استنبات الجماعة الحضرية أو القروية ضدا على القبيلة التقليدية.

---

[128] رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع، نفس المرجع.ص.121.

[129] يمكن القول مغربيا بأن المواقع تأخذ أسماءها من شخصيات عاشت بها، بسبب قوتها ونفوذها، كما تتخذ التسمية أحيانا أساسا جغرافيا أو قبليا له، وبذلك نلاحظ أن القراءة الأماكينية Toponomie تقودنا إلى اكتشاف انبناء التسميات بالرحامنة تحديدا على أساس شخصيات دينية أو مخزنية ومعطيات جغرافية وأخرى قبلي ومهام تاريخية ومواقع استراتيجية.

لقد تم تكسير البنيات القبلية عبر استحداث مؤسسات بديلة واعتماد مبدأ اللاتجذر الاجتماعي لصناع القرار في الزمن المحلي، فالقائد لا ينتمي إلى القرية، والشيخ والمقدم يرتبطان أكثر بمورد الرزق والسلطة الذي هو القائد أكثر من ارتباطهما بالجماعة، كما أن المؤسسة الانتخابية التي جاءت لتعوض "اجماعة" في إطار عملية التحديث السياسي والاجتماعي، والتي هي المجلس القروي، تظل أكثر التصاقا بسلطة الوصاية أي وزارة الداخلية، أكثر من انشغالها بقضايا المجتمع المحلي، ومن الطبيعي أن يقود منطق التكسير والاستبدال هذا! إلى إفراغ الجماعة الأصلية من محتواها، وتجريدها من مهامها العضوية واختزالها في التدبير الفولكلوري أو التسويقي لقرارات الدولة ومصالح الأعيان.

"لقد تقلصت الجماعة ولم تحافظ إلا على بعض أدوارها العرفية البسيطة كالسهر على التبادل الاقتصادي المحلي أو التدخل في بعض النزاعات الفردية، وجردت من كل أدوارها لتندثر وتفسح المجال لنظام جديد آخذ في التبلور"[130]. لقد تم استحداث نظام الجماعات القروية والبلدية، الذي جاء بالجماعة المنتخبة والواقعة تحت وصاية القيادة أو المقاطعة، ووزارة الداخلية في النهاية، بديلا للتدبير التقليدي والعفوي للمشترك المجتمعي، بقوة القانون "ماتت" "اجماعة" و"القبيلة"، لكنها بالرغم من ذلك استمرت في التعبير عن حياتها وفعاليتها المحدودة في أكثر من مناسبة وعلى أكثر من صعيد.

يمتد مجال الرحامنة على 5856 كلم مربع، وكانت هذه المساحة تمثل ما يقارب 59 بالمائة من المساحة الإجمالية لإقليم قلعة السراغنة (لما كان تابعا لقلعة السراغنة). وهو مجال يقطنه وفقا لنتائج الإحصاء الوطني العام للسكان والسكنى لسنة 2004 ما مجموعه 288 437 نسمة، يشكل القرويون منهم نسبة 80 بالمائة. كما أن الكثافة السكانية بالرحامنة لا تتجاوز 37 نسمة في الكيلومتر الواحد، وذلك في حدود المتوسط الأعم، لأنه مع ذلك تظل مناطق مهمة تعرف فراغات سكانية كبيرة، خصوصا في الجزء الشمالي. إلا أنه مقارنة مع بدايات القرن العشرين، يمكن القول بأن ثمة تحولات ديموغرافية ومجالية باتت تعرفها الرحامنة، وهي تحولات لا تنفصل عن مجموع ما عرفه المغرب من تراجع للمجال القروي أمام المجال المديني، وارتفاع متباين لعدد السكان وهو ما يمكن اكتشافه بجلاء من خلال قراءة الجدول التالي:

[130] Paul Pascon, Désuétude de la jmaa dans la Haouz de Marrakech, BESM. N: 155-156, janvier 1986, p.190.

تطور عدد السكان بالرحامنة

	1960	1971	1982	1994	2004
بلدية بن جرير	-	6941	22354	47080	693 62
مركز سيدي بوعثمان	-	-	-	2872	426 12
مركز صخور الرحامنة	-	1550	2400	3526	989 9
المجال القروي	-	215410	208486	213053	203329
عدد الأسر في مجموع الرحامنة	30733	34454	29674	30769	33421
المجموع	165288	216964	233240	266531	437 288

المصدر: الموقع الإلكتروني للمندوبية السامية للتخطيط:www.hcp.org.ma

يفيد هذا الجدول في قراءات متعددة للنمو الديموغرافي بالمجال الرحماني من جهة، والانتقال من زمن القرية إلى زمن المدينة من جهة ثانية، كما يسعف في موضعة هذه التحولات الديموغرافية والمجالية. فمدينة بن جرير، أقدم وأكبر تجمع حضري بالرحامنة سوف تعرف نموا ديموغرافيا عاليا ما بين سنة 1971 و2004، فمن 6941 نسمة إلى 62693 نسمة وبزيادة دالة تقارب عشر مرات. وهو ما يفسر بتحول بن جرير إلى منطقة جذب، في إطار الهجرات الداخلية التي تواترت خلال السنوات الأخيرة بسبب الجفاف.

و إذا كان غريغوري لازاريف يؤكد أن النمو الديموغرافي كان أيضا من بين الأسباب الرئيسة المسؤولة عن التحولات الكبرى في البوادي المغربية[131]، فإن المجال الرحماني لم يشذ بدوره عن ذلك، بل عرف نموا ديموغرافيا متسارعا، كان من نتائجه إحداث تغييرات مجالية اتسمت في مناطق متفرقة من الرحامنة **بظاهرة الفراغات السكانية**[132]، وفي أخرى بالكثافة السكانية وتواتر الهجرات خصوصا في اتجاه المراكز الحضرية الكبرى بالرحامنة كبن جرير وصخور الرحامنة وسيدي بوعثمان.

تفيد قراءة الجدول السابق بأن مجموع سكان الرحامنة قد انتقل من 165288 نسمة إلى 288437 نسمة خلال نحو 44 سنة، وهو انتقال يبدو متواضعا، لا يؤكد ما ذهبنا إليه بشأن ارتفاع النمو الديمغرافي بهذا المجال، فطيلة هذا السنوات لم يتزايد السكان إلا بـ 123149 نسمة، إلا أنه

---

[131] Grigori Lazarev, Changement social et développement, op.cit. p.22.

[132] تؤكد معطيات الإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 2004 أن هناك تراجعا كبيرا في نسبة الساكنة القروية في ظرف عشر سنوات من 49٪ إلى 45٪. وتشير التوقعات الإسقاطية إلى أن هذا التراجع سيستمر إلى حدود 39 مليون نسمة خلال سنة 2025، وتعد الهجرة نحو المراكز الحضرية الكبرى من أهم عوامل هذا التراجع الذي يترجم في حالات الإفراغ السكاني الذي يبدو حاد بالمناطق الجافة والجبلية.

بالنظر إلى ما عرفته قبيلة الرحامنة من هجرات قوية باتجـاه المـدن الكـبرى، بـسبب تـوالي سـنوات الجفاف، وهجرات أخرى(أو تهجيرات) باتجاه الأقاليم الجنوبيـة للمـشاركة في الاسـتفتاء الذي كان مزمعا تنظيمه بالصحراء، فكل ذلك يبرر الفراغات الـسكانية الملحوظـة أساسـا بعـدد مـن جمـاعات الرحامنة كالطلوح وبـوروس وراس العـين وعكرمـة والجعيـدات ولمحـرة وبوشـان وتزمـرين.. وهي الجماعات التي تقطنها فخدات من البرابيش وولاد دليم ويكوت بالدرجة الأولى.

ومع ذلك فإن الانتماء المجالي القروي ما زال الأكثر حضورا في الرحامنة بالرغم من نمو المراكز الحضرية الجديدة(صخور الرحامنة، سيدي بوعثمان)، فما بين السبعينيات وبداية الألفية الثالثة لم تحدث تغيرات عميقة في مستوى تراجع الساكنة القروية، فمن 216964 نسمة سنة 1971 إلى 203329 نسمة سنة 2004 بنسبة تراجع لا تتجاوز 6,28 بالمائة، الشيء الذي يؤكد أن الرحامنة ما زالت مجالا قرويا بامتياز بالرغم من كافة التحولات الترابية والديموغرافية التي عرفتها.

إلا أن ما يميز المجال الرحماني هو الضعف المسجل في مؤشرات التنمية، فيكفي أن نعرف أن هناك 13 جماعة قروية بالإقليم تسجل بها نسبة عالية للفقر تفوق 30 بالمائة[133]، وأن هناك 11 جماعة قروية تسجل بها نسبة فقر تتراوح بين 20 و30 بالمئة، فضلا عن كون ثمان جماعات تعرف نسبة نمو ديموغرافي ضعيفة جدا، وهو ما ينطبق على نحو 11 جماعة أخرى تتراوح نسبة نموها الديموغرافي ما بين 0 و0،6 بالمائة، وهو ما يفسر الفراغات السكانية التي تميز المجال الرحماني.

من جهة أخرى يلاحظ أن نسبة الأمية في إقليم الرحامنة تصل في الوسط الحضري إلى 35 بالمائة، وفي الوسط القروي ترتفع إلى 67،71 بالمائة، وترتفع أكثر في شمال الرحامنة إلى 69،5 بالمائة. كما أن 13 بالمائة من الأطفال في سن التمدرس لا يلتحقون بالمدرسة، و43 بالمائة من الذين يسجلون بالسنة الأولى من التعليم الابتدائي هم الذين يتحصلون على شهادة نهاية الدروس الابتدائية. وارتباطا بذات السياق فإن 37 بالمائة من التلاميذ المسجلين في السنة الأولى من التعليم الإعدادي هم الذين يمرون إلى التعليم الثانوي، و8 بالمائة فقط هم الذين يستطيعون استكمال دراستهم في المستوى الثانوي، وهو ما يدل على أن نسب الانقطاع والهدر المدرسي تظل أكثر ارتفاعا بالرحامنة.

من ناحية المعطيات الصحية فالرحامنة تتوفر على طبيب لكل 10300 نسمة (مقابل 9300 نسمة على الصعيد الوطني)[134]، وعلى ممرض لكل 3900 نسمة، وعلى إطار صحي لكل 900 نسمة، وهو ما ينعكس على صحة الأم والأطفال تحديدا، فنظرا لمحدودية التأطير الصحي وبعد الدواوير وقلة سيارات

---

[133] مونوغرافية إقليم الرحامنة، 2010.

[134] مونوغرافية إقليم الرحامنة، 2010.

الإسعاف أو عدمها[135]، فإن الرحامنة ما زالت تسجل بها نسب عالية على مستوى وفيات الأمهات أثناء الوضع، وتسجل بها أيضا نسب عالية للوفيات بسبب لذغات العقارب والأفاعي.

لكن السؤال الذي ما زال مطروحا لحد الآن، والذي كان محركا لاشتغال هذه الفصول السابقة، فهو متصل بالأساس بعلاقات التأثير والتأثر بين الإنسان والمجال، والتي تجد ترجمتها الواقعية في النظم والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية التي تنشأ على إثر ذلك.

والواقع أن الانخراط في هذا النوع من البحث ليس حديثا بالمرة، بل إنه انتظم في كثير من المشاريع العلمية تحت باب الإيكولوجيا البشرية، كما أنه استعمل في إطار دراسات تاريخية وسوسيولوجية مغربية جعلت من البحث في المجال منطلقا للتفكير في الإنسان، أي الانطلاق من المجال لمساءلة وقراءة البنيات السوسيوسياسية، مرورا بكل مظاهر الفاعلية المجتمعية التي تهم المعمار واللباس والطقوس والممارسات والتراتبات وأشكال العلاقات والتفاعلات مع السلط الرمزية والمادية، "فالمجال كمعطى سكوني وراسخ لا وجود له"[136]، لهذا لم يكن السؤال عن المجال في جغرافيته إلا على سبيل الاكتشاف لما يفوقه درجة في الترتيب الاجتماعي وليس الإيكولوجي.

سيعرف المجال الرحماني تحولات كبرى مع بروز الظاهرة القائدية ودخول نظام التحفيظ العقاري، اللذان سيسمحان معا بإعادة بناء التراتبات الاجتماعية وتغيير معطيات المجال، كما أنه خلال الفترة الاستعمارية، ستنطلق بدايات التمركز الحضري، وذلك مع تشييد القاعدة العسكرية سنة 1942 على بعد حوالي 12 كيلومتر من بن جرير، والتي اعتبرت حينها، وما زالت، أكبر قاعدة عسكرية بالمغرب.

اكتشاف مادة الفوسفاط قريبا من بن جرير، سيؤثر مرة أخرى في المجال الرحماني، ففي سنة 1965 ستنطلق أولى الدراسات الاستكشافية التي ستتوج ببدء الاستغلال المنجمي سنة 1974.

---

[135] تتوفر الرحامنة على 5 سيارات إسعاف تابعة لوزارة الصحة و3 سيارات أخرى منحت للإقليم في إطار المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، وضعت رهن إشارة جماعات سيدي بوعثمان، نزالة لعظم واولاد حسون الحمري، وعموما فالبنية الصحية بالإقليم تظل متواضعة للغاية فهناك فقط: مستشفى محلي بسعة 45 سرير، و4 مراكز صحية حضرية و6 مراكز صحية قروية بعضها يتوفر على وحدات للولادة، و18 مركز صحي جماعي و4 مستوصفات قروية، ويعمل في هذه البنيات 28 طبيبا من بينهم 6 أطباء مختصين و84 ممرض.

أنظر: مونوغرافية إقليم الرحامنة، 2010.

[136] رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع: دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب، مرجع سابق.ص.135.

يضاف إلى هذا المعطى توالي سنوات الجفاف بالرحامنة، والتي أحدثت فراغات سكانية كبيرة، بسبب تواتر الهجرات نحو بن جرير وباقي المدن الكبرى، وهي هجرات لا ترتبط فقط بفترة الثمانينيات من القرن الماضي، بل تعود إلى سنوات الأربعينيات التي كان يستدل عليها مغربيا بعام "البون"[137].

منذ منتصف السبعينيات من القرن الفائت، على الأقل، عرف المجال الرحماني تحولات كبرى، مست مختلف البنيات الاجتماعية، ما انعكس أيضا على التمظهرات الاقتصادية للأعيان، الذين سوف تتجه ممارساتهم، تدريجيا، نحو منافذ جديدة، فاكتشاف الفوسفاط[138] بالمنطقة والشروع في استغلاله ابتداء من 1980، سيجعل مالكي الأرض الذين استفادوا من تعويضات مهمة لقاء تخليهم عن أراضيهم التي اكتشف فيها الفوسفاط، يغيرون من أدائهم الفلاحي، وينتقلون بالتالي إلى أنشطة اقتصادية أخرى، في المراكز الحضرية التي بدأت في البروز والتوسع، تماما كما هو الأمر بالنسبة لسيدي بوعثمان وبن جرير وصخور الرحامنة.

إن البدء في استغلال الفوسفاط، سيجلب معه "البراني"، الذي سيكون له سكنه الخاص قريبا من بن جرير، وهو ما سمي بحي مولاي رشيد أو حي الفوسفاط، إن مقولة "البراني" في مقابل "ولد البلاد" ستتحول إلى زوج تقابلي مؤثر في صياغة كثير من التمثلات والتمثلات المضادة داخل المجال الرحماني. فالبراني هو الذي "تا تعطيه البلاد" وهو الذي يفيد من خيراتها، فيما "ولد البلاد" هو "اللي ما عندو زهر".

لم تكن التحولات الاقتصادية والاجتماعية مرتبطة فقط باستغلال الفوسفاط، بل كانت لها أيضا علاقات أخرى بالتأثير الذي أحدثه قبلا تشييد أكبر قاعدة عسكرية بالمغرب، ومرور الطريق الوطنية رقم 9 الرابطة بين الدار البيضاء ومراكش عبر المجال الرحماني، وما تواصل بعدا من تأثيرات أخرى سلبية لإنشاء الطريق السيار الرابط بين الدار البيضاء ومراكش.

يقول عبد الجليل حليم بأنه "نتيجة للتدخل الاستعماري، تحول المغرب من مجتمع شبه طبقي إلى مجتمع طبقي، وهو تحول صاحبته مجموعة تغيرات على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية...، الشيء الذي كان له أثر على حياة المجتمع بأكمله، انطلاقا من تغيير القوانين

---

[137] تحيل على سنوات الأربعينيات التي شهدت اندلاع الحرب العالمية الثانية، وتوالت فيها سنوات الجفاف وانتشرت فيها المجاعات، وتشير الكثير من الأبحاث إلى أن سنة 1944 تحديدا، كانت بالضبط "عام البون"، حيث كان الطعام حينئذ مقننا يقدم عن طريق "بون" أي وصل.

[138] يفوق الإنتاج 5 مليون طن سنويا، ويوجه خاما إلى أسفي، عبر خط السكة الحديدية الرابط بين بن جرير وأسفي مرورا باليوسفية، ويشكل فوسفاط الرحامنة ما يناهز 9 بالمائة من الاحتياطي العام المغربي من هذه المادة، ويتميز بسهولة استغلاله، لأن الأمر يتعلق بمنجم مكشوف.

الموجودة وتعويضها بقوانين جديدة تخدم تطور الرأسمال، وانتهاء بتأثير يشمل أنماط التفكير والاستهلاك"[139].

إن انتشار النقد وانتفاء المقايضة أديا إلى تنقيد العلاقات الاجتماعية، وتراجع الاقتصاد العائلي وإعلاء واقعة العمل المأجور، كما أن التركيز العقاري وآليات الاستحواذ على الأراضي، ستسهم في تغيير البنية الاجتماعية القروية، عبر خلق تراتبات جديدة، وتسريع وتيرة الهجرة باتجاه المدن، وهو ما ستكون له آثار واضحة على مستوى التضامنات الجماعية التي ستتعرض للتراجع في مقابل "بروز الفرد"، والاتجاه نحو الانتقال من إنتاج الكفاف إلى إنتاج السوق. لكن تركيزنا على سنوات السبعينيات بالضبط، له ما يبرره محليا، بالاتساع الذي بدأت تعرفه المراكز الحضرية بالمجال الرحماني، وظهور عدد من الأعيان كفاعلين اقتصاديين وسياسيين في هذه السنوات.

إذا كان اكتشاف الفوسفاط قد ساهم في إغناء البعض من صغار الفلاحين، بحكم التعويضات التي منحت لهم جراء نزع الملكية من أجل المنفعة العامة، فإن الإستفادة كانت أكبر بالنسبة لعدد من الأعيان، الذين علموا بحكم قربهم من "المخزن" أن ثمة تغيرات قادمة لا محالة، ولهذا انطلقت عملية شراء الأراضي في هضبة الكنتور من صغار الفلاحين الذين اضطروا للهجرة إلى المدن الكبرى، أو التحول إلى فلاحين بلا أرض، ولهذا كانت تعويضات نزع الملكية من نصيب الأعيان بدل أن تكون من نصيب صغار الفلاحين.

إن من أبرز هذه التحولات التي عرفها المجال الرحماني، انتقال الكثير من الأعيان إلى "الفيلاج" برساميلهم الرمزية والمادية، ودونما تفريط بالطبع في أصل البدء والامتداد، الذي هو الدوار، "فالأعيان يعيشون على أراضيهم، وإذا غابوا عن القرية أو القبيلة، حافظوا على روابط قوية معها"[140]. إن هذا الانتقال سيجعلهم ينتقلون من امتلاك الأرض الفلاحية إلى امتلاك الأرض العقارية الخاصة بالبناء والتعمير. فالمضاربات العقارية، تعد النشاط الاقتصادي الثاني لغالبية الأعيان. بل إن الاستثمار في العقار عموما يظل المجال الأكثر أهمية ومردودية بالنسبة لأصحاب المال بالمغرب، إنهم لا يغامرون في أنشطة غير مأمونة أو ترتفع فيها نسبة المخاطرة، لهذا نلاحظ أن الاتجار في التجزئات الأرضية سيكون مآلا مهنيا ونشاطا تكميليا أو أساسيا لنسبة هامة من الأعيان.

إن أغلب الأعيان يمتلكون مقاه بالمراكز الحضرية للرحامنة، وهي مقاه متفاوتة من حيث التجهيزات والخدمات تبعا للموقع والغاية من الاستثمار فيها، لكن الشروع في استعمال الطريق

---

[139] عبد الجليل حليم، التدخل الاستعماري والحركية الاجتماعية، مرجع سابق. ص.15.
[140] عبد الله حمودي، الشيخ والمريد، مرجع سابق.ص.58.

السيار الرابط بين البيضاء ومراكش، سيكون له بالغ الأثر على هذه المقاهي التي تخصصت طويلا في شواء اللحوم لفائدة مستعملي الطريق الوطنية رقم 9، والتي تفيد إحصائيات وزارة النقل(سنة2006) أنها كانت تعرف مرور ما يناهز 50 ألف وسيلة نقل في اليوم، وهو ما كان يسهم في توفير فرص شغل ومداخيل مهمة لأهم المراكز الحضرية بالرحامنة.

لكن مع انطلاق العمل بهذا الطريق السيار، فإن عدد وسائل النقل المارة من معبر الرحامنة تضاءل إلى أقل من 20 ألف وسيلة نقل في اليوم، وهو ما أثر فعلا على هذه المقاهي التي لم تجد بدا من الإقفال أو تغيير نشاطاتها. فمن أصل نحو 47 مقهى كانت متخصصة في الشواء، على الطريق الرئيسية، بمدينة بن جرير لم تعد هناك سوى مقاه محدودة، وهو ما يعني أن نسبة المداخيل قد تراجعت أو انتفت.

و لهذا لم يكن غريبا أن يأخذ الاحتجاج الاجتماعي على هذا الإهدار منحى إجراميا، وذلك في بدايات استعمال هذا الطريق السيار[141]، إذ كثيرا ما عانى مستعملو الطريق السيار من أشخاص يقومون بإسقاط الحجارة على سياراتهم من فوق القناطر المبنية، أو وضع الأحجار في وسط الطريق لإرغام السائقين على "عدم الثقة" في الطريق السيار، والعودة إلى استعمال الطريق الوطنية رقم 9.

إلا أن المتضرر في النهاية هم صغار المستخدمين وليس الأعيان، فهؤلاء يعرفون جيدا كيف يتكيفون مع المستجدات، ومع الاستعداد القبلي لها، ولهذا رأينا كيف أن بعضهم عمد إلى شراء أراضي الفوسفاط، قبل أن ينطلق مسلسل نزع الملكية، وهو ما تكرر أيضا في تعويضات الطريق السيار.

هناك من استفاد أيضا بفضل "عينيته" من رخص نقل ومقالع (مواد البناء والرخام) ومناجم (الزنك والرصاص والبارتين)، مثلما استفاد آخرون من تخفيضات مهمة لشراء بقع بالمنطقة الصناعية ببن جرير وسيدي بوعثمان[142]. كما ظهر في مجموع المجال الرحماني "وارد اقتصادي جديد" أعاد مرة أخرى ثنائية "البراني/ ولد البلاد" إلى الحضور بقوة، وهو بالتحديد ذلك المستثمر الفاسي[143] الذي أطلق

---

[141] أنظرجريدة المساء 6 مارس 2009

[142] تضم المنطقة الصناعية بسيدي بوعثمان وحدات لإنتاج الدقيق والبيض والمعطرات الغذائية والأعمدة الإسمنتية الكهربائية(التي تزود السوق الوطنية بأزيد من 60 بالمائة من هذه الأعمدة) ومواد البناء.

[143] تعود ملكية هذه الوحدات التي تصل إلى 35 وحدة إنتاجية إلى السيد عبد اللطيف الزعيم الملقب بالفاسي(منتمي لحزب الأصالة والمعاصرة، وقد حظي بزيارة ملكية لوحدته الإنتاجية بالبريكيين)، إعلانا من المجتمع المحلي، لعدم تجذره الاجتماعي وانطباق توصيف "البراني" عليه، إلا أن هناك الكثيرون ممن يؤكدون أن هذه الوحدات في ملكية الجنرال حسني بن سليمان وفؤاد عالي الهمة، اعتبارا لترددهما من حين لآخر عليها، وذلك وفقا لإفادات عدد من المبحوثين.

مشاريع كبرى لتربية الديك الرومي، والذي بات يمد السوق الوطنية بأزيد من 80 بالمائة من حاجياتها من اللحوم البيضاء.

لقد ظهرت، منذ بداية الألفية الثالثة، في أغلب دواوير الرحامنة الغربية وحدات إنتاج عصرية لتربية الديك الرومي، تتكون كل واحدة منها من ثلاث حظائر كبرى مجهزة بأحدث التقنيات العصرية، وهي وحدات ترفض في الغالب تشغيل أبناء الرحامنة وتصر على استقدام عمال من خارج المجال.

إن هذه الوحدات الإنتاجية التي تم إحداثها بالقرب من عدد من الدواوير، استجلبت معها "البراني" إلى الدوار، ولم يعد البراني فقط هو ذاك الذي ينوجد بالحاضرة الفوسفاطية أو القاعدة العسكرية، وليس فقط إطارا عاليا أو متوسطا، ولكنه "عامل زراعي" يصل إلى الدوار وليس الفيلاج.

من جهة أخرى يظل السوق في المجال الرحماني معنيا وإلى حد كبير بهذه التحولات الاقتصادية، باعتباره ملتقى اقتصاديا وثقافيا في الآن ذاته، فليست الأسواق الأسبوعية بالمغرب مؤسسات اقتصادية صرفة، إنها مجالات اجتماعية وثقافية وسياسية، تختزل تاريخا من حياة الإنسان والمجال، وترتهن إلى قيم مؤطرة تحدد أدوارها وامتداداتها، فبالرغم من شيوع الأسواق الممتازة في كبريات المدن، وبالرغم من "حالة القرب" التي يلجأ إليها اقتصاديو الاستهلاك، في شأن تقريب المنتجات من سكان المدن والبوادي، فإنه من المستبعد جدا الاستغناء عن السوق الأسبوعي في المتن القروي أو حتى الحضري.

كانت الأسواق وما زالت مجالات اجتماعية لإجراء تبادلات رمزية أكثر منها مادية، فالسوق هو نتاج اجتماعي بالدرجة الأولى، أوجدته القبائل والزوايا والمخزن، لتنظيم المعاملات بين الأفراد والجماعات، وفق أعراف تكاد يلوح في تدبير وإنتاج مختلف هذه الأسواق. فالملاحظ دوما هو كون موقع السوق يخضع لشروط معينة تتوزع على الالتقائية والحياد والقرب من المقدس، ذلك أن أغلب الأسواق هي في مناطق وسطى بين القبائل في حالة الأسواق الكبرى، وبين الفخدات في حالة الأسواق الصغرى، الشيء الذي يضمن عنصر القرب والالتقائية.

من جهة ثانية نجد أن أغلب الأسواق تقع في مناطق "غير ملغمة" بالمشاكل والنزاعات، وبالضبط في مناطق محايدة تستجير في الغالب بالمقدس(زاوية، ضريح، عين أو بئر مقدسة...)، وذلك

ضمانا للأمن والسلم الاجتماعيين، فثمة "قانون ضمني يحرم حمل السلاح في السوق"[144]، باعتباره مجالا يسري عليه منطق "الحرم".

إن ضمان الاستدامة بالنسبة للسوق يكون رهينا بدعم السلطة المركزية وحماية الأولياء والشرفاء والزعامات المحلية، وبدون توافر هذا الدعم فإن السوق لا يكتسب مزيدا من الإشعاع، ولا يستقطب كثيرا من القبائل. إن شروط إنتاج السوق بناء على هذا الترتيب، تفيد في تحديد أدواره ومهامه بالنسبة للقبائل التي تؤمه، فهو، بالإضافة إلى شرطه الاقتصادي المركزي، يعد فضاء للوساطة من أجل حل النزاعات وربط العهود والمواثيق والإخبار والتواصل.

لقد انتهى دافيد هارت في دراسته عن قبيلة بني ورياغل بالريف إلى التأكيد على أن الأسواق الأسبوعية التي تشتهر بها أغلب المناطق المغربية "تؤدي وظائف عديدة في الحياة القبلية باعتبارها مركزا لهذه القبائل على المستوى الاقتصادي والتواصلي والاجتماعي والسياسي"[145].فهذه الأهمية التي تحتلها الأسواق في المجتمع المغربي، كانت سببا رئيسا وراء انشغال كليفورد غيرتز بسوق صفرو، معتبرا "السوق كمؤسسة اجتماعية خاصة مميزة للحضارة المغربية، وذلك بالنظر إلى أبعاده الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المتعددة، فضلا عن مستوياته القبلية والدينية وعلاقاته السلطوية والتراتبية"[146].

فالسوق بالنسبة لغيرتز هو "المؤسسة/ المفتاح" الذي من خلالها نلج إلى تفاصيل المجتمع وشكل ومحتوى التبادلات والتفاعلات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات، ففي السوق نكتشف التبادلات الاجتماعية والإنتاجات الرمزية والمادية، التي يحددها "الحس المشترك والدين والفن والقانون والإيديولوجيا السائدة"[147]. وعليه فعندما نلج إلى سوق الثلاثاء ببن جرير، نكتشف أننا أمام فضاء اجتماعي له من النظم والقواعد والمعايير ما يجعله مؤسسة مركزية في تدبير المشترك، وفي نقل وتبادل الأخبار والإشاعات، فسوق الثلاثاء هو السوق المركزي للقبيلة، الذي يحرص أغلب الأعيان على زيارته وتسجيل حضور دال فيه، بمختلف الصيغ والممارسات.

---

[144] Clifford Geertz, Le souk de Sefrou: Sur l'économie du bazar. Trad. et présenté par Daniel Cefaï. Paris, Bouchène, 2003.p.155.

[145] دافيد مونتغمري هارت، أيت ورياغل: قبيلة من الريف المغربي(دراسة إثنوغرافية وتاريخية) الجزء الأول، ترجمة وتقديم وتعليق: محمد أونيا، عبد الحميد عزوزي، عبد الحميد الرايس، منشورات صوت الديمقراطيين المغاربة في هولندا، الطبعة الأولى، 2005.ص.102.

[146] Clifford Geertz, Le souk de Sefrou, op.cit 2003.p.8.

[147] Clifford Geertz, Le souk de Sefrou, op.cit 2003.p.26.

إن الفهم الذي يقترحه غيرتز للسوق، يندرج في سياق نقاش معرفي حول النظام والمعنى، وعلاقة الاقتصاد بالثقافة، فعن طريق الوصف الكثيف الذي انتصر له، وهو يدرس سوق صفرو، تمكن غيرتز من التحليل الرمزي للنسق الثقافي الذي يميز نظام السوق، ليس كمؤسسة اقتصادية صرفة، بل كمؤسسة اجتماعية متعددة الأبعاد.

أهم الأسواق الأسبوعية بالرحامنة



المصدر: البحث الميداني، 2009

إن أهمية السوق بالنسبة للأعيان لا تتوقف عند مستويات التمظهر الاقتصادي، بل نجدها تتصل بقوة بتدبير الممارسة السياسية في ملمحها الانتخابي، فالسوق يصير خلال الحملات الانتخابية، وقبلها بكثير، أهم قناة تواصلية لحث الناس على التصويت لصالح هذا الشخص أو ذاك.

و ما يعطي للحملة الانتخابية قوتها في رحاب السوق، هو ما يحوزه السوق ذاته من مكانة رمزية في المخيال الجمعي، ففيه توثق العهود غير القابلة بالمرة للنكث، وفيه يكون "إلزام الملحة" عن طريق آلية الإطعام والإنفاق، كما أنه يتيح التواصل مع فئات عريضة من الناخبين، مما يسهل رواج المعلومة بين مختلف الفخدات بأقل المصاريف الممكنة. إن السوق، بهذا الشكل والجوهر، ليس مؤسسة اقتصادية لإنماء

الرساميل المادية للأعيان، وإنما هو "نسق ثقافي" للتبادلات الرمزية والإثراءات المادية التي تفيد في إدامة البناء والتحصين الضروريين للوجاهة الاجتماعية.

وإذا كان المجال الرحماني عموما قد عرف خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اتساعا أو تراجعا، تبعا لقوة أو ضعف القبيلة وعلاقاتها مع المخزن أو مع باقي القبائل الأخرى، فإن هذا المجال سيعرف خلال القرن العشرين تحولات أخرى، لا تتصل فقط بحدود الحضور القبلي، بل بصيغ التملك وأنماط الاستغلال والتفاعل مع المجال، وهي تحولات لا تنفصل عن الشرط الكولونيالي وبناء الزعامات التقليدية والقائدية، فضلا عن معطيات مغرب ما بعد الاستقلال.

إن القبيلة كواقعة سوسيوسياسية، تسعف في فهم آليات تشكل وبناء السلطة محليا، كما أنها تفيد أيضا في ملاحقة شروط إعادة إنتاج وصياغة أشكال السلطة حسب التحولات التي عرفها زوج "الإنسان والمجال" كزوج مفصلي في الدرس والتحليل. فإذا كان إميل دوركهايم يلح على أن الإنسان هو، وبالضرورة، نتاج للمجتمع[148]، فإنه، قبلا وبعدا، نتاج للمجال الذي يستوطنه.

لكن وبالرغم من كون هذا "الزوج" على درجة مهمة ومؤثرة في مستوى التحليل، فإنه يلوح غير كاف لقراءة العلاقات والممارسات التي تنكتب فوق المجال، والتي تصير تاريخيا، من توقيع وحسم مجموعة من العوامل الخارجية والداخلية، وهذا ما يستوجب اعتبار مقولة "المجال والإنسان" كعتبة تحليلية وليس كمطمح غائي للتفكير في قبيلة الرحامنة.

---

[148] Emile Durkheim, Les règles de la méthode sociologique, PUF, Paris, 1977. p106 et 108.

الفصل الخامس:

الرحامنة والمخزن
حالة المد والجزر

لم تسلم علاقة الرحامنة بالمخزن من ذلك التصور المبني على التعارض، والذي هيمن على مختلف الدراسات الكولونيالية، فكثيرا ما لاحت هذه القبيلة في الكتابات الاستعمارية وحتى كتابات ما بعد الاستقلال كقبيلة سائبة ومتمردة وألا علاقة تربطها بالمخزن غير واقعة الانتماء إلى بلاد السيبة في مقابل بلاد المخزن، لكن ثنائيات التعارض لا تصمد أمام حالات، تؤيد وجود علاقات مستمرة بين المخزن وقبيلة الرحامنة.

لهذا وبالرغم من تركيزنا على "سوء العلاقة" بين الرحامنة والمخزن خلال القرن التاسع عشر، فإن ذلك لا يعني انضباطا تاما لذلك التصور الكولونيالي، بل يتأسس على اعتبار هذه الوقائع السوسيوسياسية، كعناصر فاعلة في إعادة صياغة وترتيب "الاجتماعي" داخل المجال. فقراءة هذه الوقائع لا تسعف في كشف محدودية نظرية التعارض الكولونيالية، بل تساعد في فهم شروط إنتاج وإعادة إنتاج الاجتماعي وباقي مظاهر التطور السلطوي.

لقد كانت السلطة المخزنية تطرح نفسها كقوة لإعادة النظام إلى الحقل الاجتماعي عبر محو علامات الفوضى والاختلال، لكنها كانت تبدو عاجزة في كثير من الأحيان عن الاضطلاع بهذا الدور، كان الانشغال متمحورا حول بسط النفوذ والسيطرة على كل القبائل، لهذا ظلت عبارة "السلطان الذي يحكم فوق صهوة الجواد" مميزة للتدبير السياسي لمغرب تتنازعه الزوايا والقبائل والمخزن.

أولا: سجل القبيلة:

بحكم موقعها الجغرافي الذي يعد معبرا للحركات المخزنية والمحلات السلطانية، وبحكم قربها من مراكش كمدينة مخزنية، ومجاورتها لعدد من قبائل الجيش (الشراردة، الأوداية..)، فقد انبنت الكثير من صيغ التفاعل مع معطيات النسق المخزني، بل إن الرجوع حتى إلى المخزن السعدي يبرز أن

العلاقة مع أعلى مستويات التدبير المخزني كانت قائمة، وهو ما يظهر في علاقة المصاهرة التي تمثلت في زواج السلطان السعدي محمد المهدي الشيخ من للا سحابة الرحمانية[149]، وهو ما تواصل مع المخزن العلوي منذ القرن التاسع عشر إلى الآن، وبصيغ متعددة[150].

إلا أنه لا يمكن القول بأن هذا النوع من المصاهرات السلطانية يعني انتقالا بالقبيلة من سجل إلى آخر، خصوصا إذا علمنا أن هذه المصاهرة تكون تقريبا مع جميع القبائل، بحكم أن هذه الأخيرة لا تتردد في تقديم بناتها كهدايا للسلطان خلال بعض المناسبات.

لكن هذه العلاقة لا تمنع من طرح التساؤل حول حدود استفادة القبيلة من هذه المصاهرة أو "العطف المخزني" الذي يبرز في"ظهائر التوقير والاحترام"[151] التي استفاد منها عدد من أسياد الرحامنة قبلا؟ فإلي أي حد يتم توزيع واقتسام هذه "الثروة الرمزية" داخل المجال الرحماني؟

لا يتحدد الحضور المخزني فقط في مستوى علاقات فردية وفوقية، بل يتحقق عبر امتداد وتجذر اجتماعي ينفذه القياد والأعيان، فعن طريقهما معا يتمكن المخزن من تجذير موقعه وفاعليته، الشيء الذي يفقد فرضية التعارض قوتها التحليلية، ففي القبائل التي يتم احتسابها ضمن "بلاد السيبة" يسجل المخزن حضوره عن طريق ممثليه من الزعامات المحلية والدينية، فالأمر يتعلق بقبائل"ذات خضوع قليل للمطالب المخزنية"[152]، وهو نوع من الخضوع لا يحتمل القطيعة كما تم استعماله في السوسيولوجيا الكولونيالية.

---

[149] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثاني، مرجع سابق. ص.62.

[150] يمكن أن نذكر هنا أيضا محمد الزوين بن القائد عبد الله الرحماني كان صهر السلطان محمد بن عبد الله على أخته البتول الرحمانية، وقد تكلف بمهام سفارية حتى في عهد المولى سليمان، والقايد عبد الحميد بن الفاطمي الرحماني الذي عين باشا لمدينة مراكش، بإيعاز من الصدر الأعظم باحماد.

[151] يعرف عبد الرحمن بن زيدان هذه الظهائر بكونها "وثائق تضمن للمتمتعين بها التوقير والاحترام والرعي الجميل المستدام، بحيث لا يسامون بمكروه ولا تنتهك لهم حرمة بوجه من الوجوه، والاستيصاء بهم وإخراجهم من غمار العامة، حتى لا يسامون بوظيف ولا يكلفون أدنى تكليف وزكواتهم وأعشارهم يدفعونها للضعفاء من أقربائهم".

أنظر: عبد الرحمن بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الجزء الثالث، مرجع سابق.ص.99.

[152] عبد الرحمن المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 25، الرباط، الطبعة الأولى، 1995.ص.222.

تعتبر الرحامنة من القبائل التي عرفت علاقتها بالمخزن مدا وجزرا مستمرين، ودون أن يفضيا إلى قطيعة تبرر توصيفها بالقبيلة السائبة، إنها علاقة/ نتيجة طبيعية لما كانت تعرفه السلطة المخزنية ذاتها من ارتباك تدبيري، انكشف أكثر فأكثر في هزيمتي إيسلي سنة 1844 وتطوان سنة 1859. وتواصل في السياسة الجبائية التي أثقلت كاهل مجموع القبائل، وأنتجت حركات احتجاجية من صميم المجتمع المغربي، تمظهرت في السيبة كاحتجاج سياسي واجتماعي.

فما تكون هذه القبيلة غير السائبة وغير المخزنية في آن؟ إنها قبيلة تنتمي إلى شرطها التاريخي والسياسي، وإذا كنا قد رأينا في الفصل السابق حركيتها المجالية من الصحراء إلى الحوز، فإن مساءلة علاقتها بالمخزن يحيل على حركية سياسية ومجالية أيضا، فالرحامنة ليست بقبيلة من قبائل الكيش، كتلك التي كانت تجاورها من أمثال ولاد دليم والشراردة والودايا..، فقد كانت تكتفي بالمساهمة في تمويل الجيش المخزني تماما كما هو الأمر بالنسبة لقبائل النايبة، إلا أن دينامية مجالها، كمجال عبور وفعل مخزني، ستفرض عليها الانخراط كليا أو جزئيا في تفاعلات النسق المخزني بدءا من مفتتح القرن التاسع عشر.

إن وفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1790 ستدخل البلاد في أزمة سياسية إلى بداية القرن التاسع عشر، سببها صراع أبنائه الأربعة: اليزيد، هشام، سليمان وحسين حول الحكم، وهكذا فقد بايعت فاس مولاي اليزيد، وبايعت تارودانت مولاي سليمان، ودخل الرحامنة على الخط، مبايعين مولاي هشام، لكن الطاعون جاء لينهي الحرب بين الإخوة فقد رحل ثلاثة منهم إلى دار البقاء ليبقى مولاي سليمان.

لم تكن الرحامنة لتكتفي بـ "التفرج" على أزمة انتقال الملك، بل إنها كانت تبحث لنفسها باستمرار عن موقع و"استفادة" ما في مستويات التدبير السلطوي، وهذا يؤكد أن قيادها وأعيانها كانوا في تفاعل دائم مع معطيات النسق، وفي إطار هذا التفاعل سنلحظ تأرجحا بين الموالاة والمعارضة، "فقد قام الرحامنة بثلاثة تمردات كبرى خلال القرن التاسع عشر..و قد كان عنف التمردات يستمد قوته وطول نفسه من "وفرة أعدادهم وقوة شوكتهم"[153].

---

[153] وهي تمردات لا تقتصر فقط على العهد العلوي بل تعود إلى العهد السعدي،"فقد هاجمت القبيلة السلطان مولاي زيدان السعدي سنة 1619 كما هاجمت السلطان عبد المالك السعدي سنة 1628 داخل المنطقة التي تواجدت بها بين أسفي ومراكش" أنظر: مجموعة من الباحثين، تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب، الجزء الثالث عشر، مرجع سابق، ص.4284.

لقد عرف مغرب القرن التاسع عشر العديد من الأزمات التي كانت تنتهي بمجاعات وأوبئة وفتن عارمة، بل إن واقع الأزمة، كما يقول عبد الله العروي، بات مكرسا بمتوالية السنوات، "بمعدل ثلاث سنوات من الصعوبات في كل عشرية تقريبا، فعلى امتداد سنوات 1850، 1857، 1863، 1869، 1878، 1881، 1904و1911، عاش المغرب على إيقاع أزمات خانقة عرفت ذروتها في سنتي 1863 و1878"[154].

إن هذه الأزمات الناتجة عن الجفاف وتراجع المحاصيل الزراعية، وارتباكات السلطة المخزنية، وتفاعلات القبائل والزوايا معها، ينجم عنها غير قليل من الاضطرابات والقلاقل الاجتماعية. وهو ما يفيد بأن مغرب القرن التاسع عشر قد انتهى إلى "غاية كبيرة من الانحدار"[155] كما يؤكد محمد المنوني.

لقد أدت الغرامة الحربية التي فرضت على المغرب عقب هزيمة إيسلي إلى إفراغ مالية المخزن من كل مدخراتها، كما كان تدهور الأوضاع الأمنية وتراجع هيبة المخزن، إضافة إلى قسوة الظروف المناخية وتوالي سنوات الجفاف سببا في قيام التمردات القبلية التي عمت عدة مناطق من المغرب[156].

و بالطبع فإن السلطة المخزنية لا تجد بدا من تدبير الأزمة، غير الاتكاء على القبائل لمدها بالجبايات والمداخيل اللازمة لتجاوز حالة العسر، فكثيرا ما كانت تلجأ إلى الرفع من قيمة الضرائب وتنظيم "حركات"[157] لتطويع القبائل التي ترفض أو لا تقدر على الاستجابة لكل الكلف المخزنية[158].

أمام تجذر واقع السيبة وإعلان القبائل عدم اعترافها بالكلف المخزنية[159] تهرع السلطة المركزية إلى التذكير عبر قوادها ومبعوثيها بضرورة إبراء الذمة بأداء ما على القبيلة من واجبات، لكن "عددا كبيرا

---

[154] Abdellah Laroui, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, op.cit.pp.54-55.

[155] محمد المنوني، مساهمة في ندوة "لماذا القرن التاسع عشر؟"، مجلة المشروع، العدد 9، سنة 1988، ص.69.

[156] دنيال شروتر، تجار الصويرة: المجتمع الحضري والأمبريالية في جنوب غرب المغرب(1844-1886)، ترجمة: خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى.1997.ص.152.

[157] " لقد قضى السلطان مولاي الحسن فترة من حياته يجول على رأس جيشه، وقد أقام ثكنات حتى ببعض السهول لتهدئة القبائل المضطربة، وفي سنة 1874 قام بحركة ضد أيت أومالو، وفي سنة 1875، كان عليه تهدئة قبائل الرحامنة وأولاد بوسبع ، وأيت شغروشن (زيان ، بني مكيلد ، أيت شخمان) وأيت اسيكرن وأيت إسري سنة 1888و قبائل زمور وغياثة في سنة 1889، والريف ومنطقة البوغاز سنة 1894."

أنظر: Paul Pascon , Le Haouz de Marrakech,op.cit.p.192.

Henri Terrasse, Histoire du Maroc: des origines à l'établissement du protectorat français, Editions Atlantide, Casablanca, 1949.p.335.

[158] "لقد ضرب السلطان مولاي الحسن رقما قياسيا في عدد رحلاته وحركاته التي كانت بمعدل واحدة في السنة، حتى اشتهر بأن عرشه كان هو صهوة جواده"

أنظر: مصطفى بوشعراء ، علاقة المخزن بأحواز سلا: قبيلة بني حسن 1860-1912، مرجع سابق.ص.62.

من الكلف كان يفوق طاقة القبائل، فتواجهها في كثير من الأحيان بالرفض، إذ كثيرا ما تكررت في الوثائق المخزنية عبارات "الانحراف عن الخدمة" أو "عدم الانقياد للخدمة" أو "التمنع عن أداء الكلف" "[160].

و مع استمرار الرفض القبلي يكون اللجوء إلى "الحركة"[161] خيارا لا محيد عنه، إلا أن هذا الخيار العسكري لم يكن يجدي دوما في استراتيجية التعامل مع القبائل، وهو ما كان يوجب الارتكان إلى طرائق أخرى من الاشتغال كتوجيه الرسائل الإنذارية إلى القياد والأعيان وتوظيف الصراعات بين القبائل القوية واستعمال سلطة الزوايا والشرفاء.

---

[159] تعني الكلف لغويا تجشم الأمر على مشقة، وهي تدل على ضريبة غير دينية تتمثل في تقديم مجهود عضلي أو مادي لفائدة المخزن، وتتميز بالطابع الإلزامي(يستثنى منها أصحاب الظهائرو العساكر)،كما تتميز بالتعدد والتنوع الكبير، وعموما تصنف الكلف إلى أعمال مجانية أو كلف مالية أو مساهمة في الحركة.

أنظر: نعيمة التوزاني الهراج، الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى، 1979.ص.67.

و من بين الكلف التي أوردها أحمد التوفيق متحدثا عن التحصيلات التي يأخذها المخزن، نجد: أعشار الحبوب، أعشار الزيتون، زكاة المواشي، زكاة المعادن، الجزية، الفروض والوظائف، هدايا العيد، الصلات والملاقات، الذعائر والغنائم، التكليفات، التسخيرات والتنفيذات، مؤونة المحلة، مؤونة الدار العالية، المكوس، العلف ومؤونة الكشينة السعيدة، الرعي، العسكر ومساهمة الحركات بالمال والرجال.

أنظر: أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، مرجع سابق.ص.500.

[160] فاطمة العيساوي، كلف البوادي في القرن التاسع عشر، في كتاب: البادية المغربية عبر التاريخ، تنسيق: إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 77،الرباط، الطبعة الأولى، 1999.ص.144.

[161] "الحركة مصطلح مخزني- بسكون الراء – وتعني شبه الغزوة أو المسيرة العسكرية والمشارك فيها يسمى الحارك ، وقد احتفظت الكلمة في اللسان الدارج بمعنى يرتبط بالفرس والركض به... وتعني الحركات تلك العمليات العسكرية التي تنظمها السلطة المركزية لإثبات سيادتها على البلاد ... وكانت الحركة مثلا في عهد السلطان المولى الحسن تضم ما بين 15ألف إلى 170 ألف رجل، وفي إحدى الحركات الحسنية، نجد أن عدد المشاركين ناهز 15 ألف و900 شخص موزعين كالآتي: 8000 من العسكر و1500 من المسخرين 1000 من رماة الحناطي البرانيين والداخليين (المقصود أصحاب الحرف الموجودين داخل القصر وخارجه) 400 من الحمارة و1000 من الراجلين و400 من أصحاب الخيل وغيرهم... ولقد كانت هذه الحركات تستهدف تأديب بعض القبائل إما لطغيانها وتعديها أو من أجل استخلاص الضرائب، فمن أجل السبب الأول تذكر حركة المولى عبد الرحمان ضد بني موسى الذين قتلوا عاملهم أحمد بن زيدوح، وحركة المولى الحسن ضد زمور الذين قتلوا نائب عاملهم أحمد بن المودن الفرجي، وحركته ضد بني مطير الذين هجموا على مكناس وحركته ضد بني يزناسن الذين أجبروا عامل السلطان بن الشليح على التنازل لصالح بن الشرشة سنة 1876، أما الحركات من أجل تحصيل الضرائب فنذكر منها الحركة على زمور سنتي 1843 و1843، وعلى تافيلالت سنة 1854 وعلى الرحامنة سنة 1875 وعلى سوس سنة 1886"

أنظر: مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي ، معلمة المغرب ،الجزء الحادي عشر، مرجع سابق، ص.3379-3380.

ثانيا: التمرد القبلي:

إلا أن الحركة لا تؤول فقط إلى إنهاء واقع "الانحراف عن الخدمة" و"التمنع عن أداء الكلف" فقط، بل تعزز بالاقتصاص، الذي يتوزع على فرض الغرامات واقتطاع الأراضي، فردا على ثورة الرحامنة لسنتي 1861- 1862 قامت السلطة المخزنية بسحب[162] مجموعة من أجود الأراضي من بلاد الرحامنة، وهو ما حدث قبلا خلال سنة 1845 بمنح أراضٍ رحمانية لأيت إيمور وأخرى للأودايا على ضفاف وادي تانسيفت سنة 1851.

يشير الضعيف الرباطي إلى أنه "في بداية عهد السلطان مولاي الحسن، قام طرف من قبيلة الرحامنة على عاملهم محمد بن بلة"[163]، وهو تمرد مبرر قبليا بتعذر أداء الكلف المخزنية، وواقعة الارتباك السياسي الذي تعرفه البلاد أثناء انتقال الحكم. لكن السلطان الذي اشتهر بـ "الحكم فوق جواده" سيتوجه إلى الرحامنة "حاركا" ومقتصا.

وفي هذا الصدد يقول الناصري بأنه "لما قضى السلطان- أعزه الله- سنة العيد نهض إلى مراكش، فلما قرب من زاوية بن ساسي بين بلاد الرحامنة وزمران، نزل هناك على الرحامنة، وكانوا قد حصل منهم اعوجاج وتمرد، فوظف عليهم الأحوال ما أثقل ظهورهم، وفرض عليهم من العسكر والخيل ما امتحنوا في أدائه، ولم يقم عليهم حتى أدوا جميع ذلك، وحتى خرج الأشراف والمنتسبون من أهل مراكش إلى السلطان للشفاعة فيهم، فقبل السلطان أيده الله شفاعتهم وارتحل عنهم، فدخل مراكش آخر ذي القعدة 1292 الموافق آخر دجنبر 1875، وكانت مدة مقامه على الرحامنة ستة عشر يوما"[164].

---

[162] يقول الناصري في هذا السياق بأنه "في سنة 1861، تمرد الرحامنة فحاصروا مراكش أربعة أشهر حتى أوشكت على الاستسلام، فاستنهض المخزن قبائل السراغنة لمواجهتهم، إلا أن جموع المتمردين (نحو 5000 رجل) كانت شوكتهم أقوى. وبعد أن فرغ السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان من فتنة "الروكي" دخل بلاد الرحامنة يوم 31 ماي 1862 في محلة قوامها 9000 رجل ومجهزة ب 14 مدفعا ومدفع "هاون" صغير، ورمت المدفعية المتمردين بسبع قذائف خلفت أعدادا من القتلى والجرحى، ثم أمر بإلقاء ثلاث قنابل على قرية بزاوية ابن ساسي فتشتت المتمردون، وقدم 30 رئيسا من رؤسائهم الخضوع وأثقلوا بالأغلال، وكعقاب لهم ، كان الجيش المخزني يجتاح مزروعات الرحامنة ونهب في ابن ساسي الأكباش والثيران والشعير والدجاج والملابس، حتى أن بعضهم اقتلع نعال الخيول الميتة. وبعد أن أخذ المخزن من رجالها 2000 من العسكر، استحوذ على أجزاء غنية من بلادها،هي من أخصب البلاد وأزكاها، وأنعم بأخرى على قبائل احمر وعبدة ولمنابهة وحربيل وبما تبقى على أفراد من دائرة المخزن كما ترامى جيرانهم على أراض متاخمة لحدودهم متذرعين بغضب المخزن على العصاة".

أنظر: أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق. 126.

[163] محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف الرباطي، دراسة وتحقيق: محمد البوزيدي الشيخي، الجزء الأول، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988.ص.382.

[164] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق.165.

لم يكتف السلطان الحسن الأول بالحركة والتغريم بل عمد إلى آلية الضبط عن طريق التقسيم، فقد تم توزيع القبيلة على تسع قيادات تَكَلف قيادها بتجميع الضرائب وتوفير العنصر البشري لتدعيم الجيش المخزني، فضلا عن اضطلاعهم بأدوار حفظ الأمن وتأمين الطرق العابرة لمجال الرحامنة في اتجاه مراكش.

الرد المخزني في أعقاب هذه الانتفاضات يكون قاسيا، ولا يتحدد في إثقال الكاهل بالغرامة، بل يعمد إلى ضرب الحصار على المجال الرحماني من جهة الجنوب، والمنع من التردد على مراعي الدير، وانتزاع الأراضي الخصبة من الرحامنة وإقطاعها لقبائل أخرى منافسة لهم.

لكن تعاطي المخزن مع تمردات الرحامنة لم يقتصر على انتزاع الأرض، بل سيمتد إلى توسيع التمثيلية المخزنية، ففي عهد السلطان سيدي محمد كان هناك قائدان عاملان على الرحامنة وهما القائد محمد بن بلة والقائد العربي بن الشرقي، إلا أنه في العهد الحسني سيتم تعيين ثمانية قياد، وفي العهد العزيزي سيتم تقسيم التراب الرحماني إلى عشر إيالات، عملا بمبدأ "**مزيدا من التقسيم من أجل مزيد من الضبط**".

و الواقع أن السلطة المركزية، وبمضاعفتها، كما يقول محمد الناجي، من عدد القياد وإكثارها من الأشياخ والأمناء ودعوتها لكبار الموظفين إلى المشاركة في ذلك كله، كانت تقر النخبة القروية الجديدة وترسمها[165]. فالتعيين يفيد في إنتاج النخب وتحديد مآلات القائدية والعينية.

ثالثا: انتفاضة بن الطاهر:

إلا أن هؤلاء القياد الجدد[166] الذين اختارهم المخزن الحسني بعناية خوفا من احتمال التمرد و"الانحراف عن أداء الخدمة"، سوف يكون بينهم القائد مبارك بن الطاهر بن سليمان الرحماني[167] الذي مارس مهامه كقائد في مناطق متفرقة كالريف وفاس ودرعة التي فر منها هاربا إلى الرحامنة، خوفا من ردة فعل المنتفضين ضد ممثلي المخزن، وبحكم انتمائه إلى الرحامنة، فقد استعان به باشا

---

[165] محمد الناجي، التوسع الأوربي والتغير الاجتماعي في المغرب(ق 16-19)، ترجمة: عبد الرحيم حزل، منشورات جذور، الرباط، الطبعة الأولى،2004.ص.117.

[166] نذكر منهم: القائد الناجم اليكوتي الرحماني،القائد المهدي الزبيري،القائد محمد الاغشاوي الرحماني،القائد عيسى بن امبارك الرحماني، القائد إبراهيم بن احمد الرحماني، القائد إبراهيم بن الحسين الرحماني، القائد العربي بن الشرقي الرحماني وعبد الحميد بن الفاطمي الرحماني، هذا الأخير الذي سيواجه متزعم انتفاضة سنة 1894.

[167] عمل قائدا على القبيلة من 1884 إلى 1889 ثم بعثه مولاي الحسن إلى الريف فولي على قبيلة إقلعيين ثم عينه على تازة فوادي درعة، وبعد وفاة مولاي الحسن عاد من درعة إلى قبيلته، التي دخلها موفدا من أجل تهدئة المنتفضين فتحول بعدا إلى قائد للانتفاضة.

مراكش "ويدا" لتهدئة المنتفضين، لكنه لما التحق بهم، موفدا من "ويدا"، محاولا ثنيهم عن مهاجمة مراكش، سيصير منهم، بل ومتزعمهم. وبالنظر إلى جرأته وتجربته الطويلة في تدبير الهوامش، فقد أهله كل ذلك لتزعم الانتفاضة واستمالة قبائل السراغنة وزمران واحمر ومسفيوة للانضمام إليه ومهاجمة مراكش ومحاصرتها.

تزعم بن الطاهر انتفاضة الرحامنة سنة 1894 احتجاجا على عقد البيعة للمولى عبد العزيز، وتنصيبه سلطانا للمغرب، وهو وقتئذ دون سن البلوغ، عوض أخيه الأكبر الأمير مولاي امحمد الذي ظل يشغل مهام الخليفة السلطاني حتى الشهور الأخيرة من عهد والده، فقد استطاع متزعم هذه الانتفاضة القائد بن الطاهر أن يجمع حوله العديد من المقاتلين من الرحامنة والسراغنة وبلاد احمر وغجدامة وفطواكة وأولاد عمران والغوانم من دكالة، كما تمكن من مهاجمة مراكش.

و لقد احتفظت الذاكرة الشعبية بجملة من القصائد الزجلية التي توثق لهذه المرحلة، والتي تعكس بدايات التمرد ودواعيه:

كتبت برية وصيفطها ليا
و مولاي عبد العزيز ما عطانيش الجواب
و ما كاين حق فمراكش
ما كاين حق فمراكش
و وجدوا العدة ووجدوا العدة
و شرجو الخيل للغوتة
هجموا على القبايل الشامخة
و داو ليكم العولة
و داو ليكم العولة
و ابنيتي وربي والمدينة
و الرجالة ماتوا
و كالوا للخلفية: آرا البارود آ لولاد[168]

++

و لأن بن الطاهر كان بحاجة إلى شرعنة انتفاضته، فقد "طرح أمام أنصاره "سبنية" للا زينب أم المولى محمد، بدعوى أنها هي من منحت الرحامنة غطاء رأسها، حدادا على عرش ابنها المغتصب بتدبير من

[168] إدموند دوتي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة(1901-1902)، مرجع سابق.ص.283.

أحمد بن موسى"[169]، وبالنظر إلى دلالة تخلي أم الأمير عن غطاء الرأس وتسليمه إلى الرحامنة، فإن الانتفاضة سينضم إليها الكثيرون من أفراد القبائل الأخرى، فقد تداخل الشرف بالعرض، بالمصالح والمنافع التي قد تتأتى لهذه القبائل بعد نجاح الانتفاضة، وتمكين الأمير من العرش.

إلا أن المخزن العزيزي كان لهم بالمرصاد، ففي أواخر سنة 1895، وقبل أن تحل المحلة السلطانية بأرض الرحامنة، تم الانتهاء من انتفاضة بن الطاهر وتم إلقاء القبض عليه، بعدما التجأ إلى ضريح الولي سيدي علي بن ابراهيم بتادلة، وفي أعقاب ذلك ألزم الرحامنة بأداء ذعيرة مالية قدرها 400 ألف ريال، وألف فرس بكل اللوازم، وألفين من الرجال للخدمة في الجيش، كما "صودرت أملاك الرحامنة بمدينة مراكش(حوالي 457 دارا)"[170].

لم يكتف المخزن فقط بإخماد هذه الانتفاضة، بل عمد إلى اتخاذ مجموعة من التدابير الاحترازية خوفا من احتمال ميلاد انتفاضة أخرى، وفي نفس الآن تقديم **"درس سلطوي"** لباقي القبائل المجاورة التي "اعتلت" بعدوى الانتفاضة، و"انحرفت" هي الأخرى عن الخدمة، كالسراغنة وزمران واحمر وعبدة، وقبائل الكيش من الاودايا وإداو بلال وحربيل وأيت ايمور. ولهذا كان التعامل مع الرحامنة في أعقاب هذه الانتفاضة يروم وأد معالم الانتفاض وتقديم العبرة[171] لمن يريد أن يعتبر.

وعن هذا الفعل المخزني المزدوج يقول المختار السوسي بأنه "**أمرت الرحامنة أن يعطوا المرهونين أولا فيأتي الفارس، فيؤخذ فرسه وسلاحه إلى مخزن السلاح ثم يذهب به إلى السلسلة حتى وصلوا مئات، ثم فرقت فيالق الجيوش ثمانية، كل فيلق على طرف من القبيلة، وأديرت الجيوش بأرض الرحامنة وزحفت الفرق من كل ناحية فالتهمت كل ما في الرحامنة، فقتل من قتل وأسر من أسر...**

---

[169] عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن، مرجع سابق.ص.24.

[170] زين العابدين العلوي، المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني، الجزء الأول، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى.2007.ص.224.

[171] من الوسائل المفيدة في تقديم هذا الدرس السلطوي، كان المخزن يعمد إلى قطع الرؤوس وتعليقها في أبواب المدن، بعد تمليحها من طرف اليهود، (و لهذا سميت أحياؤهم بالملاح، فهم الذين كانوا يختصون بتمليح هذه الرؤوس، حتى تبقى معلقة، ودون أن تصدر عنها رائحة تزكم الأنوف)، وفي هذا الصدد يشير عبد الله حمودي إلى رسالة من سيدي محمد بن عبد الرحمان مؤرخة بسنة 1871، بعد أن حقق نصرا على قبيلة الرحامنة، تقول:" هذا، ويصلكم ما قطع من رؤوس قتلاهم لتعلق بباب المدينة، ويعتبر بها المعتبرون ويتذكر بها المتذكرون". أنظر:

عبد الله حمودي، الشيخ والمريد، مرجع سابق.ص.87.

ونهب من نهب. لقد رأيت سلاسل نصف من فيها أموات يجرهم من لا يزالون أحياء ثم في مراكش يعزل الأموات فيدفنون، ويذهب بالأحياء إلى الدفن في السجون"[172].

فقد ألزموا بدفع ذعيرة مالية قدرها 400 ألف ريال و1000 فرس بلوازمها و2000 من رجالهم للخدمة في الجيش المخزني، فضلا عن تقديم ما بين 1500 و2000 من رجالهم للزج بهم في السجون، و"الذين طيف بهم في أنحاء المحلة السلطانية تحت وابل من الشتائم والسخرية، فكانوا يشدون من لحيهم حتى إنه لم تبق على وجوههم سوى بعض الشعيرات، ثم جعل الحدادة الأغلال والقيود القوية في أرجلهم واقتيدوا في مجموعات من 15 إلى 20 أسير"[173]. فقد كان المخزن "يريد إثقال كاهلهم جدا حتى لا يفكروا في التمرد من جديد"[174].

يقول المشرفي في هذا الصدد: **"قبض على نحو الألف من قبيلة الرحامنة المتعصب بهم، وبعده أمر بتفريقهم على السجون، فوجه منهم لسجن فاس عددا دخلوا على أسوء حال، محمولين على البغال، كالخب بالأخراج كل إثنين على بغل، وكل واحد منهما بعين الخرج معادلا لأخيه، وهم مصفدون في الحديد تقشعر منهم الجلود مع ما هم عليه من الشعث والاصفرار والنحول من أثر العذاب والجوع. وكذلك وجه عددا لرباط الفتح، بقصد السجن، وكذلك لسجن تطاوين وسجن الصويرة، دون ما أبقاه بسجن مراكش، وبقوا بالسجن إلى أن مات جلهم به"**[175].

لكن فشل الرحامنة في انتفاضتهم وهجومهم على مراكش خلال تمردهم ضدا على بيعة مولاي عبد العزيز، لم يكن بسبب قوة وبأس المخزن، وإنما بسبب تمكن المخزن من تفريق صفوف المتحالفين وجزل العطاء لمن يشارك إلى جانبه، فقد "كان كل من حارب إلى جانب المخزن بمراكش يأخذ إعانة وكان الجريح يمنح 500 ريال تعويضا، وكانت دية القتيل تبلغ 1000 ريال تعطى لذريته"[176]. فالاستفادة من المساهمة في القضاء على تمرد الرحامنة كانت عالية بالنسبة لعدد من القبائل والقياد في أحواز مراكش. فعيسى العبدي البحاتري مثلا غدا من "أصدقاء الصدر الأعظم

---

172 محمد المختار السوسي، المعسول، الجزء العشرون، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،1960.ص.21.

173 لويس أرنو، زمن المحلات السلطانية: الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860 و1912، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999.ص.92.

174 لويس أرنو، زمن المحلات السلطانية، نفس المرجع،ص.93.

175 محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق: إدريس بوهليلة، الجزء الثاني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، الطبعة الأولى.2005.ص.227.

176 زين العابدين العلوي، المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني، مرجع سابق.ص.223.

باحماد بعد أن شارك في عمليات القضاء على السيبة، ولما تم التغلب على ثورة الرحامنة جازاه المخزن بتعيينه قائدا على مجموع قبائل عبدة ودكالة والشياظمة"[177].

رابعا: قضية السخط:

بالنظر إلى ثقل هذه الغرامات، سرت في مجموع التراب رواية تقول بأن الرحامنة هم "**مساخيط مولاي عبد العزيز**"، وأنه لما حل ببلادهم وطلب ماء جيء له بالماء في بلغته، للتدليل على أن الغرامات الثقيلة لم تترك لهم حتى الكوب المناسب لتقديم الماء للسلطان.

في إطار عملية التنابز بالألقاب بين القبائل المغربية يوصف الرحامنة بأنهم مساخيط مولاي عبد العزيز، ويقال دكالة صباغين الحمير، سرغن برغن، عبدة جراحين الكبدة عمر حرهم ما يهدا عمر ضيفهم ما يمشي شبعان، الشاوية هاوية، الجبلي والمراكشي ديرو قدامك لا ديروا موراك، بني احسن بني حسك. وهي كلها توصيفات تستند إلى حكايا مختلفة تعبر عن ماضٍ ثقيل من الحروب والنزاعات حول الأرض والماء والسيادة.

لكن ثمة روايات مضادة تقول بأنهم "مساخيط مولاي اليزيد" وليس مولاي عبد العزيز، ذلك أن مولاي اليزيد الذي لم يدم حكمه سوى سنتين 1790-1792، لم تبايعه قبائل الحوز، بما فيها الرحامنة، التي بايعت الأمير هشام "باتفاق قبيلة عبدة ودكالة وأهل الحوز وأهل مراكش..و بحضور كبراء الرحامنة وأهل سوس مع أولاد دليم وغيرهم"[178].

و إذا كان الناصري في الاستقصا قد تناول الحرب التي نشبت بين المولى هشام وأخيه المولى اليزيد، بنوع من "الاقتصاد اللغوي"، فإننا سنجد الضعيف الرباطي مستفيضا في وصف انتقال المولى اليزيد إلى مراكش وعبوره لوادي أم الربيع.

فالناصري يقول بأنه "ساءت ظنونهم به، وانفسدت قلوبهم عليه، ولما رجعوا إلى بلادهم، تمشت رجالاتهم بعضها إلى بعض، وخب الرحامنة في ذلك ووضعوا. واتفقت كلمتهم مع أهل مراكش وعبدة وسائر قبائل الحوز، فقدموا المولى هشام بن محمد للقيام بأمرهم، وآتوه ببيعتهم وطاعتهم.

و لما اتصل خبر ذلك بالمولي اليزيد وهو محاصر لسبتة، أقلع عنها، وسار إلى الحوز، فشرد قبائله، ووصل إلى مراكش، فدخلها عنوة، يقال إن دخوله إليها كان من الباب المعروف بباب يغلي، ثم استجاش عليه المولى هشام قبائل دكالة وعبدة، وقصده بمراكش، فبرز إليه المولى اليزيد، ولما ألقى

---

[177] مصطفى الشابي، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 26 ، الرباط، الطبعة الأولى، 1995.ص.166.

[178] أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق.ص.76.

الجمعان.. انهزم جيش المولى هشام، وتبعهم المولى اليزيد، فأصيب برصاصة في خده، فرجع إلى مراكش يعالج جرحه، فكان في ذلك حتفه"[179].

إلا أن الضعيف الرباطي سوف لن يتعامل مع هذا الحدث بنفس "الاقتصاد اللغوي"، بل سوف نجده يخصص صفحات طوال لتأريخ الحرب بين المولى هشام والمولى اليزيد، بل إنه سيستفيض أكثر في تأريخ عبوره لوادي أم الربيع.

فمن أجل الاقتصاص من رافضي البيعة تحرك مولاي اليزيد في اتجاه مراكش، لمواجهة الأمير هشام، لكن أهل الحوز بدؤوا يرددون أن الحاج بلا عزوز، وهو من أولياء مراكش، قال بأن "**اليزيد لن يخوض في ماء وادي أم الربيع**". وشاع في كل الأرجاء أن عبوره لهذا النهر فيه شؤم ومصيبة، وبذلك لما اقترب اليزيد من النهر تفرق من حوله العبيد، فسخط عليهم وعلى الرحامنة، وقال "إنا بالله أستعين، والله لأقطعن وادي أم الربيع ولو مع عشرة من الخيل"[180].

و يوثق الضعيف الرباطي هذا الحدث بالآتي:" و في يوم الأربعاء، وهو أول يوم من جمادى الثانية من السنة السادسة بعد المائتين(1206)، قطع وادي أم الربيع السلطان السعيد والخليفة الرشيد، مولانا اليزيد، وذلك يوم الأربعاء المذكور، وقطع معه البعض من دائرته، فالتقى بعبد الله الرحماني وأخبره بالثائرين، وبمراكش ثم رجع للمحلة وهو عند القطوع يدلي رجله في ما وادي أم الربيع ويقول: "**أين قول أهل مراكش وبلا عزوز السفيه، فها قدمي يخوض فيه**"، وهو يحرك في الماء برجله"[181].

وبالنظر إلى حادثة موت المولى اليزيد بمراكش، وشيوع أخبار "سخطه" على الرحامنة وكل من اصطف ضده، مبايعا أخاه المولى هشام، فإن الذاكرة الشعبية تردد عن الرحامنة أنهم "**مساخيط مولاي اليزيد**"، لكونه سخط عليهم لدى عبوره وادي أم الربيع، وأيضا لكونهم من بين المتسببين في وفاته، باعتبارهم من أهم القبائل التي شايعت "عدوه" المولى هشام، علما بأن "انتصار" الرحامنة للمولى هشام، سرعان ما انقضى بعد مقتل عاملهم القائد أبا محمد عبد الله بن محمد الرحماني[182].

---

[179] أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السابع، مرجع سابق.ص.109.

[180] محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف الرباطي، الجزء الأول،مرجع سابق، ص.417.

[181] محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف الرباطي، الجزء الأول،مرجع سابق، ص.417.

[182] يقول الناصري: "و لما قتل القائد عبد الله، خلعت الرحامنة طاعة المولى هشام، وبايعت أخاه المولى حسين بن محمد، وزحفوا به إلى مراكش، فلم يرع المولى هشاما إلا طبولهم تقرع حول القصبة، وأرهفوه وأعجلوه عن ركوب فرسه، فخرج يسعى على قدميه إلى أن أتى ضريح الشيخ أبي العباس السبتي، فعاذ به وثابت إليه نفسه، وبعد أيام تسلل وسار في جماعة من حاشيته إلى اسفي..و دخل المولى حسين قصر الخلافة بمراكش فاستولى على ما فيه من الذخيرة والأثاث متاع المولى هشام ومتخلف المولى اليزيد، فاضطر أهل مراكش حينئذ إلى مبايعة المولى حسين والخطبة به، وكان ذلك سنة تسع ومائتين وألف".

و عموما فهذا التوصيف الذي ما زال يتردد إلى الآن، متوزعا بين "مولاي عبد العزيز" ومولاي اليزيد"، فهو يعبر عن هذه العلاقة المتوترة بين القبيلة والسلطة المركزية، خلال عسر انتقال الحكم، واختلال موازين القوى، والتي لا يمكن تفسيرها حصرا بمنطق تعارضي يحتمل القطيعة بين "سجل السيبة" و"سجل المخزن".

خامسا: البادية والمدينة:

من خلال تأمل هذه الوقائع يبدو واضحا أن العلاقة مدينة/ بادية تؤطر أيضا تفاعل قبيلة الرحامنة مع مدينة مراكش تحديدا، ففي مختلف التمردات التي عرفتها القبيلة تكون مراكش مجالا لتوقيع وتسجيل القوة، كما أنها في حالات السلم تظل مجالا أثيرا لاستعراض الوجاهة الاجتماعية، وتوفير حاجيات القبيلة من حيث الملبس والمأكل والمشرب، وهذا يعني أن علاقة الرحامنة مع مراكش تجاوزت تلك الخطاطة القائلة بأن"البادية تخصصت عادة في الإنتاج الفلاحي، والمدينة في الإنتاج الصناعي، لتكون العلاقة بينهما علاقة تبادل اقتصادي"[183]، فليس هذا الشرط المنفعي التبادلي هو ما يؤسس العلاقة ويبررها، فثمة عناصر أخرى تتعلق بما هو سياسي ثقافي يهم النسق في مجموعه.

إن العلاقة بين البوادي والمدن بالمغرب كانت تتأثر بتقلبات الطبيعة والحكم، ففي لحظات الجفاف لا تتردد قبائل البوادي التي تعاني عسرا في المعيش، في الهجوم على المدن، على اعتبار أنه يتوفر لها الرخاء، وهو ما كان يحدث باستمرار في علاقة قبائل "لعرب" مع مدينة الرباط[184]، وقبائل عامر وحصين مع مدينة سلا، وقبائل الحياينة مع مدينة فاس[185]، وهو ما تكرر، بشكل أو بآخر مع الرحامنة في علاقتهم بمراكش[186].

أنظر: أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السابع، مرجع سابق.ص.128.

[183] رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع، مرجع سابق، ص.136.

[184] أنظر: عبد الفتاح الزين، العلاقة بين المدينة والبادية بحوز الرباط، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الموسم الجامعي: 1986/1987، غير منشورة.

[185] أنظر: عبد الرحمان المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، مرجع سابق.

[186] يقول الناصري بأنه"لما كان السلطان سيدي محمد رحمه الله ببلاد الغرب، مشتغلا بأمر الإصبنيول وحربه على تطاوين، ثار عرب الرحامنة بالحوز وعمدوا إلى سوق الخميس بمراكش، فأغاروا عليه وانتهبوه، وسلبوا المارة وأرباب الجنات.. وقطع الرحامنة ما حول الأسوار من الأشجار، واحتطبوها وحصدوا الزروع في الفدن، واغتصبوها واشتد الحصار.. ودام الحال إلى أن فرغ السلطان من حرب الإصبنيول وفتنة الروكي، فوجه وجهته إلى مراكش..فلما قرب منها تحزب الرحامنة وأجمعوا على حربه، فانحازوا إلى ناحية الرميلة والأوداية وزاوية بن ساسي ليحولوا بينه وبين الدخول إلى مراكش، فهجم عليهم وأوقع بهم وقعة.. ثم عفا عنهم بعد أن انتزع منهم بلاد أيت سعادة وغواطم والأوداية وهي من أخصب الأراضي وأزكاها"

أنظر: أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق.126.

ففي الأمثال الشعبية الرائجة بمراكش والرحامنة، والتي يجتهد فيها كل طرف لتأكيد "نقاء نوعه" و اجتماع كل ما هو سلبي في ذلك الآخر، نكتشف التباس هذه العلاقة وانبناءها على تاريخ من الهجومات والغرامات والمصادرات. فالرحامنة كثيرا ما يرددون عن المراكشيين أمثالا تشير إلى الخبث والبخل من قبيل "المراكشي ربيع وكريع" و"المراكشي ديرو قدامك لا ديرو موراك"، أما أهل مراكش فيرددون عنهم أنهم "مساخيط مولاي عبد العزيز" وأنهم "عشرة في عقيل"[187] و"الرحماني والفار ما توريهم باب الدار".

و هي أمثال تعبر عن تخوف دائم من هذه القبيلة التي لم يتردد محاربوها في هجوماتهم على مراكش في الدخول إلى حمامات النساء، كما يؤكد الضعيف الرباطي قائلا بأنه في "عهد الأمير سيدي محمد بن عبد الله دخل الرحامنة على حمامات مراكش وتكشفوا على النساء"[188]، كما يذكر عبد الرحمان بن زيدان أنه خلال انتفاضة الرحامنة سنة 1894 "ثار البعض من عتاة الرحامنة وراموا نهب مراكش"[189].

يخبرنا إدموند دوتي عن "سوء أحوال" هذه العلاقة قائلا بأن "الصراع بين الرحامنة والسكان الحضريين لمراكش قديم"[190]، وبسبب ذلك فإن المراكشين يمارسون بعض طقوس الاستجفاف[191]، ضدا على طقوس الاستسقاء، "فمن مصلحة الحضريين بمراكش أن تكون المحاصيل هزيلة أو سيئة، ليحتاج البدويون إلى وساطتهم وبالتالي رفع أثمنة المواد الغذائية"[192].

ستظهر هذه العلاقة الملتبسة بين الرحامنة ومراكش حتى في مستوى الهجرات الداخلية(خلال سنوات البون) التي ستتجه شمالا نحو الدار البيضاء والرباط بدرجة أعلى، خلال الفترة الاستعمارية، وهو ما سيظهر في تسمية عدد من أحياء الصفيح الكبرى بهاتين المدينتين باسم القبيلة،

---

[187] يفسر هذا المثل من قبل المراكشيين على أساس أن الرحامنة لهم إمكانيات ذكاء محدودة، وأن عشرة منهم يتوفرون على عقل واحد، فيما تشير الروايات المحلية إلى أن هذا المثل له علاقة مباشرة بنتائج انتفاضتهم سنة 1894، فقد تم حينها اعتقالهم من طرف المخزن، وكانوا يساقون إلى سجون مراكش، ويجمعون عشرة في عقال واحدة، للتدليل على أن المخزن أسر الكثيرين منهم ولم تكن تتوفر له حتى القيود الكافية لكل واحد من الأسرى، وهذا كله يسير في اتجاه تأكيد سلطة المخزن وسوء عاقبة كل خارج عن طاعته ومنحرف عن خدمته.

[188] محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف الرباطي، مرجع سابق، ص.277.

[189] عبد الرحمان بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، الجزء الرابع، الرباط، الطبعة الثانية، 1990.ص.445.

[190] إدموند دوتي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة(1901-1902)، مرجع سابق.ص.297.

[191] كأن يأخذوا مثلا، حسب دوتي، آنية فخارية بها زيت، ويضعونها تحت سقف عبرته قطرات المطر، وينزل منه الماء، أو تحت خيمة، وعندما تمتلئ الآنية تدفن، ويتوقف حينها المطر، كما يصنعون في مراكش محراثا صغير ويربطون به قطا ويحرثون به حقلا، من أجل إيقاف المطر

أنظر: إدموند دوتي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة(1901-1902)، مرجع سابق.ص.298.

[192] إدموند دوتي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة(1901-1902)، مرجع سابق.ص.297.

تماما كما هو الأمر بالنسبة لدوار الرحامنة بسيدي مومن بالدار البيضاء ودوار الرحامنة بدواري الكورة والكوارة بيعقوب المنصور بالرباط. فيما لا نكاد نلمس "تسجيلا وتحفيظا مجاليا" لإسم القبيلة بمراكش[193]، بالرغم من واقعتي القرب الجغرافي والعمق التاريخي.

إلا أن ذلك لم يمنع من حصول هجرات إلى مدينة مراكش، خصوصا في ظل "باشوية" القائد عبد الحميد، فقد وصلوا حينها إلى تكوين فخدة هامة من ساكنتها، وقد ذهب بهم الأمر، يقول دوتي، إلى أن اعتبروا امتزاجهم بأهل المدينة تم بكل سهولة ورسميا، ما دام قائدهم عبد الحميد عين باشا على مراكش[194].

إن علاقة البادية/ المدينة لا تفترض في حالة الرحامنة/ مراكش، تفسيرا خطيا يتأسس على المعطى الاقتصادي فقط، بل تحتمل تفسيرا آخر يتداخل فيه السياسي والثقافي والنفسي والتاريخي[195]، فالمدينة وكما يقول عبد الرحمان المودن، "تجسيد ووسيلة للسلطة المخزنية، ومن ثم فإن مواجهة القبيلة تتخذ طابعا سياسيا..فالمواجهة تكون تعبيرا عن صراع اجتماعي واقتصادي"[196]. وتكون أيضا عبر استضمار تاريخ نفسي اجتماعي من التمثلات والتمثلات المضادة، التي تتجاوز في انطراحها الزوج مدينة/ بادية، إلى القبيلة/ نسق عام.

---

[193] نستثني من هذه الملاحظة ما يهم القياد والأعيان، الذي تمكنوا بفضل رساميلهم الرمزية والمادية من "التحفيظ الرمزي" لأسماء أزقة وحومات في مراكش، فقد جعل العديد من قياد وأعيان الرحامنة من قاع المشرع بالمدينة العتيقة بمراكش مجالا خاصا بهم، يمارسون فيه شرعهم الخاص، ومنه كانت تسميته بالمشرع، بحيث كان يحظى بنوع من الاستقلال الذاتي عن سلطة باشا مراكش، بل إن الرواية الشفوية تؤكد أن مخازنية مراكش، كان يفرض عليهم إزالة "الشاشية" عن رؤوسهم كلما هموا بالدخول إلى هذه الحومة، وقد أقام في هذه الحومة كل من القائد عبد الحميد والقائد البربوشي والقائد ولد العظم والقائد ولد الحسن والقائد العيادي الذي شيد بعرصة الزوين رياضات فاخرة فوتت أخيرا لمستثمرين مغاربة وأجانب وصارت تحمل اليوم إسم "قصر سليمان"، ومن الدروب المتفرعة اليوم عن قاع المشرع نجد درب عبد الحميد، درب المدرسة(التي بناها القائد العيادي)، درب الحبس(استعمله العيادي لحبس الرحامنة)، درب بن رحال(سائق القائد العيادي)..

[194] إدموند دوتي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة(1901-1902)، مرجع سابق.ص.299.

[195] يجب ألا ننسى هنا أن من قضى على انتفاضتهم سنة 1894، وهو القائد عبد الحميد بن الفاطمي الرحماني، الذي كان مقربا من الصدر الأعظم أحمد بن موسى المعروف بـ "باحماد"، ستتم مكافأته على حربه على الرحامنة، بتعيينه باشا لمدينة مراكش، والذي لن تأخذه رحمة بقبيلته التي يتحدر منها، فقد قام بمصادرة ممتلكات أفرادها داخل مدينة مراكش، و فرض الذعائر، وعامل الناس بقسوة بقيت عالقة بأذهانهم، وأثقل كاهلهم بضرائب تؤدى عن كل فرد، لم يستثن منها النساء والأطفال. أنظر:

Edmode Doutte, Marrakech, op.cit.p.397

[196] عبد الرحمان المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار، مرجع سابق.ص.373.

ذلك أن تمردات وانتفاضات الرحامنة لا يتوجب فهمها من داخل مقترب اقتصادي يبحث عن الغائب في البادية/ الحاضر في المدينة، وإنما هي حركيات مجالية وسياسية تروم إعادة كتابة تاريخ النسق وفق نمط جديد من توزيع واقتسام الثروة الرمزية قبل المادية.

فالانتفاضات، وبالرغم من حركيتها المجالية في اتجاه المدينة، أي في اتجاه "خارج القبيلة"، فإنها كانت بمثابة رد فعل على ما يجري "داخل القبيلة"، ضدا على ما كان يمارسه ممثلو المخزن من إكراه وعنف اتصالا بجمع الضرائب التي تتعالى قيمتها وترتفع أصوات المطالبة بها، كلما كانت هناك أزمة أو ضائقة مالية يعاني منها المخزن المركزي، لكن اللجوء إلى الانتفاضة والتمرد لم يكن أول الخطو في تدبير ردود الفعل القبلية، فالوثائق التاريخية تفيد أن الرحامنة كانوا يعتمدون على تدخلات الشرفاء والأعيان لإبلاغ المخزن بمعاناتهم وتطلعاتهم.

ولعل هذا ما دفع ميشو بلير إلى القول بأنه "عندما لا يرتاح الأعيان للقائد سواء عندما يبالغ في طلباته، أو يمتنع عن إشراكهم في امتيازاته، فإنهم يعارضونه ويطالبون المخزن بتعويضه"[197]، وفي مستوى آخر فإن الزاوية تتدخل للشفاعة والحؤول بينهم وبين العقاب المخزني، تماما كما حدث في أعقاب مهاجمتهم لمراكش، وهو ما يؤكده الضعيف الرباطي، متحدثا عن الأمير سيدي محمد بن عبد الله الذي خرج للرحامنة، "فرده سيدي أبو العباس الشرادي لمراكش وصبره وقال له: أنت صاحب مراكش وغيره وأنك ستطلع جبل مسفيوة..و لا يقدر أن يحاربك أحد منهم وأنت صاحب الوقت، وأتهلا في قبيلة الرحامنة، فإنهم ميمونك"[198]، ولربما هذه الواقعة وأخريات مثلها، هي التي ستساعد الزاوية الشرادية على تقوية نفوذها الديني والسياسي بالمجال الرحماني. وهو ما سنتعرض إليه بعدا بتفصيل في ثقل المقدس الزاوياتي.

سادسا: الرحامنة والسراغنة:

لم تكن العلاقة بين القبيلة وجواراتها على نفس المستوى من الأداء في كل الأحايين، فالسياق هو الكفيل بإنتاج الفعل والتفاعل السياسيين لكل قبيلة، فسياقات هذه العلاقة لم تكن خطية وسكونية، بل كانت تصطبغ برهانات امتلاك المجال وتدبيره، كما أنها ترتهن أساسا إلى دينامية ثلاثية الأبعاد تحيل على القبيلة في مستواها الداخلي، والقبيلة الأخرى، فضلا عن السلطة المخزنية التي كانت بتدخلاتها وتحالفاتها مع طرف ضد الآخر، تحدد شكل ومحتوى العلاقة الممكنة.

---

[197] Michaux Bellaire, Le Gharb, In: AM, vol, 20. 1930. p.148.

[198] محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف الرباطي، مرجع سابق، ص.277.

تتأثر العلاقة بين القبائل في مستوى آخر، بالوضع الذي توجد عليه السلطة المركزية، سواء في لحظات انتقال الحكم، وظهور بعض الهشاشة على تدبيرها وتحكمها في المجال، أو مستويات تمثيلها المحلي عن طريق القياد، ما يدفع إلى البحث عن إمكانات جديدة لتوسيع المجال على حساب الجوارات، هذا بالإضافة إلى آليات تسجيل الحضور المخزني المركزي عن طريق "الحركة" و"المحلة"، الشيء الذي يفرض ترتيبا جديدا للمجال، لا بد وأن ينعكس على طبيعة العلاقات القبلية.

في هذا السياق كانت العلاقة بين الرحامنة والسراغنة تتأرجح بين حالة وأخرى مضادة لها، فحينا تظهر القبيلتان معا في إطار تحالف أكبر، تماما كما هو الأمر بالنسبة للحلف الكبير الذي جمع بين الرحامنة والسراغنة ومسفيوة وعبدة واحمر وغجدامة وفطواكة وأولاد عمران والغوانم من دكالة خلال انتفاضة مبارك بن الطاهر، وحينا آخر تظهر القبيلتان في وضعية التناحر والتعارض كما حدث قبلا خلال تمرد سنة 1861، والذي يقول عنه الناصري: "**في سنة 1861، تمرد الرحامنة فحاصروا مراكش أربعة أشهر حتى أوشكت على الاستسلام، فاستنهض المخزن قبائل السراغنة لمواجهتهم**"[199].

إلا أنه يتوجب التذكير في البدء بأن علاقة الرحامنة بالسراغنة، لم تكن دوما على درب التنافر والتناحر، فالتوتر الذي ينشأ بين القبيلتين، قد يعقبه أو يسبقه انفراج معين تفرضه معطيات الوضع الخاص والعام، كما أن هذا التوتر لا يعني البتة القطيعة التامة، فالتبادلات الرمزية والمادية تستمر ضدا على حالة الصراع، خصوصا فيما يتعلق بزيارة الأولياء وتبادل المنافع الاقتصادية وحتى السياسية، فالسراغنة تتوفر على وليين يمكن إدراجهما ضمن خانة"الأولياء من ذوي الإشعاع الوطني"، وهما بالتحديد بويا رحال[200] وبويا عمر[201]، والذين تؤكد الرواية الشفوية أن الرحامنة من أكثر القبائل التي تزورهما و"تعمر" موسميهما. كما أن تخصص السراغنة في إنتاج زيت الزيتون يفرض تبادل المنافع.

---

[199] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق. 126.

[200] هو الولي الصالح ابو العزم محمد بن أحمد بن الحسن بن القاضي السملالي الشهير بسيدي رحال البدالي (لقب بسيدي رحال باعتباره كان دائم الترحال والتجوال، وبالبدالي لكثرة تبدل أحواله)، ولد عام 890هـ، أصوله من قرية تمدولت المشهورة بوادي أقا، والده البدالي مدفون بمحاميد الغزلان، تتلمذ على يد الشيخ سيدي عبد العزيز التباع، عاش في أواخر الدولة الوطاسية وأوائل الدولة السعدية، وقد عاصر سيدي رحال البدالي مجموعة من الأولياء والصالحين نذكر منهم عبد الله بن احساين دفين تامصلوحت، سيدي عبد الرحمان المجدوب، سيدي عبد الله الغزواني وسيدي احمد بن موسى.

أنظر: الحسن شوقي، سيدي رحال البدالي: مساهمة في تاريخ الأولياء بالمغرب، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى. 2008.ص.12.

[201] هو الولي الصالح هو سيدي عمر بن سيدي عبد العزيز بن الشيخ الأكبر سيدي رحال البدالي الشهير ببويا عمر مول المري(صاحب المرآة) ولد خلال العقدين الأخيرين من القرن 16 عشر الميلادي وبقي أميّاً إلى أن بلغ الأربعين من عمره حيث شدّ الرحال لتحصيل العلم إلى زاوية تامكروت وتتلمذ على يد مؤسسها

من جهة أخرى فعندما نستحضر العلاقة الصراعية أو التحالفية بين الرحامنة والسراغنة، فإن هذا الاستحضار لا يدعو إلى التسليم بمبدأ "الانسجام" الداخلي، أي أن الأمر يتعلق بمواجهة قبلية/قبلية، تؤكد التضامن والوحدة الداخلية لكل طرف، فالصراع أحيانا يكون داخليا أكثر منه خارجيا، كما أنه يكون أحيانا حدوديا دون أن يهم الأطراف البعيدة.

تفيدنا الأماكينية في اكتشاف تاريخ المجال، بل إنها تمكننا من قراءة توتراته وتفاعلاته، خصوصا في مستوى الجوار، الذي يحيل على مجالات قبلية أخرى، فعندما نبحث مثلا في أصل تسمية "لمحرة"[202] وهي إحدى الجماعات الحدودية مع إقليم قلعة السراغنة، فإن الرواية الشفوية تؤكد أن التسمية تحيل على "الأرض المحررة"، أي التي تم تحريرها[203]، بعد أن كانت محتلة من طرف دخيل "مستعمر" لها، ما يعكس جانبا من التمثل الضمني للسراغنة في المخيال المحلي.

إن امتلاك المجال والرغبة في توسيعه، يظل في كثير من الأحيان، هو الشرط الموجب للصراع بين الرحامنة والسراغنة، وفي هذا الصدد يخبرنا بن زيدان بأن السلطان الحسن الأول في حركته الأخيرة التي كانت بعدها وفاته سنة 1311 هـ/ 1894 م، نجد أن السلطان اجتاز أيضا على قبائل السراغنة، حيث خيمت محلته بتاملالت، وقام من هناك بزيارة الولي سيدي رحال، وبعد ذلك رجع لينهض جيوشه للسير، وصادف ذلك وقوع نزاع بين فلاحي تملالت وبرابيش الرحامنة، وبعض سكان إيالة القائد العسولي بسبب خلاف على أرض فلاحية مما أدى إلى تدخل السلطان لفكه، وهكذا قام بتأديب المهدي الزبيري قائد البرابيش"[204].

سيدي محمد بن إبراهيم الأنصاري، وكان من المتفوقين، ما جعل سيدي محمد يورثه دربالته، وبعد وفاة هذا الأخير تولى من بعده خلفه سيدي امحمد بن ناصر أمور الزاوية الناصرية الذي أجاز بويا عمر ومنحه مرآة لها شاع أن لها خصائص علاجية تهم عالمي الإنس والجن.

أنظر: الحسن شوقي، بويا عمر: مساهمة في تاريخ الأولياء بتساوت، المطبعة والوراقة الوطنية، الطبعة الأولى.2007.ص.15.

[202] وهي جماعة قروية تابعة من الناحية الإدارية إلى دائرة سيدي بوعثمان، قيادة لوطا، ويحدها شرقا إقليم قلعة السراغنة (الجماعة القروية أولاد زراد واكتاوة) جنوبا جماعتي عكرمة ورأس العين وغربا جماعة أولاد أملول وشمالا الجعافرة وسكورة الحدرة، وتتكون من الدواوير التالية: دوار أولاد ناصر، دوار أولاد إبراهيم، دوار اولاد ابراهيم لعواشرة، دوار اولاد سالم، دوار أولاد عامر، دواراولاد عامر، دوار اولاد عمرو، دوار اولاد القبي، دوار اولاد عبد الله، دوار أولاد علي، دوار أولاد غنام، دوار أولاد سعيد.

[203] كان التلاميذ المغاربة إلى حد قريب يطلقون على العطلة الصيفية إسم "التحريرة" و"تحررنا"، وهو التوصيف الدال على نهاية الدراسة وبداية العطلة، على اعتبار أن الدراسة تحتمل تقييدا وتقعيدا معينا ومخصوصا للفعل الاجتماعي الحر والمتحرر، بل و"تضبطه" ضمن بنية مؤسساتية وأجندة زمنية محددة بقواعد لا يمكن تجاوزها بالمرة.

[204] عبد الرحمن بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الجزء الثاني، مرجع سابق.ص.117.

لقد أثرنا قبلا علاقة الرحامنة بالمدينة(مراكش تحديدا) وبدا واضحا أنها لم تكن تنضبط لنفس الخلفية الخطية والسكونية، وأنها تتحدد بالشرط السوسيوسياسي العام، وهو ما يكاد ينسحب أيضا على علاقة الرحامنة بالسراغنة، فالشرط هو المحدد، وإن كان التوتر ثابتا أو متغيرا. ففي مستوى التمثلات والتمثلات المضادة، يتردد كثيرا في الرحامنة قول توصيفي لحالة السراغنة يضمر نوعا من العداء التاريخي، وهو المثل القائل "كونوا من الشهود السراغنة من جنس اليهود" أو "كونوا شهود السراغنة يهود". وفي مقابل ذلك يرد السراغنة بـ "الرحامنة مساخيط مولاي عبد العزيز" أو "الرحامنة مساخيط سيدنا" أو "الرحامنة مساخيط دار المخزن" أو "الرحامنة عشرة في عقيل".

سابعا: بلاغة العيطة:

تؤرخ الثقافة الشعبية المحلية في مستوى غناء العيطة الحوزية، لكثير من هذه الوقائع التي تبرز العلاقة المتوترة بين المخزن والرحامنة والجوارات القبلية الأخرى، ففي معركة سيدي بوعثمان الشهيرة التي انهزم فيها الشيخ أحمد الهيبة ماء العينين في مواجهة المستعمر الفرنسي في شتنبر 1912 بسبب التقدم الذي كانت تحرزه فرنسا بشريا وعتادا، وأيضا بسبب تآمر "القياد الكبار" عليه، كما تحكي هذه العيطة عن مخلفات انتفاضة الرحامنة التي تفاقمت مع بروز القائد العيادي كحليف استراتيجي للمستعمر الفرنسي.

هذه القصيدة لم تبق حكرا على قبيلة الرحامنة، بل صارت "الشيخات" ترددنها في كثير من القبائل المغربية التي بدأت تعرف سلطة ونفوذ القياد الكبار، وتقول كلماتها:

هزيت عيني ليك آربي
حطيت عيني وافرح قلبي
واللي بغا الله كاع بغيناه
يا ما اضربتو ما اقتلتونا
ياك صكونا صاكونا
ياك صاكونا للزيتون
ياك تم ناض الريتول
وحتى واحد فينا ما هاني
اللي تهرس ها الكرارس
و اللي تفرم يبقى تم
واللي تحف ها شربيلي
واللي تعرى ها سلهامي
واللي بغا اللامة يتعامى

تحزموا وكونوا رجالة
ياودي كونوا عوالين
مشات برا لفم الجمعة
لا خزانة لا عود بقا
وفين عزك آلقصيبة
وآيت عطا وآيت بوزيد
غوثت الشلحة في الجبال
دارتها نوضة وزغاريت
بين الجبال وبين الطرقان
وفي ساعة ولات غمام
ورا الصابرة ولات احرير
وافين ايامك آبن جرير
ياك الغبرا والكور ايطير
ياك الغبرا واكصاص الخيل
و فين ايامك ألاربعا
كان موسم ولا حركة
لا خزانة ولا عود ابقا
و فين ايامك آبو عثمان
اكدات النار بلا دخان
ورا الطرابش كي بلعمان
ورا الموتى كيف الذبان
ورا العسكر حابس البيبان
ورا الخواجة مزوق لولاد

إن هذه القصيدة، كما كتابات الإخباريين تؤكد أن الرحامنة تعرضت لعنف مخزني واستعماري فائق القوة، منذ إخماد انتفاضة الرحامنة وإلى غاية دخول المستعمر الذي واصل تدبير هذه القوة عن طريق سياسة القياد الكبار. وإن كانت في الأصل تؤرخ لمعركة أربعاء الصخور بتاريخ 24 غشت 1912 التي كادت أن تلحق الهزيمة بالفرنسيين، ومعركة 31 غشت 1912 بن جرير، فضلا عن معركة سيدي بوعثمان من نفس السنة، والتي انفرض فيها على جيوش أحمد الهيبة التراجع إلى الجنوب، بالرغم من ارتباطها بهذه الأحداث كما تشير إلى ذلك الرواية المحلية، فإنها تكشف أيضا بعضا من المحن التي عانتها القبيلة جراء انتفاضة بن الطاهر.

الفصل السادس:

القائد العيادي
مسارات القائدية

لماذا القائد العيادي بالضبط؟ ما المبرر الموضوعي للاشتغال عليه في سياق الحديث عن ثلاثية "المخزن، الزاوية والقبيلة"؟ وهل المغزى من استحضاره هنا هو تقديم النموذج المخزني والقبلي في آن، على اعتبار أنه من أنجال القبيلة؟ أم الهدف، هو اتخاذه كـ"متن" لقراءة تحولات القبيلة وانبناءات العينية عبر هذا القائد/ النموذج؟

لا ننكر أن استحضار هذا النموذج يحتمل أكثر من قراءة، ولا يتحدد ضمن مسعى واحد، لكن استحضاره هاهنا يظل مبررا، وإلى حد بعيد، بما حازه الرجل من رساميل رمزية ومادية، وما أنتجه، أو ساهم في إنتاجه، من أوضاع ومآلات رحمانية. فمن يكون القائد العيادي؟

أولا: ميلاد قائد:

هو ميلود بن الهاشمي بن مبارك بن محمد بنزاوية الذي اشتهر باسم القائد العيادي[205] (1880 - 1964)، ينتمي إلى فخدة الشلالكة الواقعة غرب أربعاء الصخور، يتحدر من أسرة مخزنية تقلب أفرادها في عدد من المناصب المخزنية المحلية، كان محاربا كوالده الهاشمي بن مبارك الذي اشتهر كرجل حرب خلال الحركات الحسنية، وكان يعمل كرقاص(ساعي بريد) بين ابن عمه الشيخ أحمد بن محمد الكراوي والقائد عبد الحميد الرحماني بمراكش، وبممارسة هذه المهنة تمكن العيادي من التعرف على بعض أسرار الخدمة المخزنية.

لكن المصادر تشير إلى أن الرجل كان يمتهن الزطاطة واللصوصية من حين لآخر، ألم يقل عبد الأحد السبتي بأن الزطاطة تعني رسم المرور، الذي يحصله الخواص أو ممثلو السلطان، وسواء كانت

---

[205] عمر الإبوركي، القائد وتغير البنيات الاجتماعية في العالم القروي: القائد العيادي ومجال الرحامنة نموذجا، مرجع سابق.ص.166.

الحماية بالخفر أو بإقامة النزايل فإن التحصيل يتطور إلى ابتزاز[206]، إلى الدرجة التي تتهاوى فيها الفروق والحدود بين الزطاط وقاطع الطريق. ولعل هذا ما دفع ماكسويل إلى اعتباره "قاطع طريق محترف"[207]، وهو ما يذهب إليه فردريك وايسجربر الذي يخبرنا أن العيادي "كان من قبل قاطع طريق شديد البأس، فتعقل ثم صار يرتبط بسلطاتنا العسكرية"[208].

من "الرقاص" إلى "الزطاط/ قاطع الطريق"، فالقائدية أخيرا، ينكتب مسار غير عادٍ لرجل خبر الحرب وتفاعل مع معطيات الحركية المجالية والسياسية لقبيلته، واستفاد قبلا من الثروة الرمزية والمادية لأسرته التي تقلبت في الخدمة المخزنية، وإن على صعيد المشيخة، الشيء الذي سيساهم في إنتاج القائدية أخيرا كمآل مبرر بعدد من الشروط والرساميل الفردية والعائلية والقبلية.

لكن ما سيقوده إلى هذه القائدية، بخلاف أسلافه، هو الانتقال من المحلي إلى الوطني، وذلك بنوع من التدرج، وهو انتقال فرضه الانتماء إلى مجال محكوم بالتحالف والتهديد والعبور المخزني(المحلة أو الحركة) والقبلي. لهذا وجد العيادي نفسه يتحالف مع الكندافي بعد أن تآمر عليه كل من المتوكي والكلاوي، ثم سيكون مطلوبا منه أن يبرز قوته لما دعاه المخزن، وباقي القياد الكبار، إلى مواجهة تمرد الروكي بوحمارة، منتقلا إلى تازة التي تعرضت فيها القبائل الحوزية للهزيمة يوم 22 دجنبر 1902.

إلا أن تأييد العيادي للمولى عبد الحفيظ في حلف يضم القائد المدني الكلاوي أيضا سيكون المدخل الرئيس لتوطيد القائدية وإعادة بنائها، خصوصا في اللحظة التي هاجمت فيها الرحامنة وكلاوة[209]، ومن ينتمي إليهما في إطار الحلف الحفيظي، المحلة العزيزية التي كانت متوجهة إلى مراكش، وذلك يوم 20 غشت 1908، حيث تم إرغامها على التراجع إلى الشاوية، وهو ما كان سببا رئيسا في سطوع نجم المولى عبد الحفيظ، الذي لم يتردد في تعيين العيادي قائدا بموجب ظهير شريف مؤرخ في الخامس من يناير 1909.

لكن هذا التعيين الرسمي لم يكن يحمل إيذانا ببسط النفوذ على مجموع تراب الرحامنة، فالمولى عبد الحفيظ عمد إلى تعيين قياد آخرين بالرحامنة، بمعنى أنه عين منافسين/ أعداء احتياطيين،

---

[206] عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق، مرجع سابق.ص.314.

[207] Maxwell G, El Glaoui: Dernier seigneur de l'Atlas (1893-1956), Fayard, Paris, 1968.p.78

[208] فردريك وايسجربر، على عتبة المغرب الحديث، مرجع سابق.ص.305.

[209] يقول فردريك وايسجربر في هذا الصدد: "لقد هرع الكلاوي وقياد الرحامنة وسي الطيب الكندافي، على الرغم من معاداته للكلاوي، بحكم أنه حليف للرحامنة، بموجب ما يسمى باللف، للانحياش إلى مولاي عبد الحفيظ".

أنظر: فردريك وايسجربر، على عتبة المغرب الحديث، مرجع سابق.ص.142.

للرجل، ومنهم على وجه الخصوص القائد عبد السلام البربوشي، وهو ما لم يكن ليستسيغه العيادي، ولا حتى باقي منافسيه، فالزمن آنئذ يقتضي "القيادة الكبرى"، وتحديدا في مجال متاخم لقواد كبار كالكلاوي والمتوكي والكندافي والعبدي.

القائد البربوشي سيحاول، وفقا لهذا الطرح، أن ينتهي من منافسه العيادي، وهو ما جعله، بمساعدة كلاوة، يغير عليه في قصبته المسماة "القليعة" التي انتهبها وحاول تهديمها، فما كان من العيادي إلا أن فر إلى مراكش، ليعيد حساباته من جديد، ويغير من أدائه السياسي والاجتماعي، خصوصا وأن المستعمر الفرنسي قد حل بالبلاد. وهو المستعمر الذي ينتصر لسياسة التهدئة عن طريق تدعيم القياد الكبار.

القائد العيادي منظما وليمة على شرف كبار ضيوفه الأجانب



المصدر: وثائق خاصة لعائلة العيادي

لهذا لم يكن القائد العيادي ليتموقع ضد الاستعمار، بل كان من أصفيائه الذين منحتهم فرنسا "**وسام الشجعان**" اعترافا بدوره بتيسير الدخول الفرنسي إلى مراكش، ونظرا لهذه المكانة التي بات يحتلها لدى المستعمر فقد دُعي إلى اجتماع القياد الكبار مع المقيم العام، وذلك يوم 11 أكتوبر بمراكش 1911، وهو الاجتماع الذي حضره العبدي والكلاوي والمتوكي والكندافي وعشرة قياد آخرين من الجنوب[210].

---

[210] فردريك وايسجربر، على عتبة المغرب الحديث، مرجع سابق.ص.305.

و كما باقي القياد الكبار الذين كانوا يتنافسون على إظهار الخدمة والقرب، فقد شارك إلى جانب المتوكي والكلاوي والكندافي في ملاحقة جيش أحمد الهيبة إلى مدينة تارودانت سنة 1913، هذه الخدمات المتتالية التي قدمها للمستعمرستجعله سنة 1919 يحظى بـ"وسام التقدير" من الحكومة الفرنسية ويستدعى على إثر ذلك لحضور احتفالات النصر بباريس في الرابع عشر من يوليوز من نفس السنة.

لكن عقلية "الزطاط/ قاطع الطريق" لم تغادره بالمرة، لهذا كانت قراراته تحتمل المد والجزر، والفعل ورد الفعل، لهذا سيقرأ القائد العيادي الرسالة مبكرا، وسيرى بأنه من غير المأمون الاستمرار في خدمة المستعمر ومجاراة الكلاوي. فابتداء من خمسينيات القرن الفائت سيرفض العيادي التسليم بواقع تنصيب سلطان جديد هو محمد بن عرفة، وسينظم "حركة" في نفس يوم التنصيب إلى مراكش واجه فيها رجال الكلاوي.

هذا الموقف سيكون له دور بارز في إعادة بناء وإنتاج الوجاهة الاجتماعية لأنجاله وأحفاده[211] في مغرب الاستقلال، وسيمسح جانبا من "جبروت" القائد وتحالفه مع المستعمر، لدى صناع القرار على الأقل، وبسبب إقدام فرنسا على اعتقاله ونفيه ثم فرض الإقامة الإجبارية عليه بمدينة الدار البيضاء، فإن الكثير من التمثلات السابقة سوف تتعرض لإعادة الصياغة. لكن بالمقابل ستستمر تمثلات أخرى ترى فيها "ظالما وقاطع طريق" ما زالت تحافظ على اشتغالها في المجال الرحماني، إنه منطق التمثل والتمثل المضاد، الذي يكاد يحضر باستمرار في الحديث عن الشخصيات التي كان لها دور ما في خلخلة البنية الاجتماعية. فعندما نتأمل هذه العيطة الحوزية مثلا، سوف نلاحظ مدحا لفضائل القائد العيادي:

هزيت عيني ليك يا ربي
وحطيت عيني وافرح قلبي
دوزها قايد في القياد
دوزها القايد العيادي
وكملها حجة في النبي

[211] لقد تم تعيين بعض أبنائه وأحفاده في مناصب مهمة، فابنه الحاج امحمد العيادي عين قائدا ممتازا على الرحامنة، وابنه السعيد عين قائدا بأبي الجعد، والحاج الهاشمي العيادي قائدا بدكالة والشاوية وجبالة، هذا الأخير اختار العمل السياسي بعد تقاعده، ليصير رئيسا لجماعة أربعاء الصخور ومنها إلى البرلمان، ويمكن الحديث أيضا اليوم عن حفيدته النائبة البرلمانية فتيحة العيادي عن حزب الأصالة والمعاصرة، التي كانت صحافية قبلا بيومية البيان جريدة حزب التقدم والاشتراكية الناطقة بالفرنسية، والتي شكلت مع فؤاد عالي الهمة وخاله حميد نرجس الثلاثي البرلماني الذي فاز بالانتخابات التشريعية 2007 بدائرة الرحامنة.

مول القفطان الكبريتي
لحكاما بالفيريتي
مول الشراجم الشبية
مول الثريات الوردية
ورا الخادم تمشي وتجي
ورا العبد يعيط سيدي
ورا اولادو كيف البيزان
ورا اعبيدو كيف الجديان
وياك قايدي في البيرو
واللي بغاتو ليام تديرو
صايك العودة بالمجدول
ولا حسدتوه ديرو كيفو[212]

ثانيا: تجذير القائدية:

وبما أن كل سلطة هي في واقع الأمر "في حاجة إلى عنصرين متفاعلين: العنف والرضا، والقوة الأقوى ليست هي عنف المسيطرين، بل رضا المسيطر عليهم"[213]، فإن القائد العيادي سيستثمر جيدا هذين العنصرين في تجذير مكانته عن طريق آليات اجتماعية متعددة تتوزع على إشهار واستعراض قوته المادية والرمزية وتبرير الانصياع إليها والتفاعل معها، ولنا في التويزة التي استحالت سخرة، أو الإطعام الذي يبدو أسطوريا، والعلاقات مع الاستعمار الفرنسي أمثلة دالة على ثنائية العنف والرضا التي تعضد السلطة وتجذرها. وتساهم بذلك في شرعنة السلطة التي يمكن اختزالها في "تحويل القوة إلى حق والطاعة إلى واجب ضروري"[214].

---

[212] وردت هذه القصيدة بصيغة مخالفة للرواية الشفوية، وذلك في كتاب: حسن نجمي، غناء العيطة: الشعر الشفوي والموسيقى التقليدية في المغرب، الجزء الأول، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى.2007.ص.203.

[213] محمد ضريف، النسق السياسي المغربي المعاصر، أفريقيا الشرق، البيضاء، الطبعة الأولى،1991، ص. 68.

[214] ناصر السوسي، أسس استراتيجية "مخزنة" المجتمع المغربي، مساهمة في دراسة النسق السياسي المغربي المعاصر، 1956/1999، أطروحة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، غير منشورة، ص.15.

إن التصدي للنظام القائدي وملحقاته (الشيخ، المقدم، الجراي[215]) في إطار الانشغال السوسيولوجي، يفترض بحثا في النشأة والامتداد[216]، وهذا ما يضعنا بالتبعية قبالة سؤال إشكالي يتعلق بأسباب هذه النشأة وإرهاصاتها الأولية، فهل النظام القائدي نظام سلطوي محلي الصنع؟ أم أنه نموذج استعماري يعتبر نسخة رديئة أو جيدة للنظام الفيودالي؟ أم ماذا؟

من خلال استقراء نموذج القائد العيادي، يمكن الخروج بملاحظة أساسية، تجعلنا نستعيد ما أثاره روبير مونطاني قبلا، وهو يقول بأن هؤلاء الكبار"يكبرون بعيدا عن المخزن ثم يطمحون في أن يصبحوا رؤساء مخزنيين بشرط الاعتراف بوضعيتهم"[217]. لكن مع التأكيد على أن القائد العيادي كان يواصل تقوية حضوره داخل المجال الرحماني، في تماهٍ تام أو جزئي مع ما يصدر عن السلطة المخزنية، فهو لم يكن ليكبر بعيدا كليا عن أنظار المخزن ودونما التقاط لإشاراته، في حين يظل الاعتراف الرسمي بقايديته مطلبا يتوجب العمل على بلوغه ببذل جهد أكبر، على صعيد الخدمة المخزنية والقرب والقربانية.

على الخادم المخزني أن يتمثل نفسه كخادم وفي يمكن أن يقدم نفسه قربانا لفائدة السلطة المخزنية، وألا يضيره في ذلك شيء، لهذا لم يكن مستغربا أن تلجأ الرسائل السلطانية إلى استعمال عبارات من قبيل "محب جنابنا الشريف، خديمنا الأوفى، خديمنا الأرضى، المتعلق بالأهداب الشريفة"، علما أن هذا القاموس يستعمل أيضا في المتن الزاوياتي والضرائحي "خديم السيد" و"خديم المقدم" وخديم الشيخ".

فالاشتغال المستمر للمخزن على الرمزي والطقوسي ساهم في بناء مجموعة من الإواليات المؤسسة لممكنات الخدمة المخزنية، وفي إطار هذا التكثيف تحضر القربانية كعنصر مؤسس لهذه الخدمة، فليس مطلوبا من النخبة المخزنية إلا أن تهب نفسها كلية وتضعها تحت تصرف من هو أعلى رتبة وسلطة، "فالمريد من خلال وضع نفسه تحت تصرف الشيخ يعمل على التقرب أكثر من مركز السلطة، أي أنه يصبو للمساهمة في صنع القرار"[218]، وهو ما يحقق له نهاية انتماء مؤكدا لسجل نخبة النخبة.

---

[215] وهو آخر شخص في الهرمية المخزنية، كثيرا ما يتم إهماله بصدد الحديث عن النسق المخزني، تماما كما هو الأمر بالنسبة للبراح. والجراي كما يدل على ذلك إسمه، فهو شخص يكلف بتبليغ فحوى القرارات المخزنية، وهو لا ينتهي من الجري، من مكان لآخر، حتى تصل الرسالة على فائق السرعة، ويكون بالتالي عند حسن ظن رؤسائه.

[216] عبد الرحيم العطري، تحولات المغرب القروي: أسئلة التنمية المؤجلة، منشورات دفاتر الحرف، سلا، الطبعة الثانية، 2012.ص.65.

[217] Robert Montagne, Les berbères et le makhzen, op.cit.p.141.

[218] عبد الله حمودي، الشيخ والمريد، مرجع سابق .ص.29

إن علاقات المد والجزر التي كانت ربط المخزن بالقبائل تعد مسؤولة إلى حد ما عن بروز كثير من الظواهر والحالات المجتمعية، ففي ظل هذه العلاقات تنبثق تضامنات مصالحية، وتظهر زعامات جديدة، وتتأسس علاقات جديدة أيضا.

وبما أن النظام القائدي، حسب بول باسكون، يتمأسس على زعامة أو رئاسة متجذرة، فإن هذا يدفعه إلى القول بأن المخزن عمل على تعميم ظاهرة تقوية الرئاسة على شكل قايدية[219]. وهو ما يجعله يتحفظ على طرح روبير مونطاني الذي اشترط ميلاد القائدية بوجود قبيلة مستقلة نسبيا تعين بنفسها رؤساءها، وتختار ممثلا عن أسرة قوية ليتسلم قيادتها[220]. علما بأن معطى الاستقلال التام عن السلطة المخزنية هو مجرد انعكاس لأطروحة التعارض التي بصمت السوسيولوجيا الكولونيالية. ففي كثير من الشواهد التاريخية، نقرأ تعيينات لقياد يتكلفون بتمثيل المخزن حتى في تلك المناطق التي وصفت، في هذه السوسيولوجيا، أنها بلاد السيبة أو بلاد الجمهوريات المستقلة، فالاستقلال"القبلي المزعوم إنما هو جد نسبي، فما هو إلا وضعية جزئية عابرة"[221].

إن المخزن محتاج إلى من يحصل له الضرائب من القبائل، ومحتاج إلى من يمثله في أعماق هذه القبائل، ومن يضمن له جباية هذه الضرائب، ومن يضمن نفوذه الرمزي. وبالطبع فرؤساء القبائل مؤهلون أكثر من غيرهم إلى القيام بهذه المهمة.

يجسد احتلال الموقع القائدي نوعا من الامتداد المخزني، متيحا بذلك فرص التسلط والاغتناء، وبهذه الطريقة يصبح القائد ممثلا للجهاز المخزني ومنخرطا في منظومته ومكرسا لسلطته في حدوده الترابية التي تتوسع وتتقلص حسب الحروب والمنافسات المستمرة مع باقي القياد الآخرين الذين يطمعون أيضا في كسب رضا المخزن بواسطة تطويع المزيد من الأراضي.

و بما أن القائد كان يعي جيدا بأن رضا المخزن عنه يرتبط بمدى تحصيله لأكبر قدر ممكن من الضرائب التي يأخذ عنها نسبة مائوية، فقد كان لا يتورع هو وملحقاته(الشيخ، المقدم، الجراي) عن إرغام الناس على أدائها بأساليب العنف والإكراه، التي تعبر عن سلطوية مطلقة تستمد "شرعيتها" من المخزن المركزي، فهذا الأخير هو الذي دعم سلطة القياد، وساهم في توسيع صلاحياتها، إلى الدرجة التي أصبح فيها كل قايد، وكل تابع له يتوفر على قدر كبير من النفوذ في النظام القائدي، ويستفيد من

---

[219] بول باسكون، الفترات الكبرى للقايدية، تعريب: زبيدة بورحيل، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، الرباط، العدد الخامس والسادس، 1981، ص 71.

[220] بول باسكون، الفترات الكبرى للقايدية، نفس المرجع، ص 70.

[221] بول باسكون، الفترات الكبرى للقايدية، مرجع سابق، ص. 70.

الامتيازات كل حسب إمكانياته[222]. خصوصا في المجال الحوزي الذي شبهه بول باسكون بمثابة رقعة شطرنج، يتفاعل فيها ويتنافس فيها كل من العيادي والكلاوي والمتوكي والكندافي وحتى العبدي، على اعتبار أن "تحليل التتابع البالغ التعقيد للتحالفات الدائرة بين كبار القياد، يجعلنا نعتقد أن الحوز والمناطق الأطلسية حيث توجد قواعدهم للانطلاق كانت بالنسبة لهم رقعة شطرنج يلعبون فيها لعبة التوازن الحساس"[223].

سيؤثر هذا الأداء السياسي للقايد في حركية القبيلة وتفاعلها مع محيطها الخاص والعام، وسيساهم، ضمن عناصر أخرى، في خلخلة البنيات الاجتماعية للمجال، فالقائد العيادي وبسبب علاقاته وممارساته التي كثيرا ما وصفت بالعنف والإكراه، سيدفع بكثير من آل الرحامنة إلى النزوح نحو المدن الكبرى. طبعا هناك عناصر أخرى كالجفاف وجاذبية المدينة وإغراءها، لكن يظل نموذج القائد العيادي سببا رئيسا ضمن هذه العناصر التي أنتجت فيما بعد فراغات سكانية لافتة في المجال الرحماني.

إن المجاعات وارتفاع الأسعار التي عرفها عام البون مثلا كانت وراء إنتاج هذه الفراغات السكانية، فقد وجد الكثيرون من سكان القبيلة أنفسهم مجبرين على الهجرة باتجاه المدن الكبرى هَرَبًا من الجوع والتهاب الأسعار الذي نكتشف بعض ملامحه في وثيقة(بحوزتنا) يتحدث فيها صاحبها عن المجاعة التي ألمت بالرحامنة.

إذ يقول الفقيه المولودي بن العربي العزوزي(صاحب الرسالة) في رسالة موجهة إلى أحد أبناء عمومته المقيم بفاس:"**واعلم حفظك الله ورعاك أننا ما رأينا مسغبة ولا جائحة كهذه، فالجيف في كل مكان، وصار الغلاء الكثير في الحبوب، وفي سائر ما يؤكل من لحم وإدام وغيره، واشتد الجوع حتى أكل الناس الجيف، فعبرة الشعير التي كانت بعشر فرنكات غدت بألف فرنك ...فنسألك أن ترسل لنا بعضا مما أعطاك الله**".

ويستمر الفقيه المولودي في تذكير ابن عمه بارتفاع الأسعار مؤكدا بأن عبرة[224] القمح غدت ب 2000 فرنك، فيما اللحم انتقل من 10 فرنكات للكيلو إلى 150 فرنكا، ففي تلك المجاعة التي وسمت بـ "**عام البون**" والتي كانت لها علاقة بتداعيات الحرب العالمية الثانية واستتباعات السياسة الفرنسية، اعتبارا لكون الطعام حينها كان يقدم عن طريق "وصولات"، فقد عرفت الرحامنة هجرات

[222] بول باسكون، نفس المرجع، ص. 70.
[223] بول باسكون، نفس المرجع،ص.86.
[224] العبرة هي وحدة للقياس، وهي مكيال لوزن الحبوب، وتساوي ما يناهز 12 كيلوغراما.

كثيفة نحو المدن الكبرى. إن هذه الوضعية، مضافا إليها ما حدث قبلا منذ دخول الاستعمار، ستخلخل البنية العقارية والتراتبية بالمجال الرحماني، فعن طريق تحفيز التمليك العقاري عن طريق ظهير التحفيظ العقاري لسنة 1913، فإن الإدارة الاستعمارية، لم تعمل على إلغاء نظام القياد والأعيان، بل عملت على تقويته، والدفع به في الاتجاه الذي يخدم مصالحها الامبريالية، وهو ما ساهم فعلا في تكريس سلطتها، بحيث التمعت أسماء الكثيرين من القياد[225] الذين ساهموا في خلخلة المسار التاريخي لمناطق نفوذهم.

فمنصب القائد في البادية كان مصدر إثراء كبير، ولربما وقع على حساب المحكومين[226]، ولهذا كان القائد يبدو منشغلا في كل حين بتوسيع مجال نفوذه الترابي، لأن القوة تقاس هنا بالأرض التي يجري تنزيل القوة فوقها، لأن الأرض تعد **علامة إشهار** واستعراض لهذه القوة، "فالوظائف الرسمية للقائد والشيخ سهلت للبعض، إن لم نقل الكل، مراكمة الثروات وتوسيع الأراضي"[227]، فعبارة "**بلادو على حد الشوف**" التي كثيرا ما يجري استعمالها في القرى المغربية، لا تكشف فقط عن حدود الملكية، وإنما تشهر وتعلن القوة الرمزية والمادية للمالك.

هذا مع الأخذ بعين الاعتبار، أنه في مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، "فكل استيلاء على الأرض يعني كم رجلا وكم ضريبة يجب اقتطاعها"[228]، إلا أنه في سياق هذه المنافسة حول السيطرة على المجال، وكما يقول بول باسكون "تنسحق القبيلة، وتتشتت"[229]. لهذا تواترت الهجرة القسرية من مجال الرحامنة إلى الدار البيضاء والرباط بدرجة أعلى. فالهجرة القروية التي عرفتها قبائل الرحامنة لم تكن فقط بسبب الجفاف، وجاذبية المدينة، لكن كانت، أيضا، بسبب قهر القياد والكلف المخزنية ونزع الملكية والسخرة.

---

[225] من بين هؤلاء القياد: عيسى البحاتري بمنطقة عبدة، العيادي بالرحامنة، الكلاوي بالحوز، وقد راكم هذا الأخير ثروة هائلة يقول عنها بول باسكون: "فعند تنفيذ الحجز سنة 1958 كان مجموع الملكيات القروية المسجلة في الحوز وحده يغطي مساحة تبلغ 11400 هكتار مسقية وأسرة الكلاوي تملك أكثر من 16000 هكتار في الحوز. وقد قدرت مساهماته في الأعمال الصناعية بمليارين من الفرنكات سنة 1956... وقد حكم مباشرة أو بواسطة أبنائه طيلة 44 سنة عددا من السكان يفوق المليون نسمة إلى حدود سنة 1955 ".

أنظر: بول باسكون، الفترات الكبرى للقايدية، مرجع سابق، ص 72-73.

[226] مصطفى الشابي، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، مرجع سابق.ص.81.

[227] Michaux Bellaire, Le Gharb, op.cit. p.105.

[228] بول باسكون، الفترات الكبرى للقايدية، مرجع سابق. ص.86.

[229] بول باسكون، نفس المرجع.ص.87.

و في هذا الصدد يبرز روبير مونطاني بأن الهجرة القروية المكثفة باتجاه المدن، والتي عرفها المغرب في ثلاثينيات القرن الماضي تعود إلى عاملين مركزيين: الأول يتمثل في الجفاف الذي عرفته البلاد والذي سيدفع الساكنة إلى الهجرة نحو الشمال ومن القرى إلى المدن، وقد نعت مونطاني هذه الحركة بأنها تشبه حركة الجراد وهو يتجه شمالا مدفوعا بغريزته الطبيعية، أما العامل الثاني، فيرجعه إلى استبداد القياد الكبار واتساع الاقتصاد المالي وتجريد الفلاحين من أراضيهم من طرف الفرنسيين[230].

بعد الاستقلال[231] لم تتغير وظيفة القائد وملحقاته، وإن لاحت متغيرة جديدة وهي "**اللاتجذر الاجتماعي**" للقائد، فضلا عن التكوين المعرفي الذي أصبح يتسلح به القياد الجدد الذين يتخرجون من مدرسة استكمال تكوين الأطر بالقنيطرة، وبذلك فهؤلاء القياد "سيصبحون لأول مرة بعد الاستقلال يتقاضون أجرة... بدلا من النسبة المائوية التي كانوا يحصلون عليها من الضرائب المجبية لصالح المخزن أو الاستعمار... سيصبحون موظفين تابعين للدولة المركزية، ولوزارة الداخلية بخاصة"[232]. وهو ما عبد طريق المأسسة أمام الظاهرة القائدية، على الخط الذي رسمه لها المخزن والاستعمار، ولكن وإن كانت بأشكال مؤسسية جديدة، فثمة وظائف جديدة لكن بـ"جينات" بدء وامتداد تقليدية.

و إذا كانت حركية القبيلة، في علاقتها بالمخزن وباقي القبائل، قد لاحت على هذا النحو من التركيب، فماذا عن الزاوية والاحتماء بالمقدس؟ كيف يتم تدبيرهذا الأمر في المجال الرحماني؟ وأي أدوار لعبها الفاعل الزاوياتي في سياق هذا الحركية؟ ذلكم ما نرمي إلى اكتشافه في الفصل الموالي.

---

[230] Robert Montagne, Naissance du prolétariat Marocain, Editions Peyronnet Paris, 1952. p.136.

[231] بتاريخ 20 مارس 1956 صدر ظهير شريف يمنع القياد من أخذ الضرائب، وفق ما كان معمولا به في مغرب القرن التاسع عشر.

[232] محمد جسوس، المقدم والشيخ وجهان للسلطة، جريدة الاتحاد الاشتراكي، بتاريخ 24 دجنبر 1994.

الفصل السابع:

ثقل "الزاوية"
الاحتماء بالمقدس

لم تكن الزاوية بمعزل عن حركية المجال الرحماني، في مختلف مراحله وتحولاته، ففي كل الديناميات المجتمعية نجد استحضارا أو استضمارا للمقدس الزاوياتي، فالعلاقة بين "المقدس والدنيوي مطاطية وحركية، وليست تعارضية ومتوازية، فمكونات العالم الدنيوي ليست غائبة عن مجال المقدس، سواء على مستوى الوعي أو السلوكات"[233].

في حركية القبيلة المجالية والسياسية، وفي علاقاتها مع أفرادها وباقي القبائل الأخرى، ثمة ارتكان إلى المقدس في التدبير والتفاعل، فإعادة الإنتاج تظل محكومة في كثير من الأحيان بالقدرة على استثمار المقدس وتوظيفه، ولهذا لا يبدو غريبا أن يكون "المستوى السياسي/السلطوي في المجتمع المغربي، قد حاول أن يوظف كل المستويات الأخرى"[234] من أجل تدعيم وجوده، ولهذا فقد اعتمد على العنصر الديني بشكل أهم، "فعلاقة السياسي بالديني تتميز بنوع من الجدلية، فالسياسي يستمد مشروعيته من الديني، بما يتضمنه من دلالات رمزية"[235].

إن حضور المقدس في المجال يظهر في المساجد والأضرحة والزوايا، كما يظهر في أشكال التعاقد والطقوس والممارسات الفردية والجماعية، وهو ما سيجري تجذيره مجاليا ومؤسساتيا بعد الانتقال من "الخيمة إلى النوالة"، كتعبير دال على معطى الاستقرار.

خلال مروره بالرحامنة تمكن إدموند دوتي من إحصاء ثلاثة عشر ضريحا وهي: سيدي عبد الله بن ساسي، سيدي البهيليل، سيدي امحمد بنعزوز، سيدي بناصر، سيدي عبد الكريم، بابا عيسى السلموني، سيدي أحمد الركيبي، سيدي ناجي، مولاي عمر، سيدي امحمد الكرن، سيدي عبد الله بو العوينة، سيدي

---

[233] نور الدين الزاهي، المقدس الإسلامي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2005.ص.21.

[234] رحمة بورقية، العرف والعلماء والسلطة في القرن التاسع عشر، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد السابع.1984.ص. 173.

[235] رحمة بورقية، العرف، العلماء والسلطة في القرن التاسع عشر، نفس المرجع، ص. 173.

مفتاح، وضريح أولاد الزعرية[236]. فضلا عن تأكيده على وجود خمس قباب ببن جرير وهي: سيدي عبد الرحمان وسيدي بن عزوز وسيدي أحمد بناصر وسيدي أحمد المراكشي وسيدي أحمد بن الصديق[237].

فالمجال الرحماني لم يكن ليختلف عن باقي مناطق المغرب التي تغطيها شبكة مكثفة من الأماكن المقدسة، التي تتشكل رمزيتها وتتمظهر قدسيتها مثلا في أشجار، ينابيع، أحجار.. ، بل إن هذا المجال سيعرف عددا كبير من الأضرحة والمساجد[238]، وسيعرف، وهذا ما سنثيره بعدا، حضورا قويا للزوايا. فهل الحركية السياسية التي عرفها مجال الحوز عموما تبرر هذه الحركية الدينية التي تلوح في ظاهرة الصلاح والأوليائية التي برزت أكثر في هذه المنطقة؟ أم أن الحاجة إلى "المقدس" تكون أكثر في مجالات الحراك والصراع والتدافع، من أجل امتلاك المجال والتحكم في موارده وعائداته الرمزية والمادية؟

يشير عبد الكبير الخطيبي إلى أن "الضيق الاقتصادي الشديد، تلازمه عصبية قوية ونظام قوي للدفاع عن الذات"[239] والواقع أن المجال الرحماني، وكما رأينا قبلا، هو مجال معطوب من الناحية الجغرافية، فباستثناء منطقة البحيرة فإن باقي مناطق الرحامنة تعرف شحا في الإمكانيات الطبيعية، ومجتمع بهذه المواصفات في حاجة إلى ما يعضده ويدعم وجوده المهدد دوما بإكراهات الطبيعة والجوار القبلي.

فهناك "تشابه بين الضيق الاقتصادي الشديد وثقافة مرتكزة على قيم قوية، فهذه الأخيرة تعوض الأولى وتحدث التوازن داخل النظام الاجتماعي، وبهذا الشكل يحتاج إلى إيديولوجيا وإلى دين"[240]، فمن خلال استدعاء علاقة الرحامنة بعدد من شيوخ الزوايا والأولياء والأشراف، الذين لعبوا أدوارا دينية وسياسية في نفس الآن، يتأكد أن الشرط الجغرافي، مرة أخرى، سيجعل القبيلة تبحث عما يضمن لها الاستمرار والتماسك.

إنه الجواب السهل الذي سنؤجل الحسم فيه إلى حين اكتمال الصورة عن علاقة الرحامنة بتنزيلات المقدس المجالية والسلوكية، والتي سنتناولها في المستوى وفق مدخلين وهما التعاقدات والتضامنات ثم الحضور الزاوياتي.

---

[236] Edmode Doutte, Marrakech, op.cit.p.290.

[237] Edmode Doutte, Marrakech, op.cit.p.305.

[238] عدد المساجد مثلا في مجموع إقليم السراغنة مثلا يصل إلى 1764 مسجدا، فيما باقي مكونات جهة تانسيفت الحوز لا تتجاوز 766 مسجدا بمراكش و1245 مسجدا بشيشاوة و1607 مسجدا بالحوز و1631 مسجدا بالصويرة

أنظر: مجموعة من الباحثين، تقرير الحالة الدينية في المغرب 2007-2008، منشورات المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، الرباط، الطبعة الأولى، 2009.ص.51.

[239] عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى، 1980.ص.175.

[240] عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، نفس المرجع.ص.175.

أولا: التعاقدات والتضامنات:

في مجال محكوم بجوارات لا تحتمل السلم دائما، وفي مجال مكتسب بالقوة أولا، لا يكون السبيل إلى تحصين المجال ممكنا إلا بالدخول في تعاقدات وتضامنات عرفية مع هذه الجوارات، وهي تعاقدات تتم في الغالب برعاية المسؤولين عن تدبير المقدس، من صلحاء وأشراف وشيوخ زوايا، إنها مسنودة بثقل المقدس، وهذا معطى آخر يكشف هشاشة أطروحة التعارض بين "العرف والشرع".

و من الأعراف التي كانت تضبط العلاقات فيما بين الأفراد بالرحامنة، توصلنا إلى مخطوط (بحوزتنا)، يضم بعض الجزاءات المترتبة عن بعض المخالفات التي يتم ارتكابها، وهي الجزاءات التي تضمر وتعلن بدورها التراتب الاجتماعي القائم في القبيلة[241]:

- من سرق شيئا فعليه أربعة من مثل هذا الشيء.
- من سرق غنما، يرد ما سرق أو يؤدي ثمنه ويزيد على ذلك ثلاثة رؤوس من الغنم أوثمنه، ولا يقيم بالرحامنة لمدة عام.
- من سرق شيئا من ضريح أو زواية أو جامع يغرم بمائة مثقال ويرد ما سرق ويزيد على ذلك سبعة أو يؤدي ثمنه.
- في حالة اغتصاب امرأة حرة تعطي مائة ريال (نصاف) وصداق تلك المرأة.
- من أكره المرأة المتزوجة على الزنى يدفع مائة مثقال وتعركيبة[242]، ولا يقم بالرحامنة، وإلا فدمه مهدور.
- من دخل بيت أحد أو خيمة أو دار أو زاوية على وجه الخديعة فعليه 50 ريالا، 25 لرب البيت و25 لـ"اجماعة".

---

[241] سؤال التراتب الاجتماعي في الجزاءات يحيلنا أيضا على دية العبد في تافيلالت: وهو ربع كيلو من فلفل أسود، فقد جاء في وثيقة (بحوزة الباحث أحمد ويحمان) عن جزاءات القتل ما يلي: "من قتل عبدا يعطي لأهله ربع كيلو من فلفل أسود، ويعطي لصاحب العبد ثمن شرائه من السوق".

[242] وهي شكل من أشكال "العار" تلقيه القبائل عموما في حضرة الولي الصالح أو حتى في طريق المحلة السلطانية طلبا للأمان أو توثيقا للعهود والأحلاف والأوفاق، كما يلجأ إلى استعماله الأفراد، لتلافي العقاب وطلب الصفح، ويتأسس هذا الطقس على تقديم ذبيحة للضريح تأكيدا لوثوقية الحلف وقدسية الطلب، وبالطبع فمن "رمي عليه" هذا العار الكبير، ليس بمقدوره رده أو رفضه، لأن اللعنة ستحل به، إن هو قام بذلك. وسميت بالتعركيبة لأن من يريد رميها يفترض فيه أن يقوم بتمرير السكين على عرقوبي الثور من خلاف رجليه، حيث يسقط أرضا من شدة الألم، وما على من "رمي عليه" العار، إلا أن يقوم بذبح الثور حتى لا يتعذب أكثر، وبذلك فقيامه بعملية الذبح يعد قبولا.

- من تعدى على زاوية أو مسلم يغرم ب 12 ريالا.
- من ضرب أحدا بخنجر فعليه "تعركيبة" ودية الجروح ومؤونة المجروح.
- إذا ظهر حمل في امرأة ولم يكن لها زوج، فإن أهلها يعطون 100 ريال وتحرق خيمتها وتطرد من وسط القبيلة.
- من قتل أحدا من القبيلة يعطي 100 ريال وتحرق خيمة القاتل ويرضي أهل الدم، والرضى يكون بتعركيبتين، واحدة لأهل الميت والثانية للجماعة والدية سبعة من الإبل أو 20 من الخيل أو 100 من رؤوس الأغنام.
- من نعت للعدو شيئا من مال القبيلة فيعطي خمسين ريالا نصاف وتحرق خيمته ويغرم ما ذهب به العدو.

و الواقع أن هذه التعاقدات والتضامنات لا تكشف عن أنظمة تدبيرية قانونية صرفة للتحالف واستغلال المجال، بل إنها تفيد في قراءة جملة من التمثلات والممارسات الاجتماعية والثقافية والسياسية سواء بالنسبة لقبيلة الرحامنة أو مجاوريها، إنها نسق ثقافي ثري يعكس تاريخا من التفاعل بين الإنسان والمجال.

أ- **معمار القبيلة**: يتوزع التنظيم الاجتماعي لقبيلة الرحامنة على مجموعة من الوحدات الاجتماعية والمجالية، التي تجد "تبرير" انتظامها في تاريخ من التفاعل الثقافي والسياسي مع واقعتي الترحال والاستقرار، وهو انتظام ينتقل من "الخيمة" كأصغر وحدة اجتماعية إلى القبيلة الكبرى، التي لم تعد تظهر اليوم، كوحدة سياسية، وإنما تلوح كتمثلات وإدراكات تمتد إلى الخطاب والممارسة:

الخيمة: وهي الأسرة الكبيرة المكونة من أبوين وأبناء متزوجين وذريتهم، أو من إخوة وأزواجهم وأولادهم، يكونون مجتمعين في مسكن واحد أو مجموعة مساكن متقاربة، يستدل عليهم بخيمة فلان(خيمة الناجي مثلا) إشارة إلى الأب أو الجد المؤسس، أو يشار إليهم بالأصل القبلي (خيمة السرغيني، خيمة العبدي..)، كما يمكن أن يشار إليهم بأوصاف وانتماءات مهنية (خيمة الصناك، خيمة الشيخ..)، وفي حالة وجود أسر لعبت فيها النساء أدوارا تاريخية فالتسمية تخضع للتأنيث (خيمة ولاد الزعرية، خيمة الرحمانية...). إن ما يميز الخيمة الرحمانية هو كونها تجمع عدة أجيال من سلالة أب واحد، يسكن أفرادها في دار واحدة، وإن تعددت المساكن وطغت "ثقافة العزيل"، فكلها تفيد من مجال واحد وتستعمل الأملاك ذاتها.

لعظم: وهو مجموعة من الخيام، من ثلاثة إلى عشرة أو أكثر من ذلك بقليل، يعتقد في أن أرباب الخيام يتحدرون من جد مشترك، أو على الأقل وفدوا إلى المجال من مكان واحد. والعظم يحيل

من حيث مقابلة المجالي/ الترابي على الدوار الذي يأخذ تسميته، والتي تشير في الغالب إلى الجد المشترك أو الأصل الأول (أولاد ابراهيم، ولاد غنام، أولاد حريز..). لكن وبالرغم من هذا التقابل الترابي، فإن العظم لا يكون دائما "متملكا" للدوار، فقد يكون في الدوار الواحد أكثر من عظم، أو يتوزع العظم الواحد على أكثر من دوار.

الفخدة: أو الفرقة وهي مجموعة عظام يعتقد أنها تتحدر من جد مشترك أكبر، مشكلة بذلك وحدة اجتماعية كبرى يطلق عليها الفخدة أو الفرقة، وهي بذلك تحمل إسم هذا الجد (لبريكيين من بريك، البرابيش من بربوش، الجعافرة من جعفر..)، وللفخدة حدودها الترابية التي يتوجب احترامها من لدن الفخدات الأخرى، لأنه في حالة التهديد، فإن الفخدة تشكل وحدة عسكرية تدافع عن مجالها ورموزها.

الخمس: وبالرغم من كون الخمس والربع مجرد تقسيم جبائي، فإن الرحامنة يعتبرون أن تقسيمهم إلى أخماس لم يكن اعتباطيا، لكنه يظل مبررا بانتماءات علائقية تؤكدها الامتزاجات بين الفخدات، ما ما يدعم التواشج والتقارب الإثني والانتمائي للفخدات المشكلة لكل خمس، لكن الملاحظ في الأخماس الرحمانية أنها غير متساوية، لا من حيث المجالات الترابية ومن حيث عدد الفخدات المكونة لكل خمس.

القبيلة: وهي الوحدة الاجتماعية والسياسية الأعلى في التنظيم الاجتماعي للرحامنة، والتي يعتقد أن تستند في انبنائها وتطورها إلى فرضية الجد المشترك، ولو كان وهميا، وتتكون قبيلة الرحامنة من أخماس وتتوزع على مجال ترابي محدد، وتنتظم فخداتها في تحالف وتعاون كلما كان هناك تهديد، والتي تلتئم حول رموزها الدينية والثقافية التي تؤسس لتضامناتها واستمرارياتها.

ب- اجماعة: تعد "اجماعة" مؤسسة تنظيمية محلية مرتبطة بالدوار (أو الدشر أو القصر كما في الشمال والجنوب المغربي) الذي يأوي عددا من العائلات المتحدرة مبدئيا من جد مشترك، ومنتمية بالضرورة لنسق قبلي واحد، إذ يوكل إليها أمر السهر على تنظيم المشترك الجمعي لهذه العائلات وفق مقاربة تشاورية تنضبط إلى التمثيلية والمشاركة التامة للعائلات المشكلة للدوار[243]. وهي مؤسسة غارقة في القدم عرفتها أغلب القرى المغربية وفق تسميات مختلفة معبرة عن الانتماء المجالي والقبلي، كما عرفت المدن أيضا بصيغ مختلفة في الشكل لا الوظيفة، تماما كما هو الأمر بالنسبة للحنط.

يعد الدوار الترجمة المجالية لـ "اجماعة" في الرحامنة، وعموما فهو يدل على "مفهوم سوسيومجالي قاعدي متجذر في أرياف السهول والهضاب الأطلنتيكية والداخلية بالمغرب، ويتكون من مجموعة أسر تربط أفرادها عادة علاقات إنسانية نمت وتوطدت بفعل تضافر مجموعة من العوامل في مقدمتها

---

[243] عبد الرحيم العطري، تحولات المغرب القروي، مرجع سابق، ص.75.

القرابة العائلية سواء كانت موروثة أو مستحدثة نتيجة المصاهرة، ثم المصالح المشتركة وتبادل المنفعة التي يفرضها الجوار والتعايش"[244].

يتكون الدوار في الغالب من 20 إلى 30 كانونا أو خيمة أو دارا، يوحدهم الانتماء لنفس المجال الجغرافي وتربطهم علاقات اجتماعية واقتصادية وثقافية بحكم قوة هذا الانتماء، الذي يستوجب تنظيما وضبطا اجتماعيا وعلائقيا بالضرورة، وهو ما يتطلب في مرحلة متقدمة من التفاعل الاجتماعي والصراع والتنافس حول المصالح، مؤسسة كفيلة بالتحكيم والتدبير والتصريف العام للقرارات، ففي هذا السياق لاحت "اجماعة" كمؤسسة تشاورية في البدء ثم إلزامية وتوجيهية في تدبير رهانات المشترك والجمعي.

إن الجماعة الممثلة لآل الدوار تتكون من كل رؤساء العائلات الذكور، وفي حالة انتفاء الذكور المؤهلين عمريا[245] للمشاركة في اجتماعات الجماعة، وذلك بالنسبة لبعض العائلات التي تسيرها النساء، فإن الممثل في هذه الحالة يكون ذكرا من أقربائها كالخال أو العم."فهذه الجماعة التي يفترض فيها أن تمثل كل أفراد المجتمع المحلي، لا يشارك فيها فعلا إلا الرجال المتزوجون والقادرون على حمل السلاح، مما يقصي العزاب والخماسة والعبيد (إن وجدوا)، كما توجد عمليا بين أيدي الأعيان الذين يتناوبون على إدارة مجلس الجماعة"[246]، وعليه فأشغال "اجماعة " يترأسها في الغالب أحد الأعيان، الذي يحوز رساميل مادية ورمزية تمنحه نفوذا وتأثيرا في الناس.

تلتئم اجماعة في دواوير الرحامنة بشرط المناسبة، وإن كانت قبلا تنتظم وفق منطق أسبوعي، وآخر يومي عقب صلاة المغرب وقراءة الحزب في انتظار العشاء. إلا أنها اليوم لم تعد تجتمع إلا بمناسبة الأعياد والمواسم، أو في حالات موجبة للاستعجال، ومن منطلق خارجي أكثر ما هو داخلي (بإيعاز من القائد مثلا، وذلك للمشاركة في استقبال رسمي).

و تختص الجماعة وظيفيا بتدبير المشترك من ماء وأرض ومجال مقدس، كما تقرر عمليا في العلاقات مع المستويات القبلية الأعلى، إنها بهذا المعنى مؤسسة تنظيمية تؤطر العيش المشترك عبر تقنين الري واستغلال أراضي الجموع والاتفاق مع فقيه الشرط لتأمين فعالية الحقل الديني والتعليمي، كما أنها تلوح كمؤسسة للتحكيم من خلال رأب الصدع والبت في النزاعات بين آل الدوار، وفي

---

[244] محمد الأسعد، التحولات المعاصرة للمسكن الريفي: حالة هضبة بنسليمان، في كتاب: دينامية المجالات الفلاحية بالمغرب، تنسيق: موسى كرزازي، محمد الأسعد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 121.الرباط ، الطبعة الأولى، 2005.ص.52.

[245] أي أولئك الذين ينطبق عليهم مفهوم حد الصايم الذي يعني كل البالغين القادرين على المشاركة في الأعمال الاقتصادية والدفاعية الخاصة بالجماعة

[246] مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي، معلمة المغرب، الجزء الثاني عشر، مرجع سابق. ص.4118.

مستوى ثالث تقدم نفسها كمؤسسة دفاعية تنافح عن مصالح الجماعة بالتعامل مع المستويات القبيلة الأعلى وتدبير مسألة الحدود والمراعي مع "اجماعات" الدواوير الأخرى.

و بسبب انتقال كثير من المجالات من سلطة "اجماعة" إلى سلطة الدولة، وظهور "البراني" كوافد متنامٍ بالدوار، فإن الزمن اليومي تقلص من حياة الجماعة، ولم يعد متاحا إلا بسقف اشتغال محدود وقرارات غير ملزمة في الغالب، إلا زمن المناسبة وزمن الحاجة. إنه الزمن المغلق الذي يوازي الانغلاق العلائقي والارتكاس الوظيفي.

لم يكن للغريب عن الدوار أو القبيلة أو حلفائها مكان ما في دوار الحنيشات بجماعة لبريكيين مثلا، فحتى من كان يقدم نفسه كخماس، لم يكن ليقبل بسهولة، عليه أن يكشف عن انحداره القبلي الذي يتوجب أن يكون غير بعيد عن دوائر الأحلاف، فلم تكن المنطقة قبلة للمنحدرين من مناطق قصية كسوس وتافيلالت وجبالة إلا بدرجات قليلة ومعزولة في الغالب، لقد حافظ دوار الحنيشات لزمن طويل على تركيبته البشرية المتجانسة بفعل قرابة الأصل أو المصاهرة. لكن مع ظهور ضيعات الديك الرومي بالدوار صار الغريب "مالكا" رمزيا للمجال، ومعجلا بـ"انمحاء" الجماعة، واقتصار لحظات "إحيائها" على شرط المناسبة فقط.

فالجماعة تلتئم لأن القائد يأمرها بالاحتفال بمناسبة وطنية، لهذا تجتمع وتحسم في طبيعة المشاركة التي تكون في الغالب بالفروسية، كما أنها تجتمع، كما حدث في بعض الاستشارات الانتخابية لأن "المخزن" يريد منها أن تصوت لصالح فلان، على اعتبار أنه من "حزب سيدنا" أو أن "المخزن باغيه ينجح".

إن التحولات التي مست مؤسسة اجماعة بدوار الحنيشات لا تنفصل بالمرة عن مجموع التحولات التي عرفها المجال والإنسان في المجتمع القروي، فالمستويات الرمزية والمادية لهذا الدوار لم تسلم من التغير سواء من الناحية الاجتماعية لتدبير اليومي أو في حدود العلاقات والقيم والمعايير التي تضبط إيقاع هذا اليومي.

ج- **الزطاطة:** مجال الرحامنة هو مجال عبوري يربط بين عدد من المدن، إنه مجال السفر والتجارة والحركة والمحلة أيضا، لهذا كان من الضروري أن تشتهر فيه مجموعة من النزالات التي يأخذ فيها المسافر قسطا من الراحة، ليواصل سفره، فبدءا من مشرع بن عبو أو مشرع الشعير كما عرف في مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والذي يؤشر على عبور نهر أم الربيع، تتوالي النزالات من صخور الرحامنة إلى بن جرير فنزالة لعظم ثم سيدي بوعثمان، وتفسر كثرة النزالات في منطقة الرحامنة بإكراهات

المناخ التي تستوجب توقفا من حين لآخر، فلا الإنسان العابر لهذا المجال ولا دواب الضرع والظهر يقدرون على المشي لساعات طوال ودونما توقف، هذا فضلا عن معطى اللصوصية الذي يستوجب الزطاطة والنزالة.

إن الزطاطة حسب تخريج عبد الأحد السبتي كانت "عنصرا ينتمي إلى شبكة من الأعراف الاجتماعية والسياسية التي ابتكرها المجتمع القبلي من أجل تنظيم السلم والتضامن وحماية الطارئ والغريب"[247]، وهذا التأمين سوف يتوزع بالطبع على كثير من المقتربات التي تتفرع إلى التدبير المحلي المخزني وآليات النفوذ القبلي والديني المتمثل في الشرفاء والزوايا، لكن سوف تعرف الزطاطة نوعا من التحوير منذ أواسط القرن العشرين، لتنتقل من معنى حماية المسافر في الطرق المخوفة إلى معنى الرشوة.

فالزطاطة تعني "حماية المسافر أو ما يؤدى مقابل تلك الحماية، وقد تعني رسم المرور الذي يحصله الخواص أو ممثلو السلطان، وسواء كانت الحماية بالخفر أو بإقامة "النزايل" فإن التحصيل يتطور إلى ابتزاز، مثلما تدل الزطاطة في بعض الأحيان على ثمن النجاة، أي ما يبتزه قاطع الطريق من المسافر خلال هجومه على مسافر، أو قافلة، أو حي داخل المدينة. فالزطاطة إذن، حسب سياق الاستعمال، تدل على ثمن الحماية أو الإتاوة أو الجباية أو المكس أو الرشوة أو استغلال النفوذ"[248].

إن اختلال منطق أمن الطرق وصياغة بعض أشكال تأمين السفر وتعارض الأدوار من جانب القوى القبلية والسلطة المخزنية يرجعه السبتي إلى ثلاثة عناصر على الأقل وهي: حركية السلطة المخزنية من خلال الحركة وتعدد العواصم، ثم حركية المجموعات القبلية لأسباب تعود إلى إكراهات المناخ أو جاذبية المرعى أو القرارات الأمنية للحكام، هذا فضلا عن عنصر حركية التحالفات بين المجموعات القبلية أو بين المجموعات القبلية والمخزن[249]. وهو ما يكاد يلوح بشكل أو بآخر في المجال الرحماني، الذي ظل متأرجحا بين اختلال وتوازن أملته شروط سياسية وجغرافية وثقافية متعددة.

و إذا كانت الزطاطة تشير إلى نوع من التعاقد الرمزي بين القبيلة والمخزن وباقي القبائل، فإنها تظل مسنودة بثقل المقدس، ففي مستوى التدبير المخزني أو القبلي أو الزاوياتي، يكون هناك اشتغال دائم على حماية عابر السبيل أو الغريب وفقا لما تؤسسه الثقافة الدينية من ضرورات "إكرام الضيف وحمايته" و"إماطة الأذى عن الطريق".

د- **الخاوة**: حيوية المجال الرحماني وارتفاع عوامل التهديد المحيطة به ستفرض على الرحامنة الدخول في تحالف الخاوة مع قبائل السراغنة وزمران واحمر وعبدة ودكالة، أما قبائل الكيش من

---

[247] عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق، مرجع سابق.ص.313.
[248] عبد الأحد السبتي، نفس المرجع.ص.314.
[249] عبد الأحد السبتي، نفس المرجع. ص.313.

تختلف عن نظام السخرة الذي يفيد عملا قسريا وغير مؤدى عنه، والمثير جدا أنها ما زالت حاضرة وفقا لهذا الفهم، وبصيغ متعددة، وإلى حد الآن، في كثير من مناطق الرحامنة.

ي- المشارط: تتعدد تسميات القائم بهذه المهمة في المجال الرحماني، فهو "الفقير" و"العابد" و"المشارط"، و"الطالب" و"الفقيه" و"فقيه الشرط"، وكلها مسميات لمعنى واحد يحيل على الشخص المكلف بتدبير المجال الديني داخل دوار معين، بناء على تعاقد بينه وبين "اجماعة" يضمن حقوق وواجبات كل طرف.

الرحامنة يضعون حدا فاصلا بين "الشريف" أو "الصالح" وهذا "المشارط"، فالأول يتوفر على رأسمال رمزي مهم يرتبط بالشرف والصلاح، فيما الثاني يتوفر على رأسمال متواضع يقتضي التفاوض معه في مستوى التعاقد الذي يربطهم به. فالشريف لا يناقش ويتم العمل بنصائحه وتعليماته ويجري قبول تحكيمه دوما، فيما المشارط لا يسمح له أحيانا التدخل في شؤون "اجماعة"، فهو يعمل لديها، ولا حق له في تجاوز مقتضيات التراتب الاجتماعي، وإن كان يتوفر على شرعية دينية تؤهله لتدبير المقدس.

يكتسب المشارط تسميته أساسا من الشرط، حيث تربطه شروط عمل قابلة للتفاوض، مع "اجماعة"، والذي يكون في الغالب من خارج القبيلة، فهو من جهته يختص بإقامة الصلاة وتعليم الأطفال أصول القراءة والكتابة وحفظ القرآن والسهر على ممتلكات المسجد، إلا أنه يقوم بالإضافة إلى ذلك، وهذا غير خاضع لأساسيات التعاقد الأولي، بكتابة "السبوب" و"الحروز" ولم لا "صرع الجن" ومداواة بعض الأمراض.

أما من ناحية "اجماعة" فإنها تتكلف بتوفير المأكل والمرقد للفقيه، كما تمكنه من عائد[261] سنوي متمثل في محصول الأرض المخصصة للمسجد، تضاف إليها الهبات غير التعاقدية والتي ترتبط بالعادة والزيارة والرفود و"واجبات" كتابة "السبوب" و"تخراج السلكة". فالفقيه مسؤول من الجماعة، ويتوجب في كل حين الاهتمام به والسؤال عنه، خصوصا إذا أثبت كفاءته في تحفيظ الصبيان والإفتاء والإبراء من الأمراض.

ثانيا: الحضور الزاوياتي:

إن مساءلة المجال الرحماني في حركيته السياسية يفترض فتح نقاش آخر حول الحضور الزاوياتي، وأدواره في ضبط أو تسريع هذه الحركية، خصوصا عندما نعود إلى المصادر التاريخية التي أفردت مساحات شاسعة من اشتغالها للحديث عن الرحامنة وعلاقتهم بزاوية الشرادي وزاوية

---

[261] هناك أيضا عائد أسبوعي يتخذ تسميته من يوم السوق، حيث يسمى في أغلب مناطق الرحامنة ب "ثلاثية" أو "لاربعية"، نسبة، على التوالي، إلى سوقي الثلاثاء ببن جرير والأربعاء بصخور الرحامنة، ويعني هذا العائد مساهمات نقدية وعينية تقدمها الأسر، عن طريق الأبناء، إلى الفقيه، من أجل مساعدته هو الآخر على التسوق.

الأوداية وولاد دليم وحربيل... فالتحالف معها كان يخضع في الغالب لمتغيرات سياسية مرتبطة بانتقال الحكم وعسر الاستخلاف. فيما التحالف مع القبائل الأخرى، وإن كان سياسيا في بعض الأحيان، فإنه يظل اجتماعيا واقتصاديا في الغالب، ارتباطا باستراتيجيات الرعي والانتجاع.

لكن الطاطا أو "الخاوة" بالتعبير الرحماني لا تحتمل دوما الاتجاه نحو المكون الخارجي، فهذا النوع من التحالف يتم أيضا بين نفس مكونات القبيلة الواحدة، بل وبين دواويرها الصغرى، وهو ما يؤكده مبحوث مسن[250] وهو يحكي عن الخاوة بين دوار الحنيشات ودوار الحجرة البيضا المنتمين معا للبريكيين. كما أن أشكال التحالف لا تهم، في إلزاماتها مجموع القبيلة، فقد تهم فخدات محدودة منها، تماما كما هو الأمر للحلف الذي كان يربط القائد الكندافي ببعض فخدات الرحامنة، حسب ما أورده فردريك وايسجربر[251].

و الطاطا حسب رحمة بورقية هي "إرساء علاقات تحالف بين قبيلتين أو أكثر يدعمها طابع شبه ديني ومقدس"[252] وهي تتم على أساس تبادل منفعي معلن وغير معلن، يروم اقتسام احتمالات الاستفادة من المجال، وفي الغالب فالطاطا يتفاوض بشأن "بنودها" و"شروطها" قبلا، ليتم الإعلان عنها في حفل كبير يستدعى إليه الأعيان والعوام، من كلتا القبيلتين أو الفخدتين أو الدوارين، وبعد ذبح الذبائح وشرب الحليب، يتم تكوين[253] علاقات قرابية وهمية، لكنها ملزمة ومؤثرة، بين الأفراد من كلا الجانبين، والذين يصيرون حاملين لصفة جديدة وهي "أوطاطا" أو "الخاوة"، التي تفترض التزاما باحترام مقتضيات هذا التحالف، وإلا فإن الغضب الإلهي سيحل بمن يخل بها. "فالقرابة تصنع هنا صنعا"[254]، وتغدو ملزمة لمن ينضوي تحت لوائها، فكل "فرد من أفراد إحدى فرق القبائل ملزم

---

[250] يتعلق الأمر بالحاج العلالي الرحماني (74 سنة)، دوار الحنيشات، مقابلة بتاريخ: 16 غشت 2009.

[251] فردريك وايسجربر، على عتبة المغرب الحديث، مرجع سابق.ص.41.

[252] رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع، مرجع سابق.ص.96.

[253] تتعدد طقوس تكوين هذه العلاقات القرابية، التي يجري تصنيعها في إطار الخاوة، ويفيد مبحوثونا المسنون بأن هناك طريقتين على الأقل، تحتفظ بهما الذاكرة الرحمانية، الأولى تتم عن طريق بعشرة نعال ممثلي كلا الفخدتين، وإعادة توزيعهما من جديد، بحيث يؤخذ اعتباطا نعل من الفخدة الأولى ونعل من الفخدة الثانية، وعليه فصاحبي النعلين بصيران بقوة هذا الاختيار أخوين يجري عليهما وعلى ذويهما "قانون" الطاطا. أما الطريقة الثانية والتي يؤكد المستجوبون المسنون أنها كانت الأكثر استعمالا، فتتم عن طريق الإرضاع، إذ تجتمع مثلا فخدة ألف وفخدة باء خلال موسم أو في حضرة ضريح معين، ويتم توزيع الأطفال الرضع لكلا الفخدتين على مكانين منعزلين، فتهب نساء الفخدة ألف إلى إرضاع أطفال الفخدة باء، والعكس صحيح، وعليه، فبسبب هذا الإرضاع المشترك ينشأ توصيف جديد وهو "الرضيعة" و"خوت في الرضاعة"، الشيء الذي يؤسس لحقوق ويحدد واجبات والتزامات، تتأطر بالحماية والانتماء وتحريم العنف والزواج في حالة الأخ وأخته في الرضاعة، وهو ما يجعل الفخدتين، تجدان نفسيهما في إطار حلف تضامني معضد بآصرة "الخاوة".

[254] أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إينولتان، مرجع سابق.ص.383.

بواجبات التحالف تجاه كل أفراد الفرق الأخرى"[255]، واختيار كبش الفداء وشرب الحليب كطقس مؤسس للطاطا، لا يخضع للصدفة، بل هو ناتج عن دلالاتهما الرمزية والدينية.

إن الدخول في الطاطا يعني فيما يعنيه إكرام "الآخر" في حال تفضله بزيارته، وعدم مسه بأي سوء، "فالطاطا تسمى أيضا بالخاوة، مما يجبر الأفراد، الذين أصبحوا أخوة، على الالتزام بالالتزامات نفسها التي تقتضيها الروابط العائلية الحقيقية، داخل العائلة نفسها من حماية الأخ واللجوء إليه وقت الشدة"[256] إنها علاقة قرابة وهمية ومصطنعة لكنها ملزمة ومؤثرة في صياغة المآل القبلي.

يطلق الرحماني على من يربطه معه "إلزام" الطاطا، "خيا" أو الخاوة، فيما أبناؤه يعتبرونه خالهم، في تأشير مباشر على تحريم أية علاقة بين "الغريب/ الخاوة" والزوجة، فمناداة الأطفال عليه بالخال، يضعه رمزيا في موقع الأخ الذي تحرم عليه مواقعة أخته جنسيا.

و بسبب هذه الطاطا فقد تمكنت القبيلة من تأمين وتجذير وجودها في المجال الحوزي، كما تمكنت من مقاومة الظروف المناخية الصعبة التي تفرض عليها البحث المستمر عن الكلأ والماء، فهذا التقنين الاجتماعي للعلاقات الداخلية والخارجية المرتكز بدوره على المقدس يحقق الاستمرار ولو في ظل شروط مهددة بالانحسار.

ه- التويزة: تعد التويزة من أشكال التضامن السوسيواقتصادي التي أنتجها المجتمع المغربي للحفاظ على توازناته وتقوية آليات تماسكه واستمراره، تماما كما هو الأمر بالنسبة للوزيعة[257]، وإن كانت التويزة في المجال الرحماني قد حادت عن متنها الأصلي، وذلك بتحولها إلى "تويزة إجبارية" أو "سخرة"، خصوصا مع القائد العيادي، فإنها بالرغم من ذلك تظل من أبرز أشكال التضامن والتحالف المحلي التي تكشف تاريخا من التفاعلات الاجتماعية بين الإنسان والمجال.

---

[255] Capitaine Coursimaut, La "Ttatta", In: Les Archives Berbères, Vol.2, 1917, p.261.

[256] رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع، مرجع سابق.ص.96.

[257] شكل تضامني انطلق في البدء لتلافي الخسارة الفردية وجعلها جماعية حتى يخف الضرر، كأن يكون أحد أفراد الدوار مثلا مضطرا إلى ذبح بقرة تعرضت لحادث ما، فتشترك معه الجماعة في هذه الخسارة، بتمكينه مما يقلل من حجمها، على أساس أن يتم توزيع لحم البقرة بعد ذبحها على جميع المساهمين في درء الخسارة، إلا أن هذا المضمون المرتبط بالخسارة، لم يكن دائما محددا لفكرة الوزيعة، فقد ارتبطت بالرغبة في الحصول على لحم أكثر بثمن أقل، حيث يهب مجموعة من الأفراد إلى شراء بهيمة وذبحها وتوزيعها، وهي عادة ما زال معمولا بها لحد الآن في الرحامنة، كما نصادفها، في حدود، ببعض المدن الكبرى.

و في هذا الصدد يقول إدموند دوتي بأن "الوزيعة عادة عامة في كل شمال إفريقيا فهي تماثل "تيمشرت" عند لقبايل، فهي تأخذ طابع مساندة اجتماعية حقيقية..تساهم في تقوية الرابطة الاجتماعية".

أنظر: إدموند دوتي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة(1901-1902)، مرجع سابق.ص.242.

تعني التويزة نظاما من العمل التضامني الجماعي خلال موسمي الحرث والحصاد، فبالنظر إلى محدودية الإمكانيات المادية والبشرية، لا تجد القبيلة بدا من الدخول في "فعل جماعي" لمجابهة إكراهات الحرث أو الحصاد الذي يستلزم وقتا محددا قد لا يقبل التأجيل، لهذا يتم توظيف أعداد "الزوجة" التي تمتلكها القبيلة لحرث مختلف الأراضي، وبشكل جماعي. كما أن التويزة في الرحامنة لا تقتصر على زوجة الحرث أو سواعد الحصاد، بل تهم حتى حبوب البذر، ففي موسم الزرع يمنح الأعيان البذور لمن لا تتوفر له، لكن هذا المنح يظل مشروطا برد الدين، "فكل خيمة ترسل أحد أعضائها، للعمل بصورة تطوعية في حقول صاحب الفضل(المانح)، أثناء فترة الحرث أو الحصاد، ولا يتقاضى العمال أي أجر مقابل ذلك، ويكتفي المستفيد من هذه العملية بإطعامهم"[258].

تتخذ التويزة ملمحا آخر ارتباطا بالمشارط أي فقيه الشرط الذي يسهر على تدبير الشؤون الدينية لـ "اجماعة"، ففي أغلب الدواوير يقوم أفراد القبيلة بحرث أرض مخصصة لـ "المشارط" أو "الفقير" أو "المقدم" أو "العابد"، وهي كلها تسميات للقيمين على الفضاءات الدينية، وذلك بالاعتماد على التويزة، كعمل جماعي تضامني.

لكن التويزة ستعرف نوعا من الانزياح عن بعدها التضامني التطوعي، لتستحيل ممارسة قسرية إجبارية، أي أنها ستتحول إلى "سخرة" مع بناء الزعامات المحلية وتراجع المفاعيل الرمزية لـ "اجماعة". ففي شكاية[259] كتبت في الأربعينيات من القرن الماضي يتضح أن التويزة تحولت إلى نظام للسخرة مع القائد العيادي الذي اتسعت ملكياته العقارية، إلى الدرجة التي لم يعد بإمكانه تدبير اليد العاملة لحرثها وحصادها، فما كان منه إلا أن فرض على صغار الرحامنة، تويزة قسرية، نقرأ بعض تفاصيلها في هذه الشكاية:

"كان الناس لدى تهاطل الأمطار الأخيرة في شدة الفرح ينوون قيامهم بالفلاحة في الوقت المناسب لها، إلا أن القارعة التي أصابتهم إذاك من لدن سلعة القائد العيادي، عاقتهم عن عملهم الفلاحي في وقته، وهي أن القائد أمر أعوانه بأن يذهبوا لكل ناحية من نواحي الرحامنة ويرغموا الفلاح على إتيانه بأزواجه أو زوجه المعدة للحرث ليعملوا التويزة، وهكذا ظل عمله إلى أن قضى مآربه، وحين رجع الفلاح المسكين إلى أرضه وجد ري الأرض قد غض"[260]. إن التويزة بهذا الشكل لا

[258] روبير أسبينيون، أعراف قبائل زايان، ترجمة: محمد أوزاغ، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، الطبعة الأولى، 2007.ص.41.

[259] عمر الإبوركي، القائد وتغير البنيات الاجتماعية في العالم القروي: القائد العيادي ومجال الرحامنة نموذجا، مرجع سابق.ص.192.

[260] عمر الإبوركي، القائد وتغير البنيات الاجتماعية في العالم القروي، نفس المرجع.ص.192.

تمصلوحت، أو عندما نلاحظ ميدانيا ذلك الحضور المتواصل لعدد من الزوايا كالناصرية والتيجانية والدرقاوية والكتانية التي تتوفر على أتباع ومريدين في كثير من مناطق الرحامنة. لكن هل الزاوية تنتج من داخل القبيلة أو من خارجها؟ وما ضرورتها؟ وما هي آليات اشتغالها؟

إن القبيلة في حاجة دائما إلى الزاوية، ليس من أجل تدبير حياتها الدينية، بل، وهذا هو الأهم، من أجل إثراء علاقاتها وتقوية حظوظ مواجهتها للسلطة المخزنية، فالزاوية تتوفر، في غالب الأحيان على رأسمال رمزي تعددي يتكون من الشرف والعلم والصلاح والكرامة، وتتوفر أيضا على رأسمال مادي يتمظهر في الملكية العقارية والأموال والإعفاءات من الكلف المخزنية، بمعنى أنها تكاد تتماهى مع المخزن في امتلاكاته وسلطاته، فالأسس الرمزية للزاوية تبدو منافسة لتلك التي يستند عليها المخزن.

و القبيلة عندما تعلن الارتباط بزاوية قوية فإنها تبحث لنفسها عن سند روحي وسياسي، يمنع عنها "بأس" المخزن، ولهذا لم يكن غريبا أن يلجأ متزعم انتفاضة سنة 1895 القائد مبارك بن الطاهر إلى ضريح سيدي علي بن إبراهيم بتادلة[262]، بعد استشعار هزيمته، وأن يستقدم معه شرفاء الزاوية للشفاعة له لدى باحماد[263]. وإن كان هذا **"اللجوء السياسي/الزاوياتي"** لم ينفعه أمام باحماد

---

[262] وإن كان إدموند دوتي يقول بأن الرجل "احتمى بزاوية سيدي الزوين ببلاد احمر، فطلب المخزن من الشرفاء تسليمه، وكانوا يظنون أن الغطاء الذي يوجد فوق الضريح لا يمكن مسه بسوء، فتمسك به الطاهر بن سليمان، فارتأوا إخراجه بجر "الزربية" من تحته إلى خارج الضريح، وهنا أمسك به المخازنية وذهبوا به إلى مراكش". إلا أن المؤكد هو كون الرجل احتمى بضريح سيدي علي بن ابراهيم بتادلة وليس بسيدي الزوين.

أنظر: إدموند دوتي، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة(1901-1902)، مرجع سابق.ص.301.

[263] في هذا الصدد يقول لويس أرنو: "و ظهر قائد التمرد الطاهر بن سليمان، ملتفا بغطاء ضريح سيدي علي بن إبراهيم رفقة شرفاء ومقدمي الزاوية الذين جاؤوا به بأمر من السلطان، وقالوا لباحماد: أسيدي، دون إطالة كلام، إنه مذنب بالفعل، لكنه كان مدفوعا من أهل السوء من قبيلته، وقد استجار بحمانا وبجدنا الذي تحترمه أنت أيضا، فلا يحق لك الآن أن تنتقم منه إنه في حمانا.

فأجاب الوزير: بالتأكيد، فأنا مثلكم أحترم سيدي علي بن إبراهيم، لكن ماذا تعتقدون أنه كان سيفعل سيدي علي بن إبراهيم، لو واجه في حياته متمردا مثل الطاهر؟ إنه كان سيقوده حتما إلى المخزن لينال عقابه، ولهذا أقول لكم لا تسامح مع هذا..

فقال الشرفاء: إنك فعلا على صواب ولو أننا لا نعرف ما الذي كان سيفعله سيدي علي بن إبراهيم في حياته، ولكن الأمر يتعلق بحرمته وحماه الشريف المقدس، فانظر في هذا الشقي وغطاء ضريح ولينا فوق ظهره، إن دينك يمنعك أن تمسه بسوء، لقد جئنا إليك واستقدمنا هذا الرجل من منفاه لأننا كنا متيقنين من عفوك.

فقال باحماد: هل تمرد الطاهر بن سليمان ضد سيدنا أم لا أجيبوني؟

- نعم لقد تمرد الطاهر

- أو لم يرد في حديث سيدنا محمد (صلعم): فالذئب لا يأكل إلا الشاردة من الشياه، فالطاهر إذن نعجة ضالة لم يعد من حقها الالتحاق بقطيع الأوفياء فأزيلوا عنه هذا الغطاء الشريف الذي يلطخه بعرقه والذي لن يحميه من أي شيء.

الذي كان منشغلا بإظهار كفاءاته للمخزن العزيزي، لكن لو كان هذا اللجوء قد اختار وجهة زاوية أقوى أو اعتمد اللقاء المباشر مع السلطان، فحتما سيكون له مآل آخر. فكل قبيلة أو مجموعة من القبائل تضع زاويتها فوق كل سلطة[264]، لكن يبدو أن القائد بن الطاهر لم يختر جيدا الزاوية التي تفوق أو توازي سلطة المخزن في مجالات المقدس الرحماني.

يتوجب التمييز بين نوعين من الزوايا بالمغرب، نوع يهم زوايا محلية الطابع، ذات نفوذ محدود من الناحية الجغرافية ونوع ثان يكون له التأثير خارج موطن مؤسسها الأصلي، مما يجعل نفوذها الروحي و السياسي ينسحب على المستوى الوطني، وهو ما حدث مع الزوايا الكبرى من قبيل الشرادية والحنصالية والدرقاوية والوزانية والكتانية والشرقاوية[265].

و إذا كانت الزوايا قد انطلقت في البدء كرباطات دينية تعيل وتكرم من يقصدها، فإنها ستتطور بعدا لأداء مهام الوساطة والتحكيم، بسبب ما تتوفر عليه من أسس رمزية تتمثل في الشرف والعلم والصلاح والكرامة والبركة، ومن مؤديات هذا التطور التوسط أساسا بين القبائل والسلطة المخزنية[266].

يعتبر أحمد التوفيق أنه "في المناطق التي كان فيها تمثيل ضعيف للسلطة المخزنية، أو غياب لهذه السلطة، فإن الزوايا كانت تقوم فيها بالأدوار التحكيمية في النزاعات والخلافات بين القبائل"[267]، وهو ما سيجعل المخزن يسعى إلى "مراقبتها واحتوائها حتى لا تتحول إلى خطر يهدده، وذلك بالاعتراف رسميا بالنفوذ الذي تحظى به داخل المجتمع المحلي وبتكليفها بالقيام بوظائف رسمية لصالح المخزن"[268].

و هذا ما تم بالفعل، حيث جلد هذا الطاهر بعنف حتى كادت روحه تزهق، وجعل في اليوم الموالي في قفص من خشب وجعلت قضبانه من بنادق الرحامنة، ثم حمل فوق ظهر جمل وطيف بـه في جميع أنحاء المعسكر، وقذف بالقاذورات كالكلب، هذا إذن جزاؤه"

أنظر: لويس أرنو، زمن المحلات السلطانية، مرجع سابق،ص.92-93.

[264] رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع، مرجع سابق.ص.41.

[265] Georges Drague, Esquisse histoire religieuse au Maroc: Confréries et zaouïas. Editions Pyronnet.Paris.p.92

نشير إلى أن اللقب الحقيقي لجورج هو سبيلمان وليس دراغ، ولقد عملت كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، وفي إطار إعادة نشرها لنفائس الخزانة، إلى نشر كتابه باسم جورج سبيلمان. أنظر:

Georges Spillman, Esquisse histoire religieuse au Maroc: Confréries et zaouïas. Presentation: Jilali El Adnani.Editions FLSH. Rabat. Serie: Les Tresors de la bibliotheque.n:7.2011.

[266] عبد الرحيم العطري، صناعة النخبة بالمغرب، منشورات وجهة نظر، الرباط، الطبعة الثانية، 2007.ص.34.

[267] أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، مرجع سابق.ص.368.

[268] عبد الجليل حليم، الزاوية والتصوف: عودة الروحي أم النزوع إلى النفوذ السياسي، في كتاب جماعي: الزوايا في المغرب، الجزء الأول، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، الطبعة الأولى، 2009.ص.12.

في هذا المستوى من "**تطبيع**" العلائق بين الزوايا والمخزن ستشتغل آلية ظهائر التوقير والاحترام وإقطاعات الأراضي والعزائب والإعفاءات من أداء الكلف المخزنية، وهو ما يجعل "الولي الصالح يتحول من زاهد متصوف ورجل دين وعلم إلى مستثمر في الميدانين الفلاحي والتجاري، وقد تقوده حيازته على رأسمال مادي إلى جانب الرأسمال الرمزي إلى الطمع في السلطة السياسية"[269] ، وهو ما تكرر في اشتغال عدد من الزوايا الكبرى بالمغرب، والتي لم تكتف فقط بممارسة وظائفها الدينية والتحكيمية، بل تطلعت إلى لعب أدوار سياسية في علاقتها بالمخزن والقبائل[270]. وهو ما حدث أيضا في تقاطع مع حركية المجال الرحماني من خلال نموذجي زاوية الشرادي وزاوية تامصلوحت.

أولا: زاوية الشرادي:

لم يكن الموقف المخزني من الزوايا يستند دوما إلى مقترب الإدماج والتطبيع، ففي اللحظة التي تتعارض فيها المصالح يكون الرفض والتهميش عنوانا لعلاقة الزاوية والمخزن، بل إن هذا الرفض يكون مسنودا بالمقدس مرة أخرى، عن طريق آلية الإفتاء التي تعتبر المد الزاوياتي بدعة وانحرافا عن تعاليم الإسلام.

و بما أن الحوز كان مجالاً تتنازعه القبائل والسلطة المخزنية، فمن الطبيعي أن يحضر طرف ثالث في تدبير وإنتاج هذه العلاقات التنازعية، وهو بالضبط المكون الزاوياتي، فالحوز لم يكن فقط مجال قبائل وبيعات و"بيعات مضادة"، ولكنه كان أيضا مجالا لاختبار سلطة المقدس، في مستوى الزوايا والأوليائية، فلم تخل كتابات الإخباريين من تسجيل الحضور الذي تجسده هذه الزاوية أو تلك، أو هذا الضريح أو غيره.

و عليه فقد كانت الرحامنة كقبيلة حوزية منخرطة بدورها في سياق هذا الثقل والتأثير الزاوياتي، بل إن كثيرا من الأحداث التي عرفتها القبيلة في **حياتها السياسية** وعلاقاتها مع القبائل

---

269 عبد الجليل حليم، الزاوية والتصوف: عودة الروحي أم النزوع إلى النفوذ السياسي، مرجع سابق، ص.13.

270 في هذا الصدد نشير إلى أن المخزن العزيزي كلف الزاوية الشرقاوية للتدخل من أجل إنهاء انتفاضة الرحامنة، حيث يقول ديل إيكلمان بأن"السلطان أناب المقدم سيد الحاج العربي للتفاوض مع قبيلة الرحامنة التي انتفضت إثر وفاة السلطان مولاي الحسن، وحاصرت مدينة مراكش..و قد صدر ظهير عزيزي مؤرخ بـ 4 صفر 1313 الموافق 27 يوليوز 1895 يهنئ فيه السلطان مقدم الزاوية على ما قام به من تحقيق لشروط الأمان التي عادت بموجبها القبيلة المذكورة للخضوع لسلطة المخزن"، لكن المؤكد أن هذه الوساطة الزاوياتية لم تكن هي التي أنهت انتفاضة الرحامنة، كما أبرزنا قبلاء بل إن السبب الرئيسي لإنهاء الانتفاضة هو استمالة المخزن للقبائل المجاورة وتفريق الأخرى المتضامنة مع الرحامنة، فضلا عن اختلال موازين القوى، فالرحامنة كانوا يقاتلون بالبنادق التقليدية، فيما المخزن كان يتوفر على المدافع. وبخصوص ما أثاره ديل إيكلمان أنظر:

ديل إيكلمان، الإسلام في المغرب، الجزء الثاني، ترجمة: محمد أعفيف، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،1991.ص.150.

الأخرى والمخزن تحديدا، كانت تستند إلى أساس زاوياتي أو ضرائحي. وارتباطا بهذا المسار، فقد كانت الرحامنة متفاعلة سلبا وإيجابا مع الزاوية الشرادية، التي بسطت نفوذها الروحي والسياسي على الحوز.

و بما أن المولى سليمان من السلاطين الذين اتخذوا "موقفا متشددا" من الإسلام الزاوياتي، فإنه لم يكن مستبعدا أن يدخل في "حرب" مع الزاوية الشرادية، بسبب انتهاك "حرمة المقدس"، ذلك أن الزاوية الشرادية التي بدأت تتجذر وتقوي نفوذها أكثر فأكثر مع شيخها المهدي بن محمد حفيد شيخها المؤسس أبو العباس الشرادي[271]، تعرضت لما اعتبرته "انتهاكا" لحرمتها، ولما كان سببا رئيسا في إعلان الحرب عليها.

لكن وقبل الحديث عن هذا السبب الرئيس المفتوح على عداوة القائد قاسم الشرادي وشيخ الزاوية المهدي، يبدو ضروريا أن نبحث في الشرط المؤسس لهذا الحرب، والذي يمكن توصيفه بـ"**قضية الأنفاض والمهاريس**"[272]، ذلك أن الأمير مولاي هشام الذي كان ينازع إخوته: مولاي سليمان ومولاي الحسين والراحل مولاي اليزيد في السلطة، ربما اضطر إلى بيع بعض ممتلكاته وتجهيزاته إلى الزاوية الشرادية لتمويل حربه ضد إخوته وحشد التأييد لمشروعه، فقد كانت تربطه علاقة قوية بهذه الزاوية، ولهذا فقد استحرم بها وذلك بسبب النفوذ الذي باتت تستأثر به في المجال الحوزي.

إلا أن السلطان مولاي سليمان الذي بدأت تحسم موازين القوة لصالحه، سيأمر مولاي هشام أن يخرج من الزاوية ويذهب لتافيلالت، فقد "حلف السلطان أن لا ينظر في وجه أخيه هشام وخيره بين أن يمشي لتافيلالت أو يمشي لمكناس ثم وبخ السلطان السيد محمد الشرادي وأمره برد الأنفاض التي عنده بالزاوية، والتي تركها مولاي هشام فيها، وأراد السلطان قبض الشرادي حتى يأتي بالأنفاض، فقال الشرادي للسلطان "إن مولاي هشام قد حبسها وأنت إن أردتها فاقدم عليها وخذها من هناك"[273].

---

[271] مؤسس الزاوية هو "الولي الصالح العارف الناصح، ذو البرهان الواضح، العز الكامل الراسخ، بحر الأنوار، ومعدن الأسرار، وكهف الوفود والزوار، الشائع ذكره في الحواضر والبوادي، سيدي أبو العباس الشرادي، له زاوية على نصف مرحلة من مراكش، عليها مزاره، وله أتباع يتبعون له طريقته بتلك النواحي، وكذلك بفاس الإدريسية..و قد أخذ عن سادة من أشهرهم الإمام سيدي امحمد بن ناصر الدرعي نفعنا الله به"

أنظر: محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، الجزء الرابع، مكتبة الطالب، الرباط. الطبعة الأولى.1986.ص.59.

[272] المهاريس هي المدافع، وقد اتخذت هذا الإسم لأنها شبيهة، من حيث الشكل والوظيفة، بالمهراس وهو الوعاء المجوف من الحديد أو النحاس الذي يدق فيه الطعام والتوابل، فهي أيضا مجوفة ومصنوعة من الحديد والنحاس، أما الأنفاض فهي ما وقع من المتاع والشيء، وتدل الأنفاض والمهاريس في هذا السياق على مجموع الممتلكات التي باعها أو تنازل عنها الأمير مولاي هشام للزاوية الشرادية لقاء دعمها له، في حربه ضد إخوته.

[273] محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف الرباطي، الجزء الثاني،مرجع سابق، ص.543.

لكن الضعيف الرباطي، الذي عرفناه منشغلا بالتفاصيل في قضية "عبور وادي أم الربيع" لا يخبرنا بشأن مآل أوامر السلطان برد الأنفاض، والحرب التي نشبت بين مولاي سليمان والزاوية الشرادية، ولهذا فإننا عندما نستنجد بالناصري لفهم ما حدث فإنه سيعتبر أن ما حدث هو ناجم عن عداوة القائد قاسم الشرادي وشيخ الزاوية المهدي.

يقول الناصري أن أحد المطلوبين لدى القائد قاسم الشرادي، التجأ إلى الزاوية الشرادية طلبا للحماية، فما كان من القائد إلا أن ألقى عليه القبض داخل الزاوية، وهو ما أثار حفيظة شيخها المهدي بن محمد، لتنطلق عداوة معلنة بين الرجلين، ستتحول بعدا إلى عداوة بين الزاوية والمخزن.

و يضيف قائلا بأن "السلطان ولى عليهم رجلا منهم إسمه قاسم الشرادي، فحدث بينه وبين المهدي ما يحدث بين المرابطين وأرباب الولاية، وكان ربما التجأ جانٍ إلى زاوية المهدي فيقبض عليه القائد ويخرجه منها فاستحكمت العداوة بين القائد والمهدي"[274].

سيستغل القائد قاسم الشرادي مناسبة وجود السلطان مولاي سليمان بمراكش ليخبره بأن الزاوية الشرادية ما عاد بالإمكان ضبطها، الشيء الذي يوجب "**قص أجنحتها**"، وهكذا فقد "شرح له **حال المهدي وما هو عليه من التهور والسمو بنفسه إلى المحل الذي لا يبلغه وأنه لا يستقيم أمر المخزن بتلك القبيلة معه، ولم يزل به حتى أعطاه السلطان مائتين من الخيل، أغار بها على الزاوية، فانتهبوها، على حين غفلة من أهلها، وجلهم غائب في أعماله، فتسامعوا بأن الخيل قد عاثت في ديارهم، وجاؤوا على العب والذلول، وأوقعوا بخيل المخزن واستلبوهم من خيلهم وسلاحهم**"[275].

سماح السلطان لقائده بالهجوم على الزاوية، لم يقد إلى تحقيق النصر على الزاوية الشرادية، فقد لقي الجيش المخزني هزيمة قاسية، إذ عمد أتباع المهدي إلى سلب الفرقة المخزنية خيلها وسلاحها، وهو ما لم يستسغه السلطان الذي عاد إليه قائده وجنوده راجلين.

و بالرغم من طلب الشراردة لشفاعة صلحاء مراكش، فإن عامل المدينة عمر بن أبي ستة وعامل الرحامنة القائد قاسم الرحماني، اللذين يكنان غير قليل من الحقد للشراردة، كانا قد تمكنا من تأليب السلطان عليهم، وهو ما جعله يبعث إلى قبائل الحوز والغرب لإعلان الحرب على الشراردة.

---

[274] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السابع، مرجع سابق.ص.196.

[275] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السابع، مرجع سابق.ص.196.

و هكذا نشبت الحرب بين الجيش المخزني وقبيلة الشراردة، والتي انتهت أولى جولاتها بقتل القائد الرحماني وانهزام جيش المخزن، وقد لجأ الشراردة المنتشون بنصرهم آنئذ إلى وضع رأس القائد فوق رمح، وهو ما أثار الذعر في قلوب محاربي باقي القبائل، الذين تفرقت بهم السبل، وتراجعوا خوفا من بأس الشراردة، الشيء الذي جعل السلطان، في صبيحة اليوم الموالي للمعركة، يلفي نفسه لوحده مع جيشه المخزني في مواجهة الشراردة.

فكانت هزيمة السلطان و"أَسْرِه" وهو ما لم يعتبره الناصري أَسْرًا حيث اعتبر أنه بعد محاصرة السلطان قريبا من مراكش، تقدم كبار الشراردة إليه طالبين منه أن يتحيز إليهم **"لئلا تصيبه، العامة، فانحاز إليهم وكان راكبا على بغلته، فالتفوا عليه وساروا به إلى زاويتهم، وأنزلوه بالدار المعروفة عندهم بدار الموسم واحترموه وغدوا وراحوا في خدمته... وبقي عندهم ثلاثة أيام وحضرت الجمعة فصلاها عندهم وخطبوا به ومن الغد ركبوا معه وصحبوه إلى مراكش إلى أن وصلوا إلى عين أبي عكاز فودعوه ورجعوا، ومما قال لهم عند الوداع:"إن الذين أرادوا أن يفتحوا باب الفتنة على الناس، قد سد الله أبوابها برؤوسهم، يعني الرحامنة"**[276].

إن الهزيمة تغلف بالنصر في هذه الحالة، وهو ما انتهجه أيضا المشرفي في تأريخه لهذه الواقعة، إذ يقول بأن السلطان "**جد السير إلى مراكش ودخلها، ثم خرج منها لغزو أهل زاوية الشرادي فانهزم شر هزيمة، ثم عاد إلى مراكش، فرجع إليه المنهزمون عنه تائبين خاضعين وفي عفوه راغبين، فما وسعه إلا الإعراض عن أفعالهم الذميمة وطاعتهم السقيمة**"[277].

لعب الرحامنة خلال أزمة الزاوية الشرادية دورا على قدر عال من الحساسية، فاشتراكهم في الحرب على الزاوية كان بعد أن أقنعهم قائدهم قاسم الرحماني، بأن أراضي الحوز التي تقع في ملكية الزاوية ستكون من نصيبهم بعد الانتهاء من أمرها. وهو ما لم يحدث بعد أَسْرِ السلطان، من طرف الزاوية الشرادية "التي اعتبرت "سوء الفهم" بينها وبين المخزن من صنع الرحامنة لا غير"[278]. وهو ما أكده السلطان ذاته بالقول بأن فاتحي باب الفتنة هم الرحامنة الذين كانت رؤوسهم (قطع رأس قائدهم) خير مغلق لهذه الفتنة.

---

[276] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السابع، مرجع سابق.ص.197.

[277] محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، الجزء الثاني، مرجع سابق.ص.57.

[278] Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit. p.197.

لكن بالرجوع قليلا إلى الوراء سوف نجد أن الزاوية الشرادية لم تكن دوما على خط النقيض مع مصالح الرحامنة، بل إنها كانت تدافع عنها، وتعتبر "سندا روحيا" لها في مواجهة السلطة المخزنية، فالرحامنة كانوا من أكبر مريدي هذه الزاوية، خصوصا على عهد شيخها سيدي أبي العباس الشرادي، الذي أقنع السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالعدول عن مهاجمة الرحامنة، لما بلغ إلى علمه، هجومهم على مراكش وتكشفهم على النساء في الحمامات، إذ يقول الضعيف الرباطي في هذا الصدد:" وأنت صاحب الوقت وأتهلا في قبيلة الرحامنة فإنهم هم ميمونك"[279].

لكن "أَسَر السلطان" الذي انتهى بإنهاء الفتنة، كان إيذانا آخر بتعاظم نفوذ الزاوية، التي يبدو أنها لم تعد تلقي بالا للسلطان مولاي سليمان، إذ عمدت إلى نهب قافلته الملكية القادمة من صاكة الصويرة، وهي القافلة التي كانت محملة بسلع ثمينة، لعلها الحادثة التي أثرت فيها عميقا وعجلت بموته غما، وإن كان الناصري يؤكد أن قبائل ذوي بلال والشياظمة هي التي انتهبت صاكة الصويرة، فإنه لا ينكر كون هذه الواقعة كانت سببا في وفاة السلطان، إذ يقول "**و كان فيها من الذخائر النفيسة والأموال الثقيلة شيء كثير، وهذه الوقعة هي التي هدت أركان السلطان المولى سليمان-رحمه الله- فاعتراه مرضه الذي كان سبب وفاته**"[280].

لكن لما جاء السلطان مولاي عبد الرحمان، فقد وعى جيدا أن ثمة منافسا شديدا "يسيطر" على الحوز وينافسه في شرعيته، خصوصا بعد واقعة "أسر السلطان" والاستيلاء على "صاكة الصويرة"، التي خرجت منها الزاوية الشرادية أكثر انتصارا ونفوذا، "فقد استفاد من تجارب مولاي سليمان مع الزوايا، متبنيا سياسة الاحتواء"[281]، ولهذا فإنه لم يعمد إلى إعلان الحرب على الشراردة مباشرة، بل التجأ إلى "تطبيع" العلاقة معهم، فلما قدموا لبيعته، أصر على التأكيد لهم أن تقليب مواجع الماضي لا يفيد، فقد خاطبهم قائلا: "إن ما فات قد مات، وما نهب في أيام الفتنة فهو هدر، ومن الآن من فعل شيئا يخاف على نفسه"[282]، ولهذا فإنهم ما لبثوا أن ردوا ما كانوا قد نهبوه من صاكة الصويرة، لكنه لم يقبلها منهم، بل طالبهم بتجهيز مائتي فارس للمشاركة معه في حركة إلى درعة.

لكن إدماج الزاوية في الجيش المخزني، وتطبيع العلاقة معها، لم يكن ليمنع عنها واقعة التمرد والاستعلاء، فقد كانت حينها متجذرة النفوذ، ولهذا فإن المولى المأمون الذي ولاه مولاي هشام

---

[279] محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف الرباطي، الجزء الأول، مرجع سابق، ص.277.
[280] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السابع، مرجع سابق.ص.202.
[281] Georges Drague, Esquisse histoire religieuse au Maroc: confréries et zaouïas. op.cit.p.92.
[282] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق.ص.24.

على مراكش، لم تعجب قراراته المهدي زعيم الزاوية، فالقياد الذي عينهم المأمون سيحاربون من طرف أتباع الزاوية، فقد "عمدوا إلى قوادهم الذين ولاهم المولى المأمون عليهم، فقبضوا عليهم وأودعوهم السجن، وانتهبوا دورهم، ووصل المسافرون والتجار إلى باب السلطان مجردين عراة يشكون ما دهمهم من أمر الشراردة"[283].

ولهذا فقد أعلن السلطان مولاي عبد الرحمان الحرب عليهم وخرب زاويتهم، كما عمد إلى تفريقهم وترحيلهم "مسلسلين في الأعناق نحو الرباط وفاس ومكناس وأزغار"[284]، فلم يكن ممكنا الاستمرار في مسار "التطبيع" مع المهدي الذي "عظم ناموسه، وتمكن من جهله قومه، وكاد يتجاوزهم إلى غيرهم، حتى صار يعرض أو يصرح بأنه المهدي المنتظر..فقد ظن المهدي والشراردة أن لا غالب لهم في الله"[285].

لقد استمر القتال سبعة أيام، وفي اليوم الخامس تحديدا رمى عليهم **"مائتين وثمانين بنبة، كلها في وسط الزاوية، تتفرقع عند نزولها، فتأتي على ما جاورها من جدار وغيره، حتى شاهدوا في ذلك اليوم الموت الأحمر، وكانوا هم أيضا يرمون بالكور والبنب من المدافع والمهاريس التي استولوا عليها في محلة السلطان المولى سليمان"**[286].

و بالطبع فإن زاوية الشرادي لم تستطع الصمود طويلا أمام هذا القصف، الشيء الذي جعل شيخها المهدي يفكر في الهرب تطبيقا لما رآه في منامه حسب ما أخبر به أتباعه الذين توجهوا إليه بالسؤال "كيف تفر وتتركنا وأين ما كنت تعدنا؟ ليخبرهم قائلا:"أما أنتم فالذي أورثكم أسلافكم هو الخدمة مع السلطان، فلا تستنكفوا منها، وأما أنا فالذي عندي وسمعته من آبائي أن الحرب تدوم على هذه القرية سبعة أيام، ثم يستولي عليها السلطان الذي يجيء من ناحية البحر وهو هذا"[287].

و بذلك فقد كان فرار المهدي إعلانا مباشرا لانهزام الشراردة وتخريب زاويتهم، فقد "أمر السلطان بجمع الشراردة الذين بقوا بالقصبة، فجمع منهم نحو الألفين، وعاثت الجيوش في بيوتهم وأمتعتهم"[288]. ولأن السلطان يعلم جيدا ما ألحقته الزاوية بمولاي سليمان، فإنه لم يكتف بتحقيق النصر عليها، بل عمد إلى تخريبها وتنقيل الشراردة من الحوز إلى مناطق أخرى، حتى لا تجتمع كلمتهم مرة أخرى.

---

[283] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق.ص.24.
[284] Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit. p.198
[285] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق.ص.25.
[286] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، مرجع سابق.ص.25.
[287] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، نفس المرجع.ص.25.
[288] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، نفس المرجع.ص.26.

و في هذا الصدد يقول الناصري:"و اعلم أن الله سبحانه قد فتح علينا الزاويه الشرادية، وأهلك أهلها الظالمين، ولم تبق لهم باقية. ولا زالت العساكر مقيمة على هدمها وتخريبها، وقد قبض منهم على أكثر من ستمائة رجل، وربحت الناس بما وجدت فيها من الأثاث والذخائر والأنعام..ثم إن السلطان فرق مساجين الشراردة، فسجن بعضهم برباط الفتح، وبعضهم بمكناسة، وبعضهم بفاس، ثم مضى بعد نحو السنة، سرحهم، ونقلهم إلى بسيط أزغار، وجمع إخوانهم من القبائل فضمهم إليهم، ولا زالوا موطنين به إلى الآن"[289].

لقد كانت الرحامنة حاضرة في مختلف المراحل السياسية التي شهدتها الزاوية الشرادية، فحتى في عملية تنقليهم إلى الغرب، ساهم الرحامنة بجمالهم، لأن التنقيل مفاده "شغور المجال" وإمكان "تملكه" من جديد. وإن كان باسكون يصر على أن ترحيلهم لم يكن على ظهور الجمال، وإنما كانوا"مسلسلين في الأعناق نحو الرباط وفاس ومكناس وأزغار"، فالعادة تقتضي ربط المساجين والمغضوب عليهم في عقال(ومنه جاء مثل الرحامنة عشرة في عقيل، كما رأينا قبلا)، وذلك بهدف الإذلال وتقديم العبرة لمن يعتبر.

و مهما يكن من أمر، فدخول الرحامنة في هذه الحرب، لم يكن بهدف الدفاع عن السلطان، بقدر ما كان انخراطا من أجل الأرض، وهو ما يؤكده بول باسكون قائلا، بأن الأمر لم يكن متعلقا "بأزمة سلالية بقدر ما كان منافسة حول أراضي نفيس، فقد صارت هذه الأراضي للشراردة ومنعت عن الرحامنة"[290]. فأمام تعاظم نفوذ الزاوية بدأ المجال الرعوي للرحامنة يتقلص، وأخصب الأراضي تنتزع منهم وتمنح للشراردة. وبذلك يمكن القول بأن "المصالح الرعوية هي المحرك الرئيسي لتمردات الرحامنة، وهي المتحكمة في مناصرتهم لأي أمير، أو في تحالفهم أو معاداتهم لأية قبيلة"[291].

ثانيا: زاوية تمصلوحت:

في استدعاء انتفاضة الرحامنة لسنة 1895، يظهر كيف أن الزاوية لم تكن بمعزل عن الحركية السياسية للقبيلة، فعلى طول اشتغال هذه الانتفاضة تظهر ثلاثية "القبيلة، الزاوية المخزن" كعناصر مركزية في تدبير الصراع، منذ بدايته وإلى منتهاه مع لجوء متزعم الانتفاضة إلى ضريح سيدي علي بن إبراهيم بتادلة.

---

[289] أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثامن، نفس المرجع.ص.25.
[290] Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, op.cit. p.198.
[291] عبد الرزاق الصديقي، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، مرجع سابق.ص.43.

فقبل اللجوء إلى آلية تفريق القبائل التي انضوت تحت لواء القائد مبارك بن الطاهر بن سليمان، اعتمد المخزن على وساطة زاوية تمصلوحت التي كانت حينها تمارس نفوذا روحيا على الحوز المراكشي، فقد تمكن الشريف المصلوحي الذي سيصير بعدا من "المحميين" البريطانيين، من الاجتماع بوفد "من أبرز رجال الزوايا ومن بعض أعيان مراكش ومحتسبها، وذلك بتنسيق مع القائد ويدا للتوجه عند الرحامنة والقبائل المؤازرة لها، تمهيدا لعقد الصلح معها"[292].

و لأن الزاوية تمتلك رساميل الشرف والبركة والصلاح والعلم، فإن تدخلاتها تلقى في الغالب القبول من القبائل، فالشريف الحائز على الشرف والبركة، لا يمكن رفع اللاءات في وجهه، خصوصا إذا استثمر هذا الشريف آلية العار الذي لا يمكن رده، فالعار"ثقل أو حمل معنوي يرمى به على الفرد أو الجماعة، ولا يمكن التخلص من ذلك الحمل أو الثقل إلا بالاستجابة للطلب المرافق للعار"[293]. فعندما يتقدم الشريف إلى القبيلة حاملا معه "لعلام" و"الكساء" الموضوع على قبر الجد المؤسس، فإن ذلك يعني رمي العار، الذي يتطلب الاستجابة، وإلا ستكون عاقبة الرفض كارثية بالنسبة للجميع، فثمة اعتقاد راسخ لدى الرحامنة وغيرهم أن"هناك انتقاما أو عقابا غيبيا يلحق بأولئك الذين لا يستجيبون بكيفية مرضية للطلبات التي ترفق بالعار"[294].

لكن تدخل الزاوية المصلوحية في "قضية" الرحامنة لم يكن بهدف الوساطة المجردة من كل بعد مصالحي، فالتوتر الذي كان يعرفه الحوز آنئذ بسبب تمرد الرحامنة، يهدد في الأصل مصالح كبير الزاوية المصلوحية، ومصالح صديقه وصهره الغنجاوي، فقد كانا معا يتوفران على أراضٍ خصبة بالحوز، ومعاملات تجارية مهمة في هذا المجال، وبالطبع فكل توتر بهذا المجال، لا بد وأن ينعكس سلبا على مصالحهما، لهذا كانت هذه الوساطة.

لكن هل تدخل الشريف المصلوحي في فتنة الرحامنة، كان بإيعاز من المخزن المركزي؟ أو من المفوضية البريطانية؟ أم هو بكل بساطة من أجل حماية مصالحه ومصالح صهره؟

يشير خالد بن الصغير إلى أن المصلوحي طلب فعلا مشورة ساتو البريطاني بطنجة، مجيبا إياه بأن أخبار فتنة حوز مراكش، وخاصة في الرحامنة وصلت إلى طنجة، ومفادها أن قبائل الرحامنة والسراغنة وغيرها تنوي التخلص من قوادها المخزنيين، نظرا لما مارسوه عليها من تسلط وابتزاز.

---

[292] خالد بن الصغير، الزوايا في المغرب والحمايات الأجنبية: نموذجي الزاوية الوزانية والمصلوحية،في كتاب جماعي: الزوايا في المغرب، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، الطبعة الأولى، 2009..ص.227.
[293] ديل إيكلمان، الإسلام في المغرب، ترجمة: محمد أعفيف، الجزء الثاني، مرجع سابق.ص.36.
[294] ديل إيكلمان، الإسلام في المغرب، نفس المرجع.ص.36.

وحذر ساتو المصلوحي من عواقب استمرار هذه الفتنة، ليس على حوز مراكش وما إليه من الأراضي الممتدة جنوبا فحسب، بل على مصير المغرب قاطبة، فطلب منه استعمال نفوذه في المنطقة للمساهمة في إخماد الفتنة المشتعلة وإخضاع القبائل المتمردة لنفوذ السلطان الجديد[295].

كما أن السلطان مولاي عبد العزيز دخل بدوره على الخط آمرا الشريف المصلوحي، على عادة أسلافه، بأن يوظف نفوذه الروحي، ويحاول تحقيق صلح بين قبيلة الرحامنة وقبائل السراغنة ومسفيوة المؤازرة لها، لاستتباب الأمن في المنطقة وتمكينه من الدخول إلى مراكش في أمن وسلام.

و بذلك فقد استجاب الشريف المصلوحي للتوجيه البريطاني والأمر المخزني معا، ودونما تناسٍ بالطبع لاعتبارات مصالحه، فحاول أن يجمع وفدا من أبرز رجال الزوايا ومن بعض أعيان مراكش ومحتسبها، وذلك بتنسيق مع القائد ويدا للتوجه عند الرحامنة والقبائل المؤازرة لها تمهيدا لعقد الصلح.

لهذا لم يكن الشريف المصلوحي ليفشل في مهمة الوساطة، بالرغم من كل العراقيل التي وضعت أمامه بمراكش، فقد توجه بمفرده إلى الرحامنة، ليعود ومعه عدد من أعيان القبيلة إلى مراكش، فقد ذهب المصلوحي لوحده عند الرحامنة، وعاد إلى مراكش ومعه خمس وستون نفرا من أبرز رجال القبيلة، ثم سلمهم رسالة توصية إلى السلطان في فاس طلبوا فيها الأمان على أنفسهم وذويهم[296].

لقد استبشر خليفة السلطان مولاي العباس والقائد ويدا بهذه النتيجة، فاتجه أعيان الرحامنة في طريقهم إلى فاس، إلا أن مبعوثين سريين سخرهم عامل مراكش بن داوود، تمكنوا من تخويفهم ومن زرع الشك بين ظهرانيهم، حين ذكروا لهم أن المخزن يستعمل وساطة المصلوحي للإيقاع بالرحامنة وتسميمهم فور وصولهم إلى فاس، وترتب عن هذا رجوع وفد الرحامنة إلى قبيلتهم[297]، ليستمر التمرد ويفشل الشريف المصلوحي في مسعاه.

لكن أعيان الرحامنة فطنوا إلى أنهم كانوا ضحية مؤامرة من صنع بن داوود، لهذا فقد توجهوا من جديد إلى فاس، وعادوا منها إلى مراكش يحملون معهم رسائل سلطانية تؤكد أن مولاي عبد العزيز يصفح عنهم ويسمح لهم بأن يختارو بأنفسهم قوادا صغارا لتدبير شؤون منطقتهم. وحين علم بن داوود بعودتهم، أمر بأن يغلق أحد أبواب المدينة في وجوههم، فاضطروا إلى استعمال باب آخر للدخول منه على خليفة السلطان مولاي العباس الذي كان مجتمعا مع المصلوحي ومولاي عبد الملك

---

[295] خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856- 1886، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الثانية.1997.ص.125.

[296] خالد بن الصغير، الزوايا في المغرب والحمايات الأجنبية، مرجع سابق.ص.227.

[297] خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856 – 1886، مرجع سابق.ص.127.

عم السلطان ومع القائدين السوسي وويدا. وعرض وفد الرحامنة الرسائل التي حملوها معهم من فاس على الخليفة السلطاني، إلا أن بن داوود رفض بلهجة شديدة أن يأخدها بعين الاعتبار، فأعلن عزمه على رفض المصالحة والاستمرار في مقاتلة الرحامنة بصفتهم لصوصا وقطاع طرق.

و أمام هذا الوضع الجديد لم يكن أمام الرحامنة سوى الرفع من إيقاع تمردهم وطلب الدعم من باقي القبائل الأخرى، اقتناعا منهم بعدم وجود جهاز مخزني يمكن الاطمئنان إليه والاعتماد عليه، لتشتد حدة التوتر بالحوز، وهو ما جعل الشريف المصلوحي يتدخل مرة أخرى ويكاتب السلطان محملا بن دواوود مسؤولية ما يقع بالرحامنة والحوز عموما. لكن رسالة المصلوحي هاته ما كان لها أن تؤثر في السلطان، ما دام قريب بن داوود، أي الصدر الأعظم باحماد، هو "**السلطان الفعلي**".

و بالطبع فإن بن داوود، لما توصل بفحوى الرسالة التي كتبها المصلوحي عنه، لم يجد بدا من إعلان الحرب عليه بمساعدة قبائل أولاد بوسبع وأيت يمور، حيث هوجم يوم الثامن من ماي 1895 بمقر إقامته التي تعرضت للنهب والتخريب. مما اضطره إلى الفرار إلى الصويرة ومنها إلى طنجة، لرفع تظلمه لدى المفوضية البريطانية باعتباره من محمييها. لكن عامل مراكش بن داوود لم يكتف بمهاجمة المصلوحي وحده، وإنما وجدها فرصة سانحة للانتقام أيضا من صهره الغنجاوي، الذي يعد أيضا من كبار محميي بريطانيا[298].

و في ظل الاتهامات التي تبودلت بين الصدر الأعظم باحماد وبن داوود من جهة والمصلوحي والغنجاوي من جهة ثانية، والتي بلغ صداها إلى بريطانيا، كانت الرحامنة الأكثر حضورا في المراسلات، فباحماد يتهم المصلوحي والغنجاوي بأنهما دعما تمرد الرحامنة، وأنهما مسؤولان عن الفتنة التي يتزعمها القائد مبارك بن الطاهر بن سليمان، فيما يردان بأن مهمتهما تنحصر في الوساطة لا غير.

و عموما فالرحامنة وجدوا في الزاوية المصلوحية السند الروحي القوي، الذي يمكن الاعتماد عليه في مواجهة المخزن، بل إنهم كانوا، خلال هذا التمرد يترددون على زاوية المصلوحي ويودعون مواشيهم وممتلكاتهم أمانة لديها، وحتى في اللحظة التي تمكن فيها المخزن العزيزي من إنهاء انتفاضة بن الطاهر، وفرض غرامات قاسية عليهم، فإن الفارين منهم لم يجدوا غير عزائب المصلوحي والغنجاوي ملاذا للاحتماء بها، خصوصا وأن الغنجاوي وجه رسالة إلى المخزن "تتضمن لائحة طويلة بأراضيه وعزائبه في المنطقة، يحذر فيها من مغبة مسها أو مس اللاجئين إليها بسوء"[299].

---

[298] خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856- 1886، مرجع سابق.ص.128.

[299] خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856- 1886، مرجع سابق.ص.130.

و بما أن الغنجاوي كان من أكبر محمي بريطانيا فإن الصدر الأعظم باحماد سيطلب من الجهات البريطانية أن تأمره بأن يسلم اللاجئين من الرحامنة إلى المخزن، والذي قدرهم باحماد بأنهم يشكلون ثلث مجموع أفراد القبيلة، وأن من بينهم بعض "أراذل القبيلة وأجلافها" حسب تعبيره. إلا أن خالد بن الصغير يعترف بأن الوثائق لم تسعف في معرفة كيف توصل الطرفان إلى حل قضية اللاجئين من قبيلة الرحامنة إلى أراضي الغنجاوي[300].

و مهما يكن من أمر فإن المخزن حينها كان قد تمكن فعلا من إنهاء تمرد الرحامنة، وأثقل كاهلهم بالغرامات وساقهم نحو سجون مراكش والصويرة "مسلسلين في الأعناق"، وبدا واضحا لكثير من آل الرحامنة أن الزاوية المصلوحية يمكن التعويل عليها فعلا، ولهذا لم يكن مستغربا أن نكتشف خلال التحري الميداني أن عددا مهما من المبحوثين يصرون على زيارة زاوية تامصلوحت من حين لآخر.

لنتأمل الآن كيف تتطور سلطة الشريف/ الزاوية من الممارسة الدينية الصرفة إلى الوساطة والتحكيم القضائي والسياسي، وكيف يمتد النفوذ الروحي إلى مدارات النفوذ السياسي، الذي يجعل من هذه السلطة، **سلطة فوق السلط**، تنجح فيما عجز فيه المخزن المحلي والمركزي.

لقد خلص ميشو بلير إلى أنه في حالة وجود سلطة قوية، ينحصر دور الزوايا في أداء وظيفتها الدينية، وفي ظل حكم مترهل تقفز الزاوية إلى المشهد السياسي، وعليه فتاريخ المغرب عند بلير يتجسد في تناوب التعاون أو التنافس بين المخزن والزوايا[301]

لقد كان من الممكن أن تنجح هذه الوساطة لولا وجود سلط مضادة أخرى، كانت ترى في "قص أجنحة" قبيلة الرحامنة ضرورة مخزنية، فبالرغم من انتقال أعيان الرحامنة إلى فاس، وحصولهم على "رسائل سلطانية جاء فيها أن مولاي عبد العزيز يصفح عنهم ويسمح لهم بأن يختاروا بأنفسهم قوادا صغارا لتدبير شؤون منطقتهم"[302]، فإن عامل مراكش عباس بن داوود الذي لم يكن ليقبل نجاح وساطة الشريف المصلوحي، سيسعى جاهدا لرفض المصالحة مع الرحامنة، ضدا على الرسائل السلطانية.

و هو الرفض الذي جعل أعيان الرحامنة يعودون إلى قبيلتهم والتسليم بعدم "وجود جهاز مخزني فعلي يمكن الاطمئنان إليه للحصول على حقوقهم..ثم قرروا الانتقام لأنفسهم بأنفسهم،

---

[300] خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856- 1886، مرجع سابق.ص.131.

[301] Michaux Bellaire, La Maison d'Ouezzane, In: Revue du Monde Musulman, Vol V, Paris, Mai 1908, p.28.

[302] خالد بن الصغير، الزوايا في المغرب والحمايات الأجنبية، مرجع سابق.ص.228

وعقروا الذبائح على عتبات كل الزوايا المجاورة لأراضيهم، حتى يستقطبوا سكانها ويستفزوهم للالتحاق بحركة التمرد، فاستجابت لدعوتهم ثلاث عشرة قبيلة"[303].

لنلاحظ مرة أخرى كيف تسجل الزاوية سلطتها ليس فقط في مستويات التحكيم والوساطة، ولكن حتى في استثمار آلية العار، فالرحامنة، بعد استشعارهم لعُسْرِ المصالحة، لجؤوا إلى الذبائح على عتبات الزوايا[304] والأضرحة التي تمارس نفوذا روحيا على القبائل المجاورة. وعندما يكون العار مرتبطا بسجل المقدس والنفوذ الروحي والسياسي، ويكون مقرونا بالذبيحة، فإنه لا يقبل الرفض أوالتأجيل أو التلكؤ، وإنما يستلزم الاستجابة العاجلة.

إنه "ثقل المقدس" مرة أخرى، ففي كل الديناميات الاجتماعية والسياسية نكتشف هذا الاختراق الذي يعتبره عبد الله العروي أنه كان بملمح أفقي وعمودي للمجتمع المغربي[305]، فقد عرفت نهاية القرن التاسع عشر حضورا نوعيا للزوايا داخل المجتمع[306]، وهو حضور لافت تتحدث عنه المصادر لارتباطه أساسا بحقل المقدس وانفتاحه المباشر على مزاحمة السلطة ومنافستها في أسسها الرمزية التي تستند عليها في بناء شرعيتها وضمان استمراريتها.

لهذا كله، كانت قبيلة الرحامنة، كما أغلب القبائل المغربية واقعة تحت نفوذ روحي لزوايا متعددة، ومستثمرة، من جهة أخرى، لهذه العلاقات الزاوياتية في تدبير صراعها مع المخزن، وتأمين وتيسير حركيتها المجالية والسياسية. وسواء في مستوى التعاقدات والتضامنات القبلية أو في مستوى الحضور الزاوياتي، فإن الأعيان كانوا، وما يزالون، حاضرين بمقدار ما في تدبير وصناعة هذه الحركية، فالعينية لم تكن في أية لحظة من لحظات التحول الاجتماعي والسياسي، مجرد ممارسة طارئة أو معزولة عن سياقها، إنها مكون بنيوي ومؤسس لكثير من العلاقات والأنماط والتفاعلات التي تعبر عن الجماعة وتعلن عن وجودها.

---

[303] نفس المرجع.ص.228.

[304] آلية العار استثمرها الطيب الكوندافي مع قبيلة الرحامنة، لما طلب حمايتهم، بعد أن تعرضت له جماعة محسوبة على القايد المتوكي، ففي أواخر أبريل 1906 قام بذبح ثور لزاوية بن ساسي ليطلب مساعدة الرحامنة. أنظر:

بول باسكون، الفترات الكبرى للقايدية، مرجع سابق.ص. 129.

[305] Abdellah Laroui, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, op.cit.p.154.

[306] نور الدين الزاهي، الزاوية والحزب: الإسلام والسياسة في المجتمع المغربي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2003.ص.8.

محاولة في التركيب

من القبيلة إلي القبلية

لقد بات واضحا، من خلال ما سبق، أن البنيات التقليدية المؤسسة للتضامن الجمعي، قد تعرضت لمزيد من التكسير والتدخل وإعادة التشكيل، بدءا من الفترة الاستعمارية وإلى غاية مرحلة الاستقلال التي شهدت تعميق نفوذ الدولة/ المخزن. فالقبيلة سوف تتوارى كمؤسسة تنظيمية، ومن دون أن تغيب كبنية موجهة ومحددة للتصورات والممارسات والقيم، بما يدل على أن الانتقال حدث من القبيلة إلى القبلية Du Tribu Au Tribalisme.

يقول رحال بوبريك بأن القبيلة، أية قبيلة، هي بالضرورة "مجموعة بشرية مكونة من قسمات ومجموعات اجتماعية يجمع بينها رابط القرابة الدموية(حقيقي أو وهمي) وتحتل مجالا ترابيا تمارس عليه سلطتها وتدافع عنه مع خضوعها لقيم وتمثلات ومبادئ مشتركة"[307]، فإلى أي حد ما يزال ينطبق هذا التعريف على واقع القبائل المغربية آنا، خصوصا عندما نجد أن فرضية امتلاك المجال وممارسة السلطة عليه، قد سحبت من هذه القبائل لفائدة الإدارة الترابية؟

أولا: إحياء القبلية:

لقد انتهى مغرب القبائل مع إعلان موت "اجماعة"[308]، لكن **مغرب القبليات** سيظهر متخذا صيغا وانبناءات شتى، وهو ما يلوح جليا في الدعوات المحلية إلى الانتصار إلى الأصل القبلي، وتقديم الولاء للقبيلة على الولاء للوطن، بما يدل على أن العسر الملاحظ في شأن الانتقال من المخزن إلى الدولة، قد امتد أيضا إلى واقعة الانتقال من الانتماء القبلي إلى الانتماء الوطني.

---

[307] رحال بوبريك، دراسات صحراوية: المجتمع والسلطة والدين، دار أبي رقراق، الرباط، الطبعة الثانية.2008.ص.104.

[308] مع الدخول في مسار خلق الجماعات الإدارية سنة 1916، وتأطير هذا التوجه بظهير شريف صادر بتاريخ 27 أبريل 1919، والذي حدد أدوار هذه الجماعات وأشكال تدبيرها، تم الإعلان رسميا عن موت "اجماعة"، لكن وكما قلنا قبلا، من دون تشييعها إلى مثواها الأخير، لهذا يمكن القول أنه بدءا من هذه الفترة بدأت "اجماعة" تشهد مرحلة احتضار لا غير.

لكن، هل الدولة التي أعلنت أنها جاءت لتكسير الأساس العرقي القبلي واستبداله بالأساس الترابي الإداري، قد أسست فعلا لخيار الولاء للوطن بدل الولاء للقبيلة؟ أم انها أسهمت بقسط وافر، عن طريق ممارساتها وتدخلاتها، في إعادة تشكيل البنيات والتصورات القبلية، وفق ما تؤطره وتدعمه الخطاطة التالية: "**مؤسسات عصرية بممارسات وتمثلات تقليدية**"؟ فهل ما زالت القبيلة حاضرة كإطار اقتصادي وسياسي؟ أم أنها توجد فقط كتصور وكسلطة رمزية تحدد السلوكات والانتماءات؟

لقد تم الإعلان في الثاني والعشرين من يناير 2009 عن إحداث 13 عمالة وإقليم جديد[309]، بهدف تكريس سياسة القرب وتجويد الإدارة الترابية[310]، والواقع أن أغلب العمالات والأقاليم المحدثة في هذا الإطار، اتخذت تسميتها من المراكز الحضرية الكبرى التي تنتمي إليها، جريا على عادة استبدال الأساس القبلي بالمعطى الترابي، إلا أنه في حالة إقليم الرحامنة، فالملاحظ أنه تم الاحتفاظ باسم القبيلة بدلا من تسمية العمالة بإقليم بن جرير مثلا.

فالدولة التي تصرح بكونها مع الأساس الترابي، هي ذاتها التي تعيد إنتاج القبلية، وتؤسس لاستمراريتها[311]، وهو ما نلاحظه أكثر في التعامل مع الأقاليم الجنوبية حيث يتم استدعاء البعد القبلي، بدل التعاطي مع البعد الترابي والإداري في العلاقة الممكنة مع مواطني الصحراء المغربية.

إن التقسيم الترابي الذي اعتمدته الدولة في الأقاليم الجنوبية استحضر التوازنات القبلية بالدرجة الأولى، ولا يبدو أنه انشغل باستبدال الأساس العرقي بالأساس الترابي الإداري، وفي هذا الصدد يقول محمد دحمان بأنه تم "التمكين" لقبائل معينة بأقاليم محددة، وهكذا فقد "مكنت لقبيلة

---

[309] ويتعلق الأمر بكل من وزان وسيدي سليمان وجرسيف والدريوش وبرشيد وسيدي بنور واليوسفية والرحامنة والفقيه بنصالح وميدلت وتنغير وسيدي إفني وطرفاية.

[310] لكن لا يجب أن ننسى أن التقسيم الترابي بالمغرب تقف وراءه دواع أمنية، فالدار البيضاء مثلا التي كانت تتكون من عمالة واحدة، صارت بعد انتفاضة 1981 تتكون من خمس عمالات، ثم 9 عمالات عشية أحداث السادس عشر من ماي 2003، فهل التقسيم والحالة هاته مجرد جواب تنموي أم أنه رد أمني ينضبط لقاعدة "تقسيم أكثر من أجل ضبط أكبر"؟

[311] ثمة حادثة وقعت يوم السبت 29 ماي 2010، بالجماعة القروية الشبيكة بإقليم طانطان، والتي توجه إليها عدد من أفراد قبيلة الرحامنة من البرابيش، من أجل الترحم على أجدادهم بمنطقة أخوي بذات الجماعة المذكورة، الشيء الذي جعل أفرادا من قبيلة الزركيين يتصدون لهم ويمنعونهم من هذه الزيارة بدعوى ألا علاقة تربطهم بهذه المنطقة، وأنها تدخل في نفوذ قبيلة الزركيين، والغريب في الأمر أن السلطات المحلية لم تتدخل لإنهاء هذا النزاع، وهو نفس الموقف الذي تبنته أيضا في السنة الفائتة لما منع وفد من السباعيين من زيارة مقبرة بالسمارة، وهذا كله يسير في اتجاه تأكيد فرضية الانتقال من القبيلة إلى القبلية.

أنظر: جريدة المساء، 3 يونيو 2010.

الركيبات بإقليم السمارة، ولأولاد دليم بإقليم وادي الذهب، ولقبيلتي أولاد تيدرارين والغروسيين بإقليم بوجدور، ولقبيلتي تكنة والركيبات بإقليم العيون"[312].

لقد عرفت الرحامنة تحولات كبرى اقتصادية وديمغرافية وسياسية ومجالية، إلا أنه بالرغم من ذلك كله فإن الولاء القبلي ما يزال، على قدر عال من الأهمية، وذلك في ترتيب التصورات وإنتاج القيم وتأطير العلاقات والتفاعلات، فالحضور القبلي يظهر أكثر في السلوك الانتخابي، الذي يكون فيه التصويت لفائدة "ولد القبيلة"، وليس لبرنامج الحزب وخطه الإيديولوجي، كما يظهر في توكيدات الأصل والانتماء، عبر التواصلات اليومية للمغاربة، فعبارة "**مين نت**" والتي تسبق السؤال عن الإسم أو المهنة أو المسار الدراسي، نجدها تتساءل عن الأصل القبلي أولا، وليس عن الأصل الترابي والإداري، اعتبارا لكون الأصل القبلي المحدد الفعلي لأنماط العلاقة المفترضة.

إن الاعتزاز بالقبيلة واضح في تصورات الكثيرين من الأفراد، وهو ما يؤكد استحالة محو القبيلة من عمق التمثلات، بما يؤكد بأن الذي حصل انتقالا، فقط، هو استبدال القبيلة بالقبلية، فالقبيلة تلاشت كمؤسسة تنظيمية، لكنها ما زالت حاضرة كنظام رمزي محدد وموجه للقيم والتصورات والممارسات. إن التحولات الاجتماعية لا تتخذ بالضرورة مسارات واضحة وخطية في اتجاه واحد، إنها أشبه ما تكون بخطوط تحتمل الامتداد والانكسار والارتفاع والانحدار والتوازي والتقاطع، فليس هناك من تحول اجتماعي واحد وموحد الأداء والاتجاه، وهذا ما يجعل التحول بارزا ومتسارعا في حالة ما، وبطيئا وغير ملحوظ في أمور أخرى.

وهذا يعني أن التحولات التي عرفتها الرحامنة ليست كلها على نفس الدرجة والنوع، وإنما هي تحولات مختلفة الأبعاد والمواصفات، فهي من الناحية الديمغرافية والمجالية قوية وبارزة، لكنها على مستوى التصورات والقيم تظل أكثر تباطؤا، كما أنها لا تكون مؤثرة في مجموع النسق، فقد تهم جوانب منه، في حين تظل أساسيات أخرى منه، محافظة على استمرارية مكوناتها ومحدداتها الثقافية الأولية، وهو ما نلاحظه بالضبط في تدبير اللحظة الانتخابية، حيث الانتماء متواصل، إلى سجلين متناقضين، الأول عصري مؤسساتي والثاني تقليدي شخصاني.

إن الانتقال من القبيلة إلى القبلية، وإن كان ثمرة مباشرة للتكسيرات التي دشنت خلال الاستعمار واستمرت مع الاستقلال، فإنه يعد أيضا نتاجا خالصا لمسارات مخزنة المجتمع، وتراجع الجمعي وبروز الفردي. وهو أيضا محصلة نهائية لصعوبة الحسم في الانتماء إلى التقليد أو العصرنة.

---

[312] محمد دحمان، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مرجع سابق.ص.230.

ثانيا: الحضور والغياب:

تخضع القبيلة اليوم في المجتمع المغربي لثنائية الحضور والغياب، فهي غائبة كمؤسسة تنظيمية تصنع القرار وتوجهه، تماما كما كان الأمر بالنسبة لمغرب القرن التاسع عشر، وحتى في بداية عهد الاستعمار، لكنها حاضرة كإطار للهوية والانتماء.

فبعدما كانت الرحامنة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقبلهما أيضا تتحرك في المجال الحوزي وتتملكه وفقا لمقتضيات موازين القوى وعلاقتها مع المخزن والزاوية، فإنه مع دخول المستعمر، سيصير تحركها محدودا ومسيجا بقوانين ترابية تنتج المجال وفق أساس إداري لا عرقي قبلي.

التحالفات التي كانت تؤسسها القبيلة مع باقي القبائل المجاورة، بل وحتى الصراعات التي تنخرط فيها، سوف لن تخضع للمنطق القبلي، وإنما ستغدو مراقبة أكثر من قبل الإدارة الاستعمارية وبعدها من طرف الإدارة الترابية للمغرب المستقل، وكلها تدبيرات ستحد من فاعلية القبيلة التنظيمية والتقريرية. لكن وبالرغم من كل هذه الإجراءات التي أفرغت القبيلة من دورها التأطيري، فإن ذلك كله لم يؤد إلى محو الانتماء القبلي في البنيات الرمزية والمادية للمجتمع، فثمة حضور متجدد للقبلية كتصور، يلغي غياب القبيلة كتنظيم.

و لإبراز هذا التركيب يقدم بول باسكون مثالا معبرا عن "شاب يحمل شهادات، ويرتدي بذلة عصرية، ويتلفن إلى مسؤول إداري. إنه ينطق بكلمات عربية، ويوصي بتشغيل فلان بالفرنسية، ولكنه أمام تحفظات المسؤول يعاود الكرة بثلاث حجج، إنما بالعربية هذه المرة: إن قريبا للشخص المقترح قد فقد عمله، وأن العائلة أصبحت بدون مورد، وبأنها تنتمي إلى قبيلة من وسط المغرب، وبأنها كثيرة الولد، ولكنه يواجه في الأخير برفض مبني على القانون، هذا دون أن تكون مؤهلات المرشح قد ذكرت"[313].

فالتحليل السوسيولوجي لهذا المثال سيفضي بنا إلى الخلوص إلى وجود عدد غير يسير من الديناميات الاجتماعية التي تمتح من أنساق مختلفة، لكنها تحضر بشكل متجاور ومتداخل ومركب بتعبير بول باسكون. لكن هذه الديناميات لا تنطرح كوحدة منسجمة، بل إنها تتبارى وتتصارع فيما بينها من أجل الهيمنة.

---

[313] بول باسكون، ما الغاية من علم الاجتماع القروي، ترجمة: مصطفى الحسناوي، مجلة بيت الحكمة، العدد الثالث، السنة الأولى، أكتوبر 1986.ص.54.

بحيث تصير أنماط العيش والسلوك والثقافات متجاورة فيما بينها على الرغم من التناقض الصارخ الذي يبصم ثنائياتها المحتملة، فالمقدس والمدنس، والأسطوري والواقعي، والعلمي واللاعلمي، والتقليدي والحديث، وما إلى ذلك من ثنائيات المجتمع المزيج تجد نفسها حاضرة في نفس اللحظة ومؤطرة لها، ودون أن يثير هذا الحضور المركب أي إشكال على مستوى سيرورة الحياة الاجتماعية، بل إن هذا التركيب يستحيل مع الوقت شرطا وجوديا لاستمرارية المجتمع[314].

فالقبلية تستيقظ في أعماق هذا الشاب، وتصير مبررا للحصول على الوظيفة، بل إنها تستحيل جواز مرور يفوق في قدرته التأثيرية ما يحوزه المرء من شهادات علمية، فالتقليد ينتصر على العصرنة في كثير من الأحيان، وهو ما نلحظه بجلاء في إنتاج السلوك الانتخابي بالمغرب، فالصوت الانتخابي هو لـ"ولد القبيلة" في البدء والختام[315].

و لهذا لم يكن من المستغرب أن تكون مرتكزات التراشق السياسي بين المتنافسين في الانتخابات قائمة على إظهار "ميزة" الانتماء القبلي، إن هذا الانتماء يظل أهم "سلاح" لمواجهة الخصوم. فالسياسي الناجح هو الذي يعرف كيف يدبر العلاقة بين التقليد والعصرنة، ويعي جيدا اللحظة الحاسمة التي يكون فيها مدعوا للاستنجاد بانتمائه القبلي، والمناسبة الأخرى التي يطلب فيها أن يكون منحازا إلى خطاب العصرنة.

ففي الخطاب المشبع بالقبلية يخبو النفس الإيديولوجي المحدد للانتماء الحزبي، فنادرا ما يتم اللجوء في البوادي المغربية إلى إشهار البرامج الحزبية، فقط هو الشعار واللون ما ينبغي التركيز عليه، أما الأدبيات والمرجعيات الحزبية فلا تجدي نفعا في إقناع الناخبين بالتصويت، فما يؤثر فعلا ويؤسس للفوز السياسي، هو إشهار الانتماء القبلي وإظهار التفوق المادي والرمزي على باقي المنافسين. إننا إزاء نظام مسنود بالعلاقات الشخصية والروابط القرابية والممارسات الزبونية، أي أن الاشتغال يتم في سياق تقليدي محض، بالرغم من كونه يرنو إلى تحقيق مطلب عصري، متوزع على التصويت والتمثيل النيابي، الذي يبقى من أبرز مؤشرات الحداثة السياسية.

---

[314] عبدالرحيم العطري، دفاعا عن السوسيولوجيا، دار بابل للنشر، الرباط، الطبعة الأولى.2000.ص.89.

[315] عبد الرحيم العطري، ملاحظات حول السلوك الانتخابي، في كتاب جماعي، مجموعة من الباحثين، السلوك الانتخابي بالمغرب، تنسيق: عبد الرحيم العطري و منتصر حمادة، منشورات الشروق، الرباط، الطبعة الأولى.2009.ص.45.

و لهذا يقول المختار الهراس بأن "هذا الماضي القبلي، يمكن تلمسه أيضا في استمرار انصهار الأشخاص ضمن العائلة أو خط النسب، بحيث يجدون صعوبة كبرى في اتخاذ مواقف فردية مستقلة ومسؤولة خارج إطار الجماعة، ودونما الاعتماد على دعمها وسندها، وكأن الترابطات الانقسامية القديمة، ما زالت إلى الآن فاعلة ومؤثرة في العلاقات الاجتماعية"[316]. ويضيف الهراس موضحا بأن "الأبعاد الرمزية للقبيلة ما زالت متواجدة في الأذهان، وروح الحياة القبلية القديمة، ما زالت إلى حد الآن تحرك الأفراد والجماعات"[317].

لا نكتشف الحضور القبلي في تدبير اللحظة الانتخابية فقط، بل نعاينه في اليومي المحلي، فالمبحوثون غالبا ما يرددون "قبيلتي، اجماعة ديالنا، القبيلة ديالي"، ويحتمون بها في حالات التهديد، ففي حالات الخطر يستيقظ الانتماء الجمعي، منتصرا على البروز الفردي؟

ثالثا: منطق التوليف:

وإذا كانت العلاقات القبلية للمغرب الما قبل استعماري تتجه نحو بناء الأوفاق والأحلاف، فإنها اليوم تتحول إلى صيغ الوساطات والعلاقات الزبونية، لتخرج من مستواها الجمعي الملزم لمجموع القبيلة، إلى سياق تداولي خاص، يظل حكرا على جماعات وزعامات بعينها. فبدل ملاحظة التحالفات القبلية فإننا نكتشف اليوم العلاقات الزبونية التي تؤسس للولاءات داخل وخارج المجال الترابي للقبيلة، في استبدال ممكن للعلاقات الأفقية والانتشارية بأخرى عمودية متعددة الأبعاد والانفتاحات.

تبدو القبيلة كمؤسسة سياسية تنظيمية استبدلت بالجماعة الإدارية، والقبيلة كمؤسسة اقتصادية واجتماعية راعية للفعل الجماعي التضامني(تويزة، تنظيم المجال الرعوي، الماء، ...) آخذة في التفريط في كثير من أدوارها هاته. فأراضي الجموع التي كانت تدبر داخل القبيلة، صارت تدار في أروقة وزارة الداخلية، من داخل مديرية أراضي الجموع، كما صار يتحكم في تحديد مآلها عن طريق الجمعيات النسائية والمحاكم القضائية، خصوصا مع ظهور الحركات الاحتجاجية للنساء السلاليات في أكثر من منطقة بالمغرب.

إن التحولات الاجتماعية التي عرفها المجال الرحماني تسير في اتجاه توكيد فرضية انمحاء وإعادة تشكيل كثير من العلاقات الإنتاجية الجماعية، وكذا تراجع مفاعيل المؤسسات التقليدية لصالح خيارات فردية وعصرية لا تسلم من تأثير التقليد وتوجيهه. فالحصر le blocage الذي حدث في أمر الانتقال من المخزن إلى الدولة، منتهيا إلى حالة المخزنة، يتخذ صيغة أخرى مع ثنائية

---

[316] المختار الهراس، ملاحظات واستنتاجات حول تطور النظام القبلي في جبالة، مجلة المشروع، العدد السادس، 1986.ص.86.

[317] المختار الهراس، السلطة والقبيلة، مرجع سابق.ص.260.

التقليد والعصرنة، تنكشف أيضا في الانتقال من القبيلة إلى القبلية، ذلك أن الطبيعي في مسارات التحديث، هو الانتقال من القبيلة إلى المؤسسة، إلا أنه في الحالة المغربية، فإن المراهنة على استبدال الأساس العرقي بالأساس الترابي، لم تسهم إلا في إعادة إنتاج نمط علائقي جديد، تتعايش فيه سجلات متعددة وتسير فيه مؤسسات عصرية بممارسات وتمثلات تقليدية.

إنه منطق **التوليف** Montage **والترميق** Bricolage الذي يعمد فيه الفاعل الاجتماعي إلى استدماج كثير من الممارسات والخطابا المتعددة الانتماءات في متن واحد، إنه إعادة إنتاج ممكنة لعصرنة المؤسسات وتقليدية العلاقات، حيث يبدو الفاعل منتميا إلى سجل عصري من الناحية المؤسسية، ومشتغلا فيه ومن داخله بأدوات وتمثلات وعلاقات تقليدية.

لم يتأت تفكيك النظام التقليدي بسهولة في البوادي المغربية، ولا يمكن التأكد كلية من إمكان القضاء عليه، فدائما هناك تسربات ثقافية نحو الفائت، ودائما هناك تأثيرات قوية للتقليد في بناء العصرنة، وعلى كل حال فالوصول إلى هذا الوضع من الهشاشة الذي صارت عليه المؤسسات التقليدية هو نتاج منطقي لربط البادية بنمط الإنتاج الرأسمالي، وجعلها أكثر تبعية للمدينة من حيث تدبير الحاجات والمواد الاستهلاكية الأساسية. هذا فضلا عن صيغ انمحاء النظام القبلي وتهميش "اجماعة" وتعميق نفوذ الدولة، وتراجع الاقتصاد العائلي وارتفاع مؤشرات الفردانية.

كما أن تنقيد العلاقات الاجتماعية، وتحول النقود إلى عامل أساس في بناء معادلات هذه العلاقة، ولو داخل الأسرة، كان سببا في تقوية هذا الربط، فالاقتصاد العائلي ما عاد كذلك، والأبناء الذين كانوا يشتغلون بالمجان، صاروا يطالبون بأجرة، أو يرفضون العمل بالزراعة والرعي العائلي، مفضلين العمل المأجور في أماكن أخرى. هذا التنقيد سيسهم في اختفاء كثير من التضامنات والتعاقدات الفلاحية وتحوير كثير من القيم والتمثلات الجمعية لصالح بروز فردي يجعل من المصلحة الشخصية أولوية الأولويات.

إن الاحتماء بالدولة/ المخزن سيرتفع عليه الطلب الاجتماعي مع تراجع أدوار القبيلة وتزايد نفوذ وتدخل الدولة، فالصورة التي أنتجتها الدولة لنفسها، والتي راقت لها مدة من الزمن(قبل أن تتجه مؤخرا إلى ممارسات تشي بمنطق دولة التخلي لا الدولة التدخلية)، هذه الصورة التي تظهر فيها على أنها المعطاء، القوية، التي تمنع وتبيح، سوف تكون من بين الأسباب المسؤولة عن تدهور الأنظمة التقليدية. فالفلاح الذي كان يحمل شكواه إلى "اجماعة" سوف لن يفعل مع بروز سلطة القائد غير المتجذر اجتماعيا، والذي صار الأكثر تحكما في المجال الترابي القبلي.

كل هذه العوامل ستجعل مفاعيل المؤسسات التقليدية تتوارى، دون أن ترحل كليا، لصالح مؤسسات أخرى تبدو عصرية ومؤسساتية، وإن كانت تدبر بدورها بعلاقات وممارسات تقليدية، لهذا كله، كان من الطبيعي أن يكون الانتقال الممكن هو من القبيلة إلى القبلية، بشكل لا يعني موت القبيلة، ولكن تجددها في بنية تصورات وقيم دالة ومؤثرة.

إن التحولات التي عرفها المجال الرحماني على أكثر من صعيد، وذلك في مستوى البنيات ووسائل الإنتاج المادي والرمزي والعلاقات والتصورات والقيم، فضلا عن الانتقالات الممكنة أوالمؤجلة، بدءا من وضع المخزن إلى الدولة فالمخزنة ومرورا بالانتقال من القبيلة إلى القبلية، إلى واقع العصرنة في ظل التقليد. فكل هذه التحولات هي نتاج مستمر لما عرفه المغرب خلال الاستعمار وما تلا ذلك في زمن الاستقلال.

و هي تحولات لا تلوح بطعم القطيعة مع الفائت، إنها تضمر وتعلن الامتداد والاستمرارية، فهي تتراوح دوما بين سجلات فائتة وراهنة وأخرى لاحقة، بالشكل الذي تضيع معه كل محاولة للحسم في ترتيب ونمذجة الواقع، فنحن لا نعي في كثير من الأحيان، هل يتعلق الأمر بممارسات ومؤسسات عصرية أم تقليدية؟ وذلك بسبب التداخل والتعايش الذي يفرضه منطق التحول هذا.

يمكن النظر إلى هذه التحولات الاجتماعية على أساس أنها تحولات تعتل بعُسر القطيعة وتنطبق عليها واقعة "الانتقال المعاق"، إنها لا تمهد للانغمار في مسارات جديدة من التحول لا تمت بأية صلة القائم سلفا من الأوضاع والممارسات، إنها تحولات ممهورة بجينات البدء والامتداد، تتم داخل منطق الاستمرارية وإعادة الإنتاج والتكريس، بل إنها تصير أحيانا مجرد تغيرات على مستوى الشكل لا المحتوى. ولهذا يُفهم جيدا كيف تتعايش أنماط وممارسات عدة ومتناقضة أحيانا داخل نفس النسق، ودون أن تتسبب في إثارة أي ارتباك على مستوى الاستمرارية.

لقد أفضى "**انتصار الاستمرارية**" على التغيير إلى "**تسييد**" واقع من التوليف والترميق يتأسس على استدماج واستدخال قيم وممارسات متناقضة من حيث البدء والانتماء "السجلي"، حيث يتمازج التقليدي مع العصري، ومن غير أن يؤثر على فعالية النسق، ما يؤسس ويجذر باستمرار لخطاطة "المؤسسات العصرية في ظل علاقات وقيم تقليدية".

إن الفعل الاجتماعي في ظل انتقال مخصوص من القبيلة إلى القبلية، لا يعتمد فقط على ما هو تقليدي، بل إنه يزاوج بين العصري والتقليدي، ويسير في اتجاه المأسسة والعصرنة، لكن بآليات ومرجعيات تقليدية، فالتحولات المتسارعة حينا والبطيئة أحيانا، والتي تعرفها البوادي المغربية، لم تقد إلى التحديث الكلي ولا الحداثة الشاملة، فالانتماء المؤسساتي إلى السجل العصري، لا يعني الانتهاء كليا من إنتاج علاقات وقيم تقليدية، إن قوى التقليد، وسياقات المراوحة بين التقليد والعصرنة، ما زالت تحدد الطبيعة الممكنة لهذه التحولات.

على سبيل الختام:

إن اختيار المجال الرحماني لاختبار ثلاثية "القبيلة، المخزن، الزاوية"، لم يكن محكوما بصدفة الاختيار، بل جاء بطريقة قصدية تبررها دينامية هذا المجال التاريخية وراهنيته السياسية التي أعادت مفهوم الأعيان إلى واجهة العمل السياسي خصوصا خلال زمن الانتخابات. فمن خلال استدعاء مختلف هذه الوقائع يمكن تسجيل الخلاصات التالية:

أولا: الرحامنة قبيلة متفاعلة مع معطيات النسق السياسي العام، فقد كانت دوما في صلب الأحداث والوقائع، وهو انخراط مبرر بالموقع الجغرافي(القرب من مدينة مخزنية، معبر للحركة أو المحلة، وعطوبية جغرافية أيضا) والطموح السياسي لقيادها وأعيانها، فانتماؤها مجاليا إلى الحوز أدخلها في جملة من الحركيات والتفاعلات التي انفرضت عليها، وجعلت علاقتها بالمخزن تعرف مدا وجزرا.

ثانيا: يكشف تتبع الوقائع التاريخية لعلاقة الرحامنة بالمخزن هشاشة أطروحة التعارض الاستعمارية، فالأمر لا يتعلق بعالمين منفصلين هما بلاد المخزن وبلاد السيبة، وإنما باحتجاج اجتماعي وسياسي على واقع من العنف والإكراه، تترجمه الانتفاضة كمعطى مركب لا يقبل بتفسير يستند إلى القطيعة والمواجهة بين عالمي المخزن والسيبة.

ثالثا: يتوجب ربط الانتفاضات المتكررة للقبيلة بشرطها التاريخي المفتوح على الأزمة السياسية والاقتصادية التي كان يعرفها مغرب القرن التاسع عشر، وذلك ارتباطا بعسر انتقال الحكم أو توالي سنوات الجفاف والقحوط، الشيء الذي لا يستقيم والاستجابة الطبيعية للكلف المخزنية.

رابعا: لم يكن المخزن في علاقته بقبيلة الرحامنة، ليشذ عن قاعدته في التعامل مع باقي القبائل، فتارة يتم استعمال العنف، وتارة يتم توظيف الصراعات مع القبائل المجاورة، وحينا آخر يلجأ إلى الزوايا والأشراف والأعيان، إنها استراتيجية اشتغال متعددة الأبعاد والانتماءات، تفرضها ظروف ومتغيرات القوة أو الضعف.

إلى ذلك كله تظل قبيلة الرحامنة في تاريخها القريب والبعيد من أبرز القبائل المغربية التي لم تكتف بتوقيع حراك مجالي "بارد"، بل إنها في رحلتها الكبرى من الصحراء إلى الحوز، وفي ثنائية الترحال والاستقلال، من الخيمة إلى النوالة، كانت في قلب حراك سياسي يحتمل الانفراج والتوتر والجمود أيضا في علاقتها بالمخزن وباقي القبائل المجاورة.

إن هذا البحث لا يحمل بأي حال من الأحوال "أمارة الوصية الأخيرة"، و لا يدعي مطلقا التمكن الشمولي من "الرحامنة بين المخزن و الزاوية"، بل يعترف في البدء و الختام باستحالة إنجاز "تأطير" عام و مكتمل لمجال في قلب التحولات، فلا بد من التشديد في البدء على أن إنجاز بحث محصور في مجاله (الرحامنة)، لا يسمح بالانجرار وراء أية نزعة تعميمية، و لا بالدخول في أية ممارسة تصنيفية إطلاقية، فـ"تنسيب الحقيقة" شرط وجودي في الاشتغال السوسيولوجي، و لهذا فإن مساءلة المجال الرحماني لن تحسم في إشكال "نمط الإنتاج"، و لا في تقديم إجابات ناجزة عما يعتمل داخل مجتمع في محك التحول. إن الأمر يتعلق في البدء و الختام بمنافذ ممكنة، نُطِل منها، على ما يتفاعل في النسق القبلي الرحماني من صراعات و تنافسات و تضامنات، و ما يتأسس فيه، من آليات بناء و تجذير و إعادة تدوير، ما يجعل هذه المساهمة المتواضعة تلوح ببياضات و هفوات موجبة لاستئنافات تساؤلية أخرى في مناطق جديدة و سياقات أوسع. ففي "العلم الاجتماعي" لا نصل إلى "الحقيقة"، بل نقترب فقط من "أحواز الحقيقة.

انتهى بحمد الله و توفيقه.

ثبت المصادر والمراجع

أولا: باللغة العربية

المصادر والمعاجم والموسوعات:

- **الرباطي (محمد الضعيف)**، تاريخ الضعيف الرباطي: تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان، دراسة وتحقيق: محمد البوزيدي الشيخي، دار الثقافة، الدار البيضاء الطبعة الثانية، 2007.
- **الطيب (محمد سليمان)**، موسوعة القبائل العربية: بحوث ميدانية وتاريخية، دار الفكر العربي، مدينة نصر، الطبعة الثانية، 1998.
- **السوسي (العلامة محمد المختار)**، المعسول، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،1960.
- **الناصري (أحمد بن خالد)**، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: أحمد الناصري، أشرف عليه: محمد حجي ، إبراهيم بوطالب، أحمد التوفيق، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، الرباط، الطبعة الأولى،2001.
- **القادري (محمد بن الطيب)**، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب، الرباط. الطبعة الأولى.1986.
- **المشرفي (محمد بن محمد بن مصطفى)**، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق: إدريس بوهليلة، الجزء الثاني، منشورات وزارة الأوقاف والشوؤن الإسلامية، الرباط، الطبعة الأولى.2005.
- **الوزان (الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي)**، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1983.
- **بن خلدون (عبد الرحمن)**، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ،دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1993.
- **بن زيدان (عبد الرحمان)**، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، الرباط، الطبعة الثانية، 1990.
- **بن زيدان (عبد الرحمان)**، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الجزء السادس، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشادلي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، الطبعة الأولى.2009.
- **بن منصور (عبد الوهاب)**، قبائل المغرب، الجزء الأول، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى، 1968.
- **بن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)**، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1997.
- **مجموعة من الباحثين تحت إشراف محمد حجي**، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا ، الطبعة الأولى، 2002.

الكتب

- **أرنو (لويس)**، زمن المحلات السلطانية: الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860 و1912، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999.

- **أسبينيون (روبير)**، أعراف قبائل زايان، ترجمة: محمد أوزاغ، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، الطبعة الأولى، 2007.
- **الإبوركي (عمر)**، الظاهرة القائدية: القائد العيادي الرحماني نموذجا، دار بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، الطبعة الأولى، 2000.
- **البزاز (محمد الأمين)**، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم18، الرباط، الطبعة الأولى، 1992.
- **التوزاني الهراج (نعيمة)**، الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى، 1979.
- **التوفيق (أحمد)**، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر(إينولتان 1850-1912)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم: 63، الطبعة الثالثة، 2009.
- **الخطيبي (عبد الكبير)**، النقد المزدوج، منشورات الجمل، بيروت، الطبعة الأولى، 2009.
- **الدالي (الهادي المبروك)**، قبائل البرابيش، سلسلة من تاريخ القبائل الإفريقية، رقم 1 ، مكتبة طرابلس العلمية والعالمية، طرابلس، الطبعة الأولى، 2004.
- **السبتي (عبد الأحد)**، بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2009.
- **الشابي (مصطفى)**، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 26 ، الرباط، الطبعة الأولى، 1995.
- **الصديقي (عبد الرزاق)**، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن: 1850-1900، بابل للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 1997.
- **العروي (عبد الله)**، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2009.
- **العطري (عبد الرحيم)**، تحولات المغرب القروي، منشورات دفاتر الحرف، الرباط، الطبعة الثانية، 2012.
- **العطري (عبد الرحيم)**، دفاعا عن السوسيولوجيا، دار بابل للنشر، الرباط، الطبعة الأولى.2000.
- **العطري (عبد الرحيم)**، صناعة النخبة بالمغرب، منشورات وجهة نظر، الرباط، الطبعة الثانية، 2007.
- **العلوي (زين العابدين)**، المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني، الجزء الأول، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى.2007.
- **القبلي (محمد)**، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.1987.
- **المنصور (محمد)**، المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والدين 1792-1822، ترجمة: محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2006 .
- **المودن (عبد الرحمن)**، البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 25، الرباط، الطبعة الأولى، 1995.

- **الناجي (محمد)**، التوسع الأوربي والتغير الاجتماعي في المغرب(ق 16-19)، ترجمة: عبد الرحيم حزل، منشورات جذور، الرباط، الطبعة الأولى،2004.
- **الهراس (المختار)**، القبيلة والسلطة: تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي، الرباط الطبعة الأولى، 1988.
- **الهرماسي (عبد الباقي)**، المجتمع والدولة في المغرب العربي، منشورات دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1992.
- **الهروي (الهادي)**، القبيلة، الإقطاع والمخزن: مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844-1934، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،2005.
- **إيكلمان (ديل)**، الإسلام في المغرب، الجزء الثاني، ترجمة: محمد أعفيف، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،1991.
- **إيكلمان (ديل)**، المعرفة والسلطة في المغرب: صورة من حياة مثقف من البادية في القرن العشرين، ترجمة: محمد أعفيف ومصطفى الوجاني، دار النشر ملاباطا، طنجة، الطبعة الثانية.2009.
- **بالزاع (عبد الكريم)**، أراضي الجموع: محاولة لدراسة بنيتها السياسية والاجتماعية ودورها في التنمية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1998.
- **بن الصغير (خالد)**، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1856- 1886، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الثانية.1997.
- **بوبريك (رحال)**، دراسات صحراوية: المجتمع والسلطة والدين، دار أبي رقراق، الرباط، الطبعة الثانية.2008.
- **بورقية (رحمة)**، الدولة والسلطة في المجتمع المغربي: دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب، دار الطليعة، بيروت ، الطبعة الأولى، 1991.
- **بوشعراء (مصطفى)**، الاستيطان والحماية بالمغرب، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى، 1984.
- **بوشعراء (مصطفى)**، علاقة المخزن بأحواز سلا: قبيلة بني حسن 1860-1912، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة دراسات وبحوث، رقم 19، الرباط، الطبعة الأولى، 1996.
- **حركات (إبراهيم)**، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية.1994.
- **حمودي (عبد الله)**، الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2000.
- **دحمان (محمد)**، البداوة والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مطبعة كوثر، الرباط، الطبعة الأولى، 2006.
- **دواير (كيفن)**، حوارات مغربية: مقاربة نقدية للأنثروبولوجيا، ترجمة:محمد نجمي الروداني ومحمد حبيدة، مراجعة: محمد المنصور والمختار النواري، اعتنى بنشره: عمر أفا، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2007.

- **دوتي (إدموند)**، مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة(1901-1902)، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، مطبعة أنفو برانت، فاس، الطبعة الأولى.2011.
- **سبيلمان (جورج)**، آيت عطا الصحراء وتهدئة آفلا-ن-درا، ترجمة وتعليق: محمد بوكبوط، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغة، الرباط، الطبعة الأولى، 2007.
- **شروتر (دنيال)**، تجار الصويرة: المجتمع الحضري والأمبريالية في جنوب غرب المغرب(1844-1886)، ترجمة: خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى.1997.
- **شمشوب (زهير)**، الزاوية الكتانية والمخزن، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى.2010.
- **شوقي (الحسن)**، بويا عمر: مساهمة في تاريخ الأولياء بنساوت، المطبعة والوراقة الوطنية، الطبعة الأولى.2007.
- **شوقي (الحسن)**، سيدي رحال البدالي: مساهمة في تاريخ الأولياء بالمغرب، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى. 2008.
- **عياش (ألبير)**، المغرب والاستعمار: حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة: عبد القادر الشاوي، نور الدين سعودي، مراجعة وتقديم: إدريس بنسعيد، عبد الأحد السبتي، سلسلة معرفة الممارسة، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1985.
- **لوفو (ريمي)**، الفلاح المغربي المدافع عن العرش، ترجمة: محمد بن الشيخ، مراجعة: عبد اللطيف حسني، منشورات وجهة نظر، الرباط، الطبعة الأولى.2011.
- **مجموعة من الباحثين**، الأنثروبولوجيا والتاريخ: حالة المغرب العربي، ترجمة: عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2007.
- **مجموعة من الباحثين**، الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 7.الرباط، الطبعة الأولى،1986.
- **مجموعة من الباحثين**، البادية المغربية عبر التاريخ، تنسيق: إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 77. الرباط، الطبعة الأولى ، 1999.
- **مجموعة من الباحثين**، التحولات الاجتماعية والثقافية في البوادي المغربية، تنسيق: المختار الهراس، إدريس بنسعيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 102، الرباط ، الطبعة الأولى ، 2002.
- **مجموعة من الباحثين**، الرحامنة: التاريخ، الثقافة، البيئة، منشورات جمعية أنفاس، بن جرير، الطبعة الأولى، 2002.
- **مجموعة من الباحثين**، الزوايا في المغرب، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، الطبعة الأولى، 2009.
- **مجموعة من الباحثين**، السلطة المركزية والزعامات المحلية بالجنوب المغربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 164. الطبعة الأولى، 2010.

- مجموعة من الباحثين، السلوك الانتخابي بالمغرب، تنسيق: عبد الرحيم العطري و منتصر حمادة، منشورات الشروق، الرباط، الطبعة الأولى.2009.
- مجموعة من الباحثين، العلاقات بين البوادي والمدن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 10، الرباط، الطبعة الأولى ،1988.
- مجموعة من الباحثين، تقرير الحالة الدينية في المغرب 2007-2008، منشورات المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، الرباط، الطبعة الأولى، 2009.
- مولييراس (أوجيست)، المغرب المجهول، الجزء الأول: اكتشاف الريف، ترجمة: عز الدين الخطابي، منشورات تيفراز.2007.
- هارت (دافيد مونتغمري)، أيت ورياغل: قبيلة من الريف المغربي(دراسة إثنوغرافية وتاريخية)، ترجمة وتقديم وتعليق: محمد أونيا، عبد الحميد عزوزي، عبد الحميد الرايس، منشورات صوت الديمقراطيين المغاربة في هولندا، الطبعة الأولى، 2005.
- وايسجربر (فردريك)، على عتبة المغرب الحديث، ترجمة: عبد الرحيم حزل، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى،2011.

الأطروحات والرسائل

- الإبوركي (عمر)، القائد وتغير البنيات الاجتماعية في العالم القروي: القائد العيادي ومجال الرحامنة نموذجا، أطروحة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية: 2007/2006.
- الصديقي (عبد الرزاق)، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الموسم الجامعي: 1988-1989.

المجلات والدوريات

- الخديمي (علال)، النزايل والمواصلات والتدخل الأجنبي في المغرب خلال القرن التاسع عشر، مجلة هسبريس تمودا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، العدد، السنة 1993.
- الخطيبي (عبد الكبير)، تخليص السوسيولوجيا من النزعة الاستعمارية، ترجمة: زبيدة بوجيل، المجلة المغربية للاجتماع والاقتصاد، العدد 7، 1984.
- المنوني (محمد)، مساهمة في ندوة "لماذا القرن التاسع عشر؟"، مجلة المشروع، العدد 9، سنة 1988.
- الهراس (المختار)، ملاحظات حول التقليد والتغير في المجتمعات العربية، مجلة الوحدة، السنة الخامسة، الرباط، العدد 57، يونيو 1989.
- الهراس (المختار)، ملاحظات واستنتاجات حول تطور النظام القبلي في جبالة، مجلة المشروع، العدد السادس، 1986.ص.86.

- باسكون (بول)، الفترات الكبرى للقايدية، تعريب: زبيدة بورحيل، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد الخامس والسادس، 1981.
- باسكون (بول)، ما الغاية من علم الاجتماع القروي، ترجمة: مصطفى الحسناوي، مجلة بيت الحكمة، العدد الثالث، السنة الأولى، أكتوبر 1986، الطبعة الثالثة .
- باسكون (بول)، نمو الرأسمالية في عهد الحماية في حوز مراكش، تعريب: زبيدة بورحيل، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد الرابع، 1978.
- بودربالة (نجيب)، من أجل رؤية هادئة للاستعمار، ترجمة: محمد شقرون، المجلة المغربية للاجتماع والاقتصاد، العدد 7، 1984.
- بورقية (رحمة)، العرف، العلماء والسلطة في القرن التاسع عشر، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد السابع 1984.
- حليم (عبد الجليل)، التدخل الاستعماري والحركية الاجتماعية، مجلة الوحدة، العدد 57، السنة الخامسة، يونيو 1989 الرباط.
- حليم (عبد الجليل)، المجال والمعتقد كوسيلتين لمقاربة التغير الاجتماعي، دفاتر مختبر الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، العدد الأول، دجنبر 1997، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس.

الوثائق والجرائد

- أفا (عمر)، دليل الرسائل والأطروحات(1964-2004)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.
- دليل الرسائل والأطروحات(1964-2007)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.
- جريدة المساء بتاريخ 28 أبريل 2009.
- جريدة المساء بتاريخ 5 يونيو 2009.
- الموقع الإلكتروني لوكالة المغرب العربي للأنباء
- الموقع الإلكتروني للمندوبية السامية للتخطيط
- مونوغرافية إقليم قلعة السراغنة
- مونوغرافية إقليم الرحامنة 2010
- مونوغرافية جماعة لمحرة 2009
- إحصائيات المديرية الإقليمية للفلاحة
- نتائج الإحصاء الوطني للسكان والسكنى، 2004.

ثانيا: باللغتين الفرنسية والإنجليزية:

Ouvrages:

- **Adam (André),** Bibliographie critique de sociologie, d'ethnologie et de géographies humaines au Maroc, CNRS/SNED.1972.
- **Ayache (Gemane),** Etudes d'histoire marocaine, SMER, Rabat.1983.
- **Ayache (Gemane),** La fonction d'arbitrage du Makhzen , In Recherches récentes sur le Maroc moderne ,Bulletin économique et social du Maroc, 1978.
- **Berque (Jacques),** Les structures sociales du Haut Atlas, puf.Paris.1955.
- **Berque (Jacques),** Ulémas, fondateurs, insurges du Maghreb, Editions Sindibad, Paris.1982.
- **Berque (Jacques),** Maghreb: histoire et société, SNED, Alger.1974.
- **Bourdieu (Pierre),** Réponses: pour une anthropologie réflexive, Seuil. paris.1992.
- **Cherifi (Rachida),** Le Makhzen politique au Maroc, Afrique orient, Casablanca, 1988.
- **Claisse (Alain),** Le Makhzen aujourd'hui, In: Coll. Le Maroc actuel: une modernisation au miroir de la tradition, études réunies par Jean-Claude Santucci, Edition CNRS, Paris, 1992.
- **Durkheim (Emile),** Les Règles de la méthode sociologique, PUF, Paris, 1977.
- **Doutte (Edmode),** Marrakech, pub du comit édu Maroc, Paris.1905.
- **Dermenghem (Emile),** Le culte des saints dans l'islam Maghrébin, Editions Gallimard, Paris.1954.
- **Drague (Georges),** Esquisse histoire religieuse au Maroc: confréries et zaouïas. Editions Pyronnet. Paris .1951.
- **Jadda (M'hamed),** Bibliographie analytique des publications de l'institut des hautes etudes marocaines, FLSH Rabat, serie These et meroires.N.26.1994.
- **Jamous (Raymond),** Honneur et baraka: les structures sociales traditionnelles dans le rif, édition de la maison des sciences de l'homme, Paris.1981.
- **Geertz (Clifford),** The Interpretation of Cultures, New York: Basic Books.197.
- **Geertz (Clifford),** Le souk de Sefrou: Sur l'économie du bazar. trad. et présenté par Daniel Cefaï. Paris, Bouchène, 2003.
- **Gellner (Ernest),** Saints of Atlas, London, Weindefeld and Niclolson.1969.
- **Pascon (Paul),** Le Haouz de Marrakech, CURS, INAV, Rabat et CNRS, Paris, 1977.
- **Pascon (Paul)** et Autres, La maison Iligh et l'histoire social de Tazerwalt, SMER, Rabat.1984.
- **Pascon (Paul),** Etudes rurales: Idées et enquêtes sur la compagne Marocaine, SMER, Rabat, 1980.
- **Pascon (Paul)**et Mohammed Ennaji, Les paysans sans terres au Maroc, Les éditions Toubkal, Casablanca.1986.
- **Laroui (Abdellah),** les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, Maspero, Paris.1977.
- **Le Coz (Jean),** Le Gharb: fellahs et colons, T.1. 1964.
- **Lempriere (W),** Voyage dans l'empire du Maroc, paris, 1801.

- **Leveau (Remy),** Le fellah Marocain défenseur du Trône, Editions presse de la fondation nationale des sciences politiques, Paris.1976.
- **Maxwell G,** El Glaoui: Dernier seigneur de L'Atlas (1893-1956), Fayard, Paris, 1968.
- **Montagne (Robert),** Les berbères et le Makhzen dans le sud Marocain: Essai sur la transformation politique des berbères sédentaires (groupe Chleuh).Edition Felix Alcan. Paris.1930.
- **Montagne (Robert),** Naissance du prolétariat marocain, Ed. Peyronnet Paris, 1952.
- **Montagne (Robert),** Civilisation du désert: Nomades d'orients et d'Afrique, Lib Hachette, Paris 1947.
- **Montagne (Robert),** Révolution au Maroc éd. France empire.
- Michaux (Bellaire), Villes et tribus du Maroc: Tanger et sa zone, A.M.vol.Paris.1921.
- **Terrasse (Henri),** Histoire du Maroc: des origines à l'établissement du protectorat français,Ed Atlantide, Casablanca,1949.

Revues et Périodiques:

- **Bellaire (Michaux),** La Maison d'Ouezzane, dans: Revue du Monde Musulman, Vol V, paris, mai 1908.
- **Bellaire (Michaux),** Le Gharb, dans: AM, vol, 20. 1930.
- **Bellaire (Michaux),** Les Tribus arabes de la vallée de lekkous, dans: Archives berbères, vol v. 1905.
- **Bellaire (Michaux),** Tentative de restauration Idrisside, Revue du Monde Musulman, 7,1908.
- **Coursimaut (Capitaine),** La "Ttatta", dans: Les Archives Berbères, Vol.2, 1917.
- **Doutte (Edmonde),** L'organisation domestique et sociale chez les Haha, In: R.C. suppl. A.F.15.1905.
- **Doutte (Edmonde),** les marocaines et la société marocaine, dans: revue général des sciences pures et appliquées. T. 14. Paris. 1903.
- **Gellner (Ernest),** Comment devenir marabout, BESM, n: 128.rabat.1969.
- **Lazarev (Grigori),** Remarque sur la seigneurie terrienne au Maroc, In: Colloque structures et cultures précapitalistes, Anthropos, paris.1981.
- **Lazarev (Grigori),** Changement social et développement dans les campagnes marocaines, In: BESM, N:109, 1968.
- **Lazarev (Gregory),** Les concessions Foncières au Maroc, dans: Anales Marocaines de Sociologie,1968.
- **Le Coz (Jean),** Douar et centre rural: du campement au bourg, Revue de géographie du Maroc, N: 8, 1965.
- **Montagne (Robert),** Le régime juridique des Tribus du sud Marocain, In Hesperis. T.IV.1924.
- **Montagne (Robert),** Le développement du pouvoir des caïds de Tagondaft, IHEM, Pais.1928.
- **Pascon (Paul),** Désuétude de la jmaa dans la Haouz de Marrakech, BESM. N: 155-156, janvier 1986

- **Pascon (Paul),** Segmentation et stratification rurale Marocaine, In: Actes de Durham, Pub: BESM.1978.
- des élites politiques au Maroc. AAN. Paris. CNRS,1968.

Thèses:

- **Halim (Abdejalil),** L'iqtaà et L'appropriation de la Terre au Maroc: le statut de la terre et des hommes dans le Gharb du 19 siècle, Thèse DES, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat, 1978.

Documents:

- Pauvreté, développement humain et développement social au Maroc: Données cartographiques et statistiques, Haut Commissariat au Plan, Rabat, 2005.
- Monographie du province Kelaa Seraghna
- Diagnostic Territorial Participatif des communes du province de Rhamena, ADS, INDH, DGCL. 2009.

صدر للمؤلف

- دفاعا عن السوسيولوجيا، دار بابل، الرباط، 2000
- سوسيولوجيا الشباب المغربي، دار طوب بريس، الرباط، 2004
- المؤسسة العقابية بالمغرب، دار الكتاب، بيروت، 2005
- صناعة النخبة بالمغرب، منشورات دفاتر وجهة نظر، الرباط، 2006 (ثلاث طبعات)
- الحركات الاحتجاجية بالمغرب، منشورات دفاتر وجهة نظر، الرباط، 2008 (طبعتان)
- تحولات المغرب القروي، دفاتر الحرف والسؤال، سلا، 2009 (طبعتان)
- الليل العاري، مجموعة قصصية، دفاتر الحرف والسؤال، سلا، 2006
- القارة السابعة، دار عرابي للنشر، القاهرة، 2008

في الطريق إلى النشر

- أنطولوجيا السوسيولوجيا المغربية(في جزأين)
- صلحاء مدينة سلا
- سوسيولوجيا الأعيان

للاتصال

- العنوان البريدي: ص ب 9625 مركز بريد حي الأمل، طريق القنيطرة، مدينة سلا، الرمز البريدي 11360.
- البريد الإلكتروني: aelatri@yahoo.fr

إن استدعاء ثلاثية "القبيلة، المخزن، الزاوية" له ما يبرره عمليا وموضوعيا، ففهم وتفهم الكثير من الديناميات والأساسيات التي تحدد ملامح المجتمع المغربي، يظل محدودا بدون تتبع هذه المكونات، كما أن التمكن، أو على الأقل، الاقتراب من تطورات المغرب الراهن يكون متعذرا أحيانا بدون الرجوع إلى مغرب القرن التاسع عشر، الذي كانت ثلاثية "القبيلة والمخزن والزاوية" مساهمة إلى حد كبير في تدبيره وإنتاجه وإعادة إنتاجه.

إن العودة إلى التاريخ، لتتبع وقراءة اشتغال النسق القبلي الرحماني، لن يكون مسكونا بهاجس تأريخي يبحث عن شواهد معينة لتبرير وقائع أخرى، بل إنه عمل يراد منه استدعاء المسار القبلي في تفاعل مع مؤسسات أخرى كان لها الدور البارز في صياغة العلاقات الداخلية والخارجية لذات النسق.

الثمن: 30 درهما